
الباب الثاني

قضايا المعنى

إبداع المعنى فى اللغة العربية من منظور تعدد الحقول المعرفية

لعل أهم الجوانب فى دراسة الاتصال اللغوى هو جانب المعنى. ذلك بأن الاتصال يتم بواسطة الإلقاء والتلقى، ويسعى المتلقى دائماً إلى إدراك مقاصد الملقى. وقد تقوم العقبات فى سبيل إدراك هذه المقاصد فىكون ذلك سبباً فى فشل مشروع الاتصال، بل إن الملقى نفسه قد يكون سبباً فى إفشال هذا المشروع، إما عن عمد وإما عن غفلة. فأما العمد فإن اللغة قد تتخذ وسيلة لإخفاء المقاصد الحقيقية للملقى وتضليل المتلقى، على نحو ما يحدث أثناء المفاوضات السياسية، أو بواسطة صور أسلوبية خاصة كالإلغاز والتعمية مثلاً. وأما الغفلة فقد يأتى خفاء المعنى بسبب ما ينشأ عن بعض التراكيب من اللبس الذى يكون سبباً فى تعدد احتمالات المعنى بحيث تقوم الحاجة إلى قرينة تدل على إرادة واحد منها دون غيره، كما فى قولنا: "زيارة الأصدقاء تسعد النفس" إذ لا يدرك السامع من الذى زار ومن الذى سعد بالزيارة. ومثل ذلك قوله: "زرت جميع متاحف الآثار المصرية" إذ يصلح لفظ "المصرية" لوصف المتاحف كما يصلح لوصف الآثار، إلا أن تقوم قرينة على إرادة أحد المعنيين.

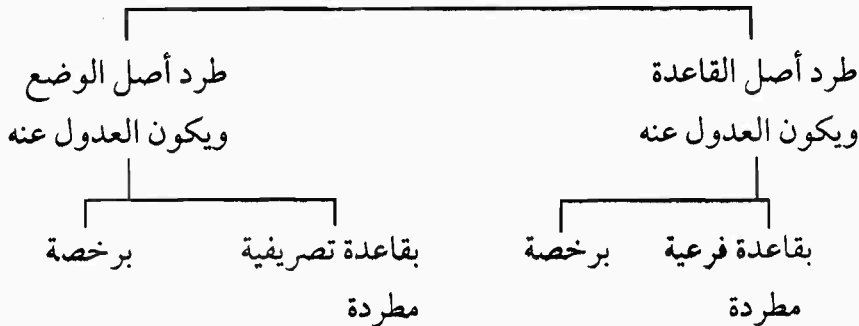
واللغة نظام يربط بوسائله المعينة بين ما يقال وبين طريقة فهمه، سواء كان القول سعياً إلى إيضاح القصد أم إلى إخفائه. وكأنى بإظهار المقصود يبدو ألصق بالتزام الطابع العرفى للأداء اللغوى كما يكون إخفاء القصد ألصق بالطابع الأسلوبى

الفردى. ويربط ذلك من جهة أخرى بدرجة الإعلامية فى النص؛ فإعلامية النص قد تكون فى الدرجة الدنيا كحين يتفق اللفظ فى ركنى الجملة نحو: الحق حق والباطل باطل، إذ لا يضيف الخبر شيئاً إلى ما عبر عنه المبتدأ، ومثله ما نجده فى قول أبى الحسن الأشعرى: من عرفنى فقد عرفنى ومن لم يعرفنى فأنا أبو الحسن الأشعرى.. الخ، وذلك عندما أعلن هجره للاعتزال وانفصاله عن المعتزلة. فهذه الدرجة الدنيا من الإعلامية تفتقر إلى إعلاء يرقى بها إلى الدرجة الوسطى (وهى الدرجة المثلى فى الإعلامية) ليؤولها المتلقى إلى معنى مقبول. أما الدرجة العليا من الإعلامية فهى درجة الإلغاز والتعمية، وهى تحتاج إلى خفض يهبط بها إلى مستوى الدرجة الوسطى التى يسهل بها فهمها عند ما يجرى فك شفرتها من قبل المتلقى.

وإذا كانت اللغة نظاماً فإن من شأن كل نظام أن يكون مؤلفاً من وحدات متكافئة متضافرة فى أداء وظائفها. فشأن كل وحدة فى علاقتها بالأخرى هو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كاليدى تغسل إحداهما الأخرى". ولهذا التكافل والثبات فى بنية النظام كان الاطراد من ثوابت النظام. بل فى الدرجة العليا بين الثوابت يدعمها ثابتان آخران هما أمن اللبس فى المعنى وطلب الخفة فى المبني.

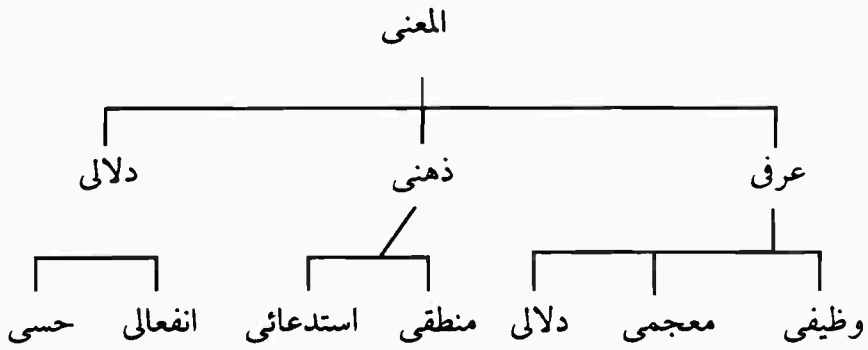
وهكذا تبدو العلاقة بين الثوابت الثلاثة كما يلي:

ثوابت النظام النحوى



وإذا كان ههنا فى هذه العجالة مرتبطاً بالمعنى فإننا سنوجه كل جهدنا إلى إدراك

كل هذا المعنى اللغوي، وذلك بواسطة ذكر أقسامه وطبيعة كل قسم منها، وطرق الإبداع في حدود كل قسم من هذه الأقسام. وفيما يلي بيان لهذه الأقسام:



المعنى العرفي:

ينقسم المعنى العرفي كما يبدو في الشكل البياني إلى وظيفي ومعجمي ودلالي. دعنا أولاً نلق نظرة على المعنى الوظيفي لنعلم أنه ينقسم إلى قسمين: تحليل وتركيب. ولقد ذكرنا منذ قليل أن اللغة نظام أكبر مكون من نظم فرعية بينها علاقة تكافل تجعل وظيفة كل منها تتوقف على وظائف النظام الفرعي الآخر. تلك النظم الفرعية هي: نظام الأصوات ونظام الصرف ونظام النحو. فأما النظام الصوتي فيقوم على اتفاق الأصوات أو اختلافها في المخارج والصفات، وليس للصوت اللغوي في ذاته معنى ولكنه يتخذ وسيلة للوصول إلى معنى الكلمة. فالحركة الإعرابية صوت، ونون الرفع صوت، والأمر كذلك في تاء الفاعل وألف الاثنين وواو الجماعة وتعدية الثلاثي اللازم بالهمزة أو بالتضعيف وظواهر أخرى تكون فيها الأصوات المفردة وسيلة للوصول إلى معنى من معاني النحو. عندئذ يكون الصوت قرينة من قرائن المعنى. وأوضح ما نسبت إليه صفة القرينة من الحركات ضمة الفاعل وفتحة المفعول. ومعنى هذا أن النظام الصوتي لا يقوم لذاته ولا بذاته، وإنما ليقوم بإمداد النظامين الصرفي والنحوي بقرائن للمعنى الوظيفي في نطاق هذين النظامين، كما يعين على أداء المعنى الانطباعي الذي لم يحن وقت الكلام في شأنه.

أما النظام الصرفي فإن نصيبه من الدلالة على المعنى يتعلق ببنية المفردات وليس بالمفردات ذاتها؛ لأن المفردات ومعانيها المفردة تقع في نطاق المعجم أما البنية وما تدل عليه من معنى عام (حقه أن يؤدي بالحرف) فهي ومعناها يقعان في نطاق النظام الصرفي. فإذا قلنا إن البنية التي تتمثل في صيغة "استفعل" تدل على الطلب نحو "استغفر" أي طلب المغفرة فينبغي أن نعلم أن الطلب من المعاني العامة التي لا تقتصر على مطلوب بعينه وأن مثله كمثل دلالة اللام على التعليل ودلالة الواو على القسم. ومن هنا تكون "استفعل" قالبا يمكن أن يصاغ على مثاله عدد لا حده من الكلمات. كذلك إذا قلنا إن المصدر يدل على الحدث فإن عدد الكلمات الدالة على الحدث (وهو معنى عام) قد يستعصى على الحصر. ومن قبيل ذلك أيضا أن كل اسم فاعل يدل على الحدوث والتجدد، وكل صفة مشبهة تدل على الدوام والثبوت، وأن الحال ينبغي أن تكون مشتقة ويكون التمييز جامداً ولا يصاغ التفضيل والتعجب كلاهما إلا من قول فعله ثلاثي متصرف دال على التفضيل وهو تام مثبت ليس الوصف منه على وزن أفعل ولا يستوى فيه المذكر والمؤنث.

ولقد جذب انتباه النحاة العرب ما يطرأ من تغير في بنية المفردات في بيئتي الجدول والسياق وما يرتبط بهذا التغير من اختلاف الوظيفة التي تؤديها الكلمة المفردة، فلاحظوا ما يلي:

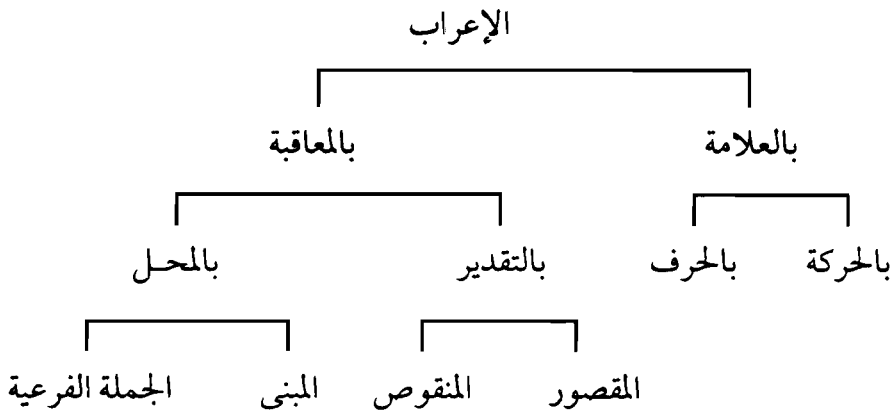
- ١ - ارتباط وظيفة الكلمة في السياق بما يكون من حركات الإعراب على آخرها.
- ٢ - وارتباطها بما تفيد من دلالة على مسمى أو حدث أو زمن مجرد علاقة بين عنصرين في السياق كدلالة حرف العطف على العلاقة بين المتعاطفين.
- ٣ - أو كون الكلمة مصوغة على قالب يمنحها معنى عاما كأن تدل على فاعل أو مفعول أو مبالغة أو تفضيل... الخ.
- ٤ - ولاحظ النحاة أن بعض الألفاظ لا يستعمل إلا مقترناً بلفظ آخر، وأن ألفاظا تختص بالدخول على قسم بعينه من أقسام الكلم، وأن اللفظ في السياق من شأنه نحويًا أن يصاحب من هو له معجمياً.

٥ - ولاحظوا أن لأقسام الكلمة في السياق رتبا بعضها ولا يختلف ويجوز في البعض الآخر أن تخضع رتبته لمطالب الأسلوب.

٦ - ووجدوا أن أواصر العلاقة بين كلمة وأخرى في السياق قد تتحقق بإعادة اللفظ أو المعنى أو بعود الضمير على مذكور سابق ونحو ذلك أو بمطابقة أحد اللفظين للآخر في التكلم أو أحد فرعيه والإفراد أو أحد فرعيه وفي التذكير والتأنيث وفي التعريف والتنكير وفي الإعراب.

٧ - ووجدوا أن الألفاظ قد تذكر أو تحذف، أو تضمّر أو يضمّر لها أو يتصيد معناها من السياق. وهكذا فهم النحاة مما لاحظوه أن المعنى النحوى بحاجة إلى قرائن تدل عليه فاستخلصوا من فهمهم هذا عددا من القرائن المختلفة الطابع التي تدل على المعنى، وينتمى كل منها إلى فرع من فروع النظام اللغوى كما يلي:

أ - فالإعراب ينتمى في جملته إلى النظام الصوتى، ولكنه قد تكون له علاقة هي عنصر من عناصر الأصوات وقد لا تكون. فيبدو الأمر في صورته العامة على النحو التالى:



والإعراب بالعلامة إنما يكون بالحركة للمفرد الصحيح الآخر، وبالحرف للمثنى والجمع والأسماء الخمسة. وأما المعاقبة فهي للمقصور والمنقوص إذ يفترض المعرب أن لفظا صحيح الآخر وقع في الموقع الذى حل فيه المقصور أو المنقوص فما الحركة

التي يستحقها هذا الصحيح؟ حتى إذا عرف الحركة قدرها على آخر المقصور أو المنقوص. وللعنصر اللغوى المبنى كما للجملة الفرعية علاج آخر. ذلك أنها لا يخضعان للإعراب لا بالحركة ولا بالمعاقبة، لأن المبنى لا يتغير آخره مهما تغيرت وظيفته النحوية، ولأن الجملة لا تخضع لما تخضع له المفردات من صور التغير الإعرابى. ومن هنا ينسب الإعراب إلى المحل.

ب - والبنية قرينة تنتمى إلى النظام الصرفى لتكون فى خدمة النظام النحوى بواسطة ما يكون لها من معنى صرفى عام كدالاتها على الفاعل كضارب أو على المفعول كمضروب أو المبالغة كضرب أو شرط جمودها كالتمييز أو شرط اشتقاقها كالحال أو دلالتها على المرة أو الهيئة... الخ.

ج - الضام، ويقع فى ثلاثة أقسام:

الأول الافتقار: ومعناه ألا يكون اللفظ صالحا للورود بمفرده، وإنما يحتاج إلى ضميمة يكتمل بها معناه، كافتقار حرف الجر إلى مجرور وحرف العطف إلى متعاطفين والموصول إلى صلة... الخ. وقد يكون الافتقار للباب لا لللفظ كافتقار المضاف إلى مضاف إليه والمبهم إلى مفسر.. الخ.

الثانى الاختصاص: ومعناه أن يكون العنصر اللغوى مرتبطا من حيث وروده بعنصر ما دون غيره، كاختصاص حروف الجر بالأسماء وحروف الجزم بالأفعال وكاختصاص "لم" بالدخول على المضارع.

الثالث المناسبة المعجمية: وذلك أن يرتبط استعمال اللفظ بمصاحبة ما يناسبه من الألفاظ فى المعنى. وذلك ما يشير إليه البلاغيون بقولهم: "إسناد الفعل إلى من هو له". فمن شأن الفعل "فهم" مثلا أن يسند إلى العاقل الذى يصح منه الفهم. ولا يجاوز ذلك بالنقل من معناه الأصلى إلى معنى آخر إلا لعلاقة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلى.

د - الرتبة: وهى نوعان:

الأول الرتبة المحفوظة: كرتبة الحرف ومدخوله، والموصول وصلته، وعنصرى الإضافة، والمبهم والمفسر، والفعل والفاعل... الخ.
الثانى الرتبة غير المحفوظة: كرتبة المبتدأ والخبر، والفعل والمفعول به أو فيه أو له، ونحو ذلك. وهذا النوع الثانى هو الذى أعان البلاغيين على التنظير لمبدأ التقديم والتأخير.

هـ - الربط وهو نوعان:

الأول الربط بالإحالة: وذلك أن يشير عنصر لاحق إلى عنصر آخر سابق فى سياق النص. ومن ذلك أن يعاد ذكر العنصر السابق بلفظه أو بمعناه أو بضميره أو الإشارة إليه... الخ. كما يؤدى حرف الجر وظيفة ربط المجرور بالفعل ونحوه، ويؤدى حرف العطف إلى ربط أحد المتعاطفين بالآخر، وتؤدى الأدوات الداخلة على الجمل بما لها من رتبة الصدارة إلى الربط بين ما يقع فى حيزها من مفردات الجملة، وهلم جرا.

الثانى الربط بالمطابقة: فى حقول المطابقة المختلفة، وهى: العدد (الإفراد والتثنية والجمع) والشخص (التكلم والخطاب والغيبة) والنوع (التذكير والتأنيث) والتعيين (التعريف والتنكير) والإعراب.

و - نعمة الكلام: ولك أن تتصور تنوع المعنى المقصود بعبارة "ما هذا" بحسب تنوع النعمة أثناء الكلام بين الاستفهام الصريح وبين الإنكار. كما أن لك أن تتصور اختلاف النعمة فى عبارة "سلام عليكم" فى قوله تعالى ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّفْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَّا أَعْمَلُنَا وَلَكُمُ أَعْمَلُكُمْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ (القصص ٥٥) وهى تفيد المغاضبة وبين عبارة: "السلام عليكم" التى تقال للتحية.

ز - السياق: وهو أيضا نوعان: سياق النص، وسياق الموقف.

الأول سياق النص: وهو أن يشتمل النص على قرينة تعين على فهم المعنى لولاها ما فهم المعنى على وجهه الصحيح. مثال ذلك قوله تعالى: ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا

عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ فلقد نسب بعض المفسرين معنى "ما" إلى الموصولية ليكون معنى الآية: ليأكلوا من ثمره ومن الذى عملته أيديهم. ولكن قرينة السياق تدل على معنى النفى من جهتين: الأولى قوله تعالى: أفلا يشكرون، والثانية أن الله تعالى يقول فى سورة النمل: ﴿أَمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ دَاثَ بِهِجَةً مَا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ﴾ (النمل ٦٠). فالإنسان إذا أعد طعاماً لنفسه ثم أكل هذا الطعام فهو غير مطالب بالشكر، ولا يطالب به إلا إذا أكل ما أعده غيره. هذا ما يدل عليه سياق النص. أما آية سورة النمل فتدل على المعنى نفسه بطريق "التناص". والقرينة فى الحالتين تدل على أن معنى "ما" هو النفى.

الثانى سياق الموقف: عرف التراث العربى الاعتداد بهذه القرينة فى نواح متعددة. فلقد عرفها النحاة بظروف النطق، وأخيراً عرفها رواة الشعر من خلال إيراد الملابس التى قيل فيها الشعر. ومثال الانتفاع بهذه القرينة ما ندركه عند تأمل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَأَ هُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ لَيْسَجُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ (يوسف ٣٥) إذ يدور فى الذهن سؤال عن سبب هذا البداء حتى نعثر على الإجابة فى قوله تعالى فى آية سابقة: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتْنَهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ (يوسف ٣٠). فعندئذ يظن العزيز أن يوسف هو المسئول عن معرفة النسوة بهذا الخبر وقد كان العزيز أوصاه بالكتمان بقوله له: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ (يوسف ٢٩). وهكذا يكون فهم النص متوقفاً على وجود قرينة سياق الموقف. وحين نقرأ قوله تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ (يوسف ٧٦) نجد أنه لولا معرفة تفاصيل الموقف لرأينا أن تصرف يوسف عليه السلام لا يتناسب مع النبوة. غير أن الأمر كما يتبين من سياق الموقف يحمل دلالة على ما يلى:

١ - شوق يوسف إلى أخيه الذى دفعه إلى مطالبة إخوته لأبيه بإحضاره.

٢ - رغبته فى الاحتفاظ بأخيه عنده بعد إحضاره.

٣ - تدبير مكيدة السرقة لتكون عوناً على الاحتفاظ بالأخ.

٤ - إلصاق تهمة السرقة بهذا الأخ لأسباب عملية.

٥ - بعد إثبات التهمة على أخيه لم يرد أن يطبق عليه العقوبة المعروفة في مصر لأنه (ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك) فسأل الإخوة عن العقوبة في عرفهم فقالوا: "من وجد في رحلة فهو جزاؤه". أى جزاؤه أن يؤخذ في الرق سنة كاملة.

٦ - عندئذ قرر يوسف أن يلصق تهمة السرقة بأخيه لينشئ بذلك وسيلة اتصال بأسرته واستقدامها إلى مصر.

ذلك هو سياق الموقف كما يبدو من القصة في سياق نص السورة.

دعنا ننظر الآن نظرة تطبيقية إلى القرائن النحوية التي يتضح بها معنى الجملة تمهيدا للنظر في طرق الإبداع في إجراء النص. فلنفرض أن عندنا جملة مثل: ذهب الرجل إلى حال سبيله، وكان علينا أن نوضح القرائن النحوية في هذه الجملة. (أقول: قرائن النحو وهي تختلف عن قرائن النص، ولكنها تُستدعى عندما يحتاج فهم النص إليها.

١ - أول ما نلاحظه قرينة البنية التي تبدو في المظاهر التالية:

أ - ذهب فعل في صورة الماضي.

ب - الرجل اسم معروف بالألف واللام.

ج - إلى حرف.

د - حال اسم.

هـ - سبيل اسم.

و - الهاء ضمير غيبة.

٢ - التضام، ويبدو في المظاهر التالية:

أ - الفعل يحتاج إلى فاعل، وقد تحقق له ذلك بلفظ "الرجل".

ب - الحرف يفتقر إلى اسم يلحقه، وقد لحقه "حال".

ج - كلمة "حال" لفظ مبهم يحتاج إلى ما يخصه من وصف أو إضافة.

د- أضيف لفظ "حال" إلى لفظ "سبيل".

٣- الرتبة، وتبدو فيما يلي:

أ- تقدم الفعل على الفاعل.

ب- تقدم حرف الجر على المجرور.

ج- تقدم المرجع على الضمير.

د- تقدم المضاف على المضاف إليه.

٤- الربط، ويبدو الربط فيما يلي:

أ- تعلق الجار والمجرور (حال) بالفعل (ذهب).

ب- عود الضمير على الرجل.

٥- الإسناد، وهو قرينة معنوية تفيد العلاقة بين الفعل والفاعل، أى أن الفعل صدر

عن الفاعل أو قام به (أى أن الفعل وقع منسوباً إلى الفاعل).

٦- الإعراب، وهو يتمثل فى أن الرجل مرفوع، وكون حال وسبيل مجرورين، كما

يتمثل فى محل الضمير العائد إلى الرجل.

وبهذه العلامات (أو القرائن) مجتمعة وصلنا إلى فهم المعنى النحوى للجملة، ولكننا لم نفهم المعنى النصى من حيث لا نعلم من هو الرجل ولا الظروف التى دعت به إلى الذهاب إلى حال سبيله كما لا نعلم من المتكلم ولا من السامع. ومن هنا صارت الجملة مثالا نحويًا ولم ترق إلى مستوى شاهد نصي. وعندما ذكرنا ثوابت النظام النحوى قلنا إنها ثلاثة هى: الطرد أو الاطراد وأمن اللبس فى المعنى وطلب الخفة فى المبنى. ونود أن نضيف فى هذا الموضع أن النحاة كانوا يغارون على اطراد قواعدهم كالذى يتضح مما كان بين عبد الله بن أبى إسحق الحضرمى النحوى وبين الفرزدق الشاعر، ومن رد الفرزدق على الحضرمى بقوله: (علينا أن نقول وعليكم أن تتأولوا). وربما فهمنا من هذا الوضع أن أمن اللبس وطلب الخفة كانا قيدين فى تحقق الاطراد، بمعنى أنه إذا أمن اللبس وتحققت الخفة أمكن العدول عن الأصل

وجاز ارتكاب الرخصة. يمكن الكشف عن هذا الموقف بالاستشهاد بعبارات من ألفية ابن مالك تجعل الإفادة شرطاً للعدول فيما يلي:

ولا يكون اسم زمان خبراً عن جثة وإن يفد فأخبراً
ولا يجوز الابتداء بالنكرة ما لم تفد كعند زيد نمرة

فأمن اللبس في مثل هذه المواضع كان سبباً في العدول عن القاعدة الأصلية إلى قاعدة أخرى فرعية مما يدل على أن القاعدة معيار مقيد بأمن اللبس.

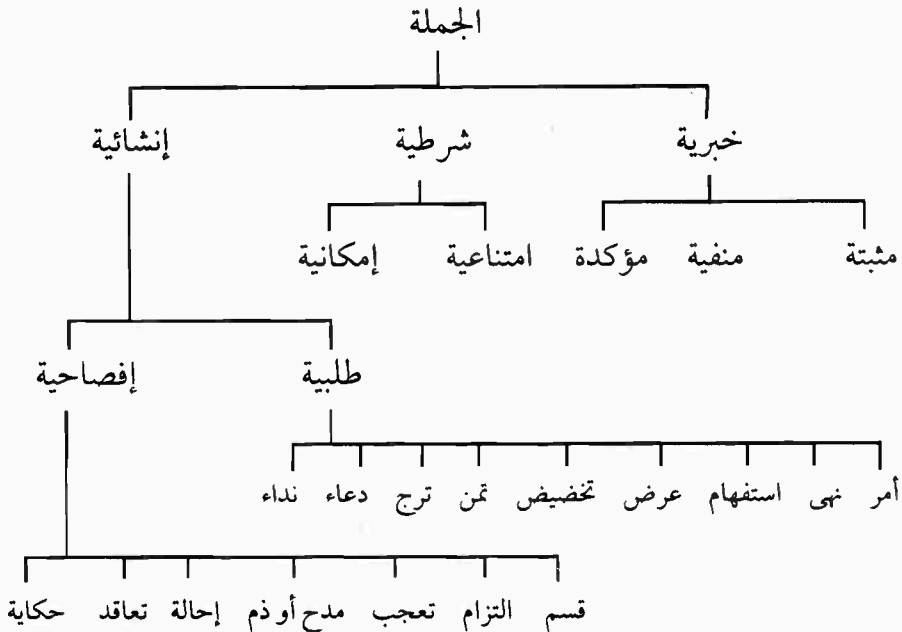
ليس ذلك فحسب؛ بل إن هناك أمراً آخر يبيحه أمن اللبس، وهو الترخيص في المحافظة على البنية النحوية إذا أغنى عنها غيرها فأمن اللبس بدونها فلم تعد ضرورة للكشف عن المعنى. عندئذ يترخص المتكلم في القرينة ولا يحذ السامع صعوبة في الفهم. وقد يكون من المستحسن هنا أن نضرب بعض الأمثلة لظاهرة الترخيص عند أمن اللبس، وإن كان موضع ذلك سيأتى عند الكلام في طرق الإبداع. قال امرؤ القيس:

كأن ثبيراً في عرائن وبله كبير أناس في بجاد مزمل

بجر لفظ "مزمل" مع استحقاقه للرفع لكونه نعتاً للفظ "كبير" المرفوع. والله سبحانه وتعالى قال لإبراهيم: ﴿ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ﴾ (البقرة ١٢٤). ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ (فاطر ٤٥) ولم يذكر مرجع الضمير الذى في ظهريها، والمرجع هو الأرض لأن الدابة لا تدب إلا عليها فالمعنى أوضح واللبس مأمون فلم يتحتم ذكرها.

أما الثابت الثالث وهو ما عرفه النحاة باسم طلب الخفة فإنه يكشف عن الذوق اللغوى العربى فيما يتصل بشروط توالى الأصوات فى عملية النطق. فلقد وجد النحاة من خلال الاستقراء أن الذوق العربى يكره توالى المثليين وتوالى المتقاربين مخرجاً أو صفة، كما يكره توالى الأضداد. ولكنه يرحب بتوالى الصوتين المختلفين فى المخرج المزهر للسيوطى (ص ١١٩) من وصفه لرتب الفصاحة؛ إذ جعل المخارج أنواعاً ثلاثة هى: الأقصى والأوسط والأدنى. ثم رصد احتمالات توالىها فى النطق

حتى جعل أفصح الألفاظ ما توالى فيه الأقصى فالأوسط فالأدنى نحو لفظ "عدم".
أما عند النحاة فالأمر أكثر تفصيلاً، لأنهم بتجريدهم أصل وضع الكلمة استطاعوا
أن يرصدوا الطرق المؤدية إلى الخروج من دائرة الثقل، وإن يكشفوا عن وسائل
اللغة العربية للعدول عن هذا الأصل الثقيل والوصول بطلب الخفة إلى غايته
المنشودة بواسطة ما جردوه من قواعد تصريفية على أساس من الإدغام والإعلال
والإبدال والنقل والقلب والحذف... الخ. فأدغموا المثليين والمتقاربين لكرهية
تواليهما ومنعوا توالى الضدين (كالصاد والجيم) مثلاً وأعلوا الواو والياء في مواقع
معنية وأبدلوا حرفاً من حرف (كإبدال الطاء من تاء الافتعال بعد الحرف المفخم)
ورصدوا انتقال أحد أصول اللفظ من موقعه إلى موقع آخر كما في لفظ "جاه".
وقلب حرف في النطق إلى صورة حرف آخر كما في "كساء وبناء" وحذف حرف ما
لثقل النطق به كما في حذف الواو في "لتبلون". وأخضعوا كل ذلك لقواعد تصريفية
سمتها السعى إلى طلب الخفة. بهذا نكون قد أنهينا القول في المعنى التحليلي (أحد
قسمي المعنى الوظيفي) لتتناول بعد إن فرغنا منه القسم الثاني وهو المعنى التركيبي،
أي معنى الجملة. ويبدو هذا المعنى على الصورة الإيضاحية التالية:



أما لفظيا فهي إما أسمية وإما فعلية وإما مسكوكة من عناصر أخرى.

بقى أن نتناول في حدود المعنى الوظيفي ظاهرتين يتوقف عليهما مفهوم الاقتصاد اللغوي هما: تعدد المعنى الوظيفي، ونقل اللفظ من قسم إلى آخر من أقسام الكلم، وعندئذ يتعرض معناه للتغير. وهكذا يصبح تغير المعنى سمة مشتركة للنوعين كليهما. ومن شواهد النقل مثلا ما نلاحظه من انتقال "إذ" من معنى الظرفية إلى معنى المصدرية في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُرْغِ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ (آل عمران ٨) أى بعد أن هديتنا. ومن الظرفية إلى التعليل كما في قوله جل شأنه: ﴿قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ (النساء ٧٢) أى لأنى لم أكن معهم، وتصلح هنا للواسطة أيضاً أى بأنى لم أكن معهم. ومن ذلك ما يكون من شأ، "ما" الموصولة بحسب أصل وضعها إذ تنقل إلى استعمال الحروف والأدوات، فتكون استفهامية أو شرطية أو تعجبية أو مصدرية أو زائدة، فيتعدد معناها في نطاق الحرفية. وبذا تتحقق بها الظاهرتان معاً وهما: النقل من الموصولية إلى الحرفية ثم تعدد المعنى في نطاق الحرفية.

هذا هو الشأن في المفردات. أما نقل نمط الجملة من معناه الأصل إلى معنى آخر فهو أيضاً من وسائل الاقتصاد في اللغة. فلو نظرنا إلى تركيب جملة مكونة من فعل وفاعل أو من مبتدأ وخبر لنسبنا التركيب إلى الجملة الخبرية لأول وهلة، ولكننا إذا دققنا في تفهم دلالة السياق فربما وجدنا للجملة معنى آخر كدلالة التركيب الخبرى على الأمر في قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ (البقرة ٢٢٨)، أو الدعاء نحو: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (هود ١٨) وقولنا "رعاك الله" أو "بارك الله فيك". كما يستعمل هذا النمط للدلالة على الشرط كما في قوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ (البقرة ٢٧٤) وقوله ﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَاقِظَاهُمَا﴾ (النساء ١٦). وكذلك يستعمل هذا التركيب في معنى العرض نحو: ﴿قَالَ يَقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ (هود ٧٨)، وفي معنى الالتزام والتعاقد كقول موسى

لشعيب: ﴿ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ (القصص ٢٨)، وإفادة التعجب نحو ﴿إِنْ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ (ص ٥). وأما النمط الخبرى المنفى فينقل إلى الدعاء، نحو: ﴿فَلَا أَقْتَحِمُ الْعَقَبَةَ﴾ (البلد ١١)، أو إلى النهى نحو ﴿فَلَا رَفَتْ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ (البقرة ١٩٧). وقد يخرج النمط الشرطى إلى التعجب نحو ﴿وإن تعجب فعجب قولهم﴾ (الرعد ٥)، وإلى التمنى نحو ﴿لَوْ أَن لَنَا كُرَّةٌ فَنَتَبَرَّأُ مِنْهُمْ﴾ (البقرة ١٦٧) وإلى التسوية نحو ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (الإنسان ٣) أى إن كان شاكرًا... الخ. وينقل النداء إلى معنى التعجب نحو ﴿يَبْشُرَتْنِي هَذَا غُلَامٌ﴾ (يوسف ١٩)، وإلى الندبة كما فى قول يعقوب: ﴿يَتَأَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ (يوسف ٨٤)، وإلى الاختصاص نحو ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمَكْذِبُونَ ﴿٥١﴾ لَا تَكُونُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ رَقُومٍ﴾ (لواقعة ٥١-٥٢) وإلى التمنى نحو ﴿يَلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوقِيَ قُرُونُ﴾ (القصص ٧٩). وينقل الأمر إلى معنى الشرط نحو ﴿أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر ٦٠)، وإلى النهى نحو ﴿إِنَّمَا الْحَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ (المائدة ٩٠) أى لا تقربوه. وإلى العرض نحو ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾ (يوسف ٧٨)، وإلى التحدى نحو ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنْ السَّمَاءِ﴾ (الشعراء ١٨٧). وينتقل النهى إلى الدعاء نحو ﴿رَبَّنَا لَا تُرْغِ قُلُوبَنَا﴾ (آل عمران ٨)، وإلى الأمر نحو ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران ١٠٣) أى تمسكوا بالإسلام حتى الموت، كما ينقل أيضا إلى الشرط نحو ﴿وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ (هود ١١٣). أما الاستفهام فينقل إلى الإنكار نحو ﴿هَلْ أَمِنتُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ﴾ (يوسف ٦٤)، وإلى التقرير نحو ﴿أَلَمْ يَحْذَكَ يَتِيمًا فَقَاوِي﴾ (الضحى ٦)، وإلى النهى نحو ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء ١٦٥)، وإلى الأمر نحو ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (الحجر ٧٠). بهذا يتبين أن النقل من وسائل التعبير إلى الكثير من المعانى.

والمعروف أن ظاهرة النقل من وسائل الإبداع في المعنى، وبخاصة إذا انتقلنا من الكلام في المعنى الوظيفي إلى تناول المعجمي. فالمعروف أن المعنى المعجمي أيضاً يتسم بالتعدد وينحصر لظاهرة النقل. وليبيان ذلك دعنا أولاً نضرب مثلاً شهيراً لنقل المعنى المعجمي بوصفه وسيلة من وسائل الإبداع في اللغة العربية. فحين عرّف البلاغيون المجاز قالوا إنه: "نقل من معناه الأصلي إلى معنى آخر لعلاقة بينهما مع وجود قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي". فإذا نظرنا إلى نص هذا التعريف وجدناه يبدأ بكلمة "نقل"، فدلنا ذلك على أن النقل وسيلة من وسائل الإبداع للمعنى اللغوي. هذا من جهة النقل. أما من جهة التعدد فإننا إذا نظرنا إلى أية كلمة في المعجم لم نجد لها معنى فريداً لا يتعدد، وإنما تتعدد معاني الكلمة الواحدة بحسب ما يحيط بها من سياق النص (بل من سياق الموقف أحياناً)؛ ومن هنا جاءت ضرورة الاستشهاد على المعنى المراد بالكلمة، كما تلزم الصورة وغيرها من القرائن الدالة على المراد. انظر مثلاً إلى تعدد معاني لفظ "ضرب" فيما يلي:

- | | |
|--------------------------|------------|
| ١ - ضرب الأب ابنه | < لطمه. |
| ٢ - ضرب الله مثلاً | < قاله. |
| ٣ - ضرب له موعداً | < حدده. |
| ٤ - ضرب له قبة | < أقامها. |
| ٥ - ضرب النقود | < صاغها. |
| ٦ - ضرب ضريبة | < فرضها. |
| ٧ - ضرب الجرس | < دقة. |
| ٨ - ضرب ٥ × ٦ | < حسبها. |
| ٩ - ضرب أخماساً في أسداس | < ارتبك. |
| ١٠ - ضربت عليهم الذلة | < أصابتهم. |

فهذا التعدد في المعنى يذكرنا بما سبق من تعدد المعنى الوظيفي للظرف "إذا"

وللموصول "ما" بعد نقلهما إلى قسم الحروف؛ أى أن ظاهرتى النقل وتعدد المعنى من ظواهر النظام اللغوى بمفرداته وتراكيبه على حد سواء.

وللإبداع فى مجال المعنى العرفى وسائل أخرى تعارف عليه البلاغيون والمعنيون بالأساليب من ظواهر الوصل والفصل والتقديم والتأخير والحذف والزيادة والإضمار والقصر والإيجاز والإطناب والوقف وما أشار إليه علم النص من مفاهيم السبك والمساوقة والإعلامية ورعاية الموقف... الخ. دعنا نورد بعض الشواهد من النص القرآنى أيضا لندلل بها على صدق ما نقوله عن هذه الظواهر

* إن فصل الجملة عما يليها فى الكلام يدل على الرغبة فى إنهاء موقف غير مرغوب فيه من لدن أحد طرفى الاتصال (الملقى والمتلقى): فقد يرغب الملقي فى إنهاء الاتصال كما فى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَنَّةَ﴾ (القصص ٥٥).

* وقد تكون الرغبة فى إنهاء الموقف من لدن المتلقى كما فى قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (٦٢ - ٦٣). وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ (١١٦) (المائدة ١١٦)

فالفصل فى هاتين الآيتين الأخيرتين يدل على فزع المتلقين (الذين حق عليهم القول وعيسى عليه السلام) أثناء الإجابة على السؤال الذى وجهه سبحانه إليهم، وعلى رغبة كل من الفريقين فى إنهاء الموقف بالسرعة الممكنة.

ومما يتصل بظاهرة التقديم والتأخير ظاهرة الوقف، فالوقف أيضا متصل بتمام المعنى ولا يكون بدونه. وقد يحدث أحيانا أن يتوقف إدراك تمام المعنى على إحدى القرائن ويتوقف إدراك هذه القرينة ذاتها على السياق ومن هنا يكون السياق هو معيار وجوب الوقف. وذلك كما يلي:

* قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ (يونس ٦٥) فالوقف واجب على "قولهم" مع الاستئناف بما بعده؛ لأنهم لو قالوا: "إن العزة لله جميعا" ما كان ثمة داع للحزن.

* قال جل شأنه: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (القصص ٨٨) فالوقف واجب على لفظ "آخر" لأن المعية التي قبله ونفيها الذي بعده لا يلتقيان، والآخر لا ينعت بالتوحد لمجرد كونه آخر. ومن هنا يكون الاستئناف سببا في صرف معنى نفى الغير إلى الله سبحانه وتعالى، لا إلى لفظ "آخر".

وأما ظاهرة الإبداع من خلال التقديم والتأخير فمثالها قوله تعالى: ﴿أَيْفَكَاءَ إِلَهِةٍ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ (الصافات ٨٦) ذلك أن الترتيب النحوي لهذه الآية بحسب الأصل يقتضى أن تكون الرتبة: أتريدون آلهة دون الله إفاكا؟ ولكن ترتيب العناصر المكونة لهذه الآية جاء حسب ترتيب أهمية الإنكار والاعتراض على كل منها. فالإفاك أولها والشرك ثانيها، وتأتى الإرادة لكل منهما أخيراً، لأن الإرادة فى ذاتها ليست موضع اعتراض، وإنما ترفض عندما تتجه إلى الباطل.

والحذف عندما يكون المذكور متضمناً للمحذوف كما فى قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقَى حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ (القصص ٢٣ - ٢٤). فالسقى والدود والإصدار إنما يكون للماشية ومن ثم لم يرد لها ذكر، ولو ورد لكان فائضاً عن مطلب النص.

وقد يحذف الفضلة كما في الآية السابقة وقد يحذف العمدة من الكلام إذا دل عليه دليل. انظر إلى حذف فعل التعجب في قوله تعالى: "ما الحاقة" لدلالة على ما بعده عليه من قوله سبحانه: "وما أدراك ما الحاقة" ومثله "ما القارعة" وما أدراك ما القارعة". وفي الحديث الشريف: "زوجي أبو زرع، وما أبو زرع".

وحسن السبك من وسائل الإبداع للمعنى. والمقصود بحسن السبك الوفاء بمطالب الافتقار والاختصاص والمناسبة المعجمية بين المفردات ومطالب الرتبة ووسائل الربط وغير ذلك من الشروط النحوية للكلام. ولو نظرنا إلى ما نظمته المتنبي من تحدى السبك لأدركنا قيمة حسن السبك في إبراز المعنى وبيان حسنه. قال المتنبي:

فأصبحت بعد خط بهجتها كأن قفرا رسومها قلما

أراد أن يقول: فأصبحت بعد بهجتها قفرا كان قلما خط رسومها، ولكن سوء السبك حال دون فهم ما قاله.

ولا يتحقق الإبداع إلا مع رعاية الموقف. فلو أن قائلًا قال لك: إن لي ابنا سميته محمداً فقلت له: لماذا؟ لكان كلامك مخالفاً للموقف لأن الأسماء لا تعلل. ولو تكلم النائم فوعد بشئ ما لم يلزمه الوفاء بهذا الوعد لعدم القصد. ولو سمعت إنسانا يقول "السماء قام ليتنى" لم تقبل منه ذلك بوصفه نصا. ولو سمعت رجلا يقول لأهل الميت: (عقبى لكم) لرفضت منه ذلك لعدم رعاية الموقف. ومعنى ما تقدم أن الإبداع في المعنى لا يتحقق إلا مع رعاية المعايير النصية وحسن الانتفاع بها. ولنا الآن بعد طول سفر أن نلقى نظرة على المعنى الذهني.

المعنى الذهني:

إذا كان الوصول إلى المعنى العرفي يتم بواسطة الاستقراء فإن الوصول إلى المعنى الذهني يتم بواسطة الاستنباط. ذلك أن المعنى العرفي موجود بالقوة في المعهود الفردي وفي الذاكرة الجماعية، ومن هنا كان صالحا للاستقراء. أما المعنى الذهني

فغير موجود لا بالقوة ولا بالفعل، ومن ثم افتقر إلى نوع آخر من الاستدلال وهو الاستنباط الذى قد يصيب فيكشف عن معنى ذهنى صائب وقد لا يصيب فيظل المعنى فى دائرة العدم مفتقراً إلى استدلال أفضل. وقد يكون الاستدلال بواسطة الاستنتاج كما يكون بواسطة الاستدعاء، وفى كلتا الحالتين يكون الوصول إلى المعنى بحاجة إلى نشاط ذهنى. فإذا قلت وأنت طالب بكلية الآداب مثلاً: أنا ذاهب إلى الكلية، علم السامعون من أفراد أسرتك أنك تقصد كلية الآداب دون غيرها، وذلك بحكم العهد الذهنى الذى يربط بين الملقى والمتلقى فى هذا الموقف. وإذا قلت: رأيت اليوم فلانا يصلى الجمعة، وكان معروفاً عن فلان أنه مسافر، فهم السامعون بلازم المعنى أنه قدم من السفر. وإذا قال لك رجل معروف بالجبين: أنت بخيل، فقلت له: ولكنى غير جبان، فسوف يعلم بمفهوم المخالفة أنك تعيره بالجبين. فالعهد الذهنى ولازم المعنى ومفهوم المخالفة ونحو ذلك مفاهيم ذهنية غير عرفية تومئ إلى المعنى وتلقى على الذهن عبء الوصول إليه بجهد منطقى لا يلزم فيه أن يكون سوريا. والمنطق إما أن يكون سوريا يفرض على مقدماته أن توضع فى ترتيب خاص تصلح معه أن تؤدي إلى نتائج قياسية وإما أن يكون غير سوريا كالأمثلة التى سبق ذكرها منذ قليل. وإذا أردنا أن نشرح مفهوم الصورة فأقرب شئ إليها صورة المسائل الحسابية التى تفرض على الأحاد أن توضع تحت الأحاد، والعشرات تحت العشرات، وهلم جرا، كما تسمح عند تساوى كمية فى البسط مع أخرى فى المقام أن تشطباً معا دون أثر على النتيجة. فكذلك الأمر فى المنطق الصورى الذى يحتم أن توضع المقدمات وضعا خاصا، وأن يستبعد الجزء المشترك بين المقدمات الصغرى والكبرى، وعندئذ يكون الباقي هو النتيجة على النحو التالى:

الإنسان	حيوان ناطق
محمد	إنسان
محمد	حيوان ناطق

فانظر كيف حكمت صورة القياس بشطب لفظ الإنسان ولفظ إنسان فى كل من

المقدمتين فبقى بعد الشطب ما صلح أن يكون نتيجة للقياس تنص على أن محمدا حيوان ناطق. هذا الترتيب الصوري لا يصلح لاستخراج المعنى اللغوى فى معمعة الاتصال، وإنما يصلح فيما يرى المناطقة لنقد صحة ما يقال. وليس فى لغة التخاطب العادية ما يحمل أدنى شبه بمقدمات القياس الصورى إلا تركيب الشرط الامتناعى باستعمال "لو" كما فى قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَٰهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء ٢٢). فهذه الجملة يمكن أ، يبنى منها قياس شرطى على النحو التالى:

لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا،

ولكنهما لم تفسدا،

إذن: ليس فيهما آلهة غير الله.

جملة القول أن المعنى الذهنى فى الاتصال اللغوى ليس نتيجة قياس منطقى صورى، وإنما هو نتيجة علاقات ذهنية متنوعة تربط المدركات والمفاهيم معا بواسطة التداعى الذهنى.

تصور أن الشرطة علمت بواقعة قتل فى مكان ما فخف رجال المباحث الجنائية إلى مكان الحادث لمحاولة الكشف عن ظروف وقوع الجريمة ومعرفة من ارتكبتها. إن أول ما يحرص عليه رجال المباحث فى عملهم أن يحافظوا على بقاء كل شئ فى مكانه للمحافظة على الأدلة؛ فلعلهم يجدون فى أوضاع الأشياء ما يصلح أن يكون قرينة على شئ ما كأحد أضرار الملابس أو كخصلة شعر أو شئ لا قيمة له فى ذاته ملقى على الأرض أو نافذة مفتوحة... الخ. فإذا وجدوا من ذلك ما يصلح أن يكون قرينة فإن الذى تدل عليه هذه القرينة هو معنى ذهنى جاء عن طريق الاستنباط. وما يزالون يجمعون الأدلة حتى يصلوا باستعمالها إلى تصور متكامل لما وقع أثناء حدوث الجريمة. وعندها يسهل مع التحرى أن يعرفوا هوية القاتل. وهذه صورة من صور المعنى الذهنى طابعها الاستنباط.

ومن المعانى الذهنية مفهوم المخالفة الذى أشرنا إليه من قبل. تأمل مثلاً قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ (لقمان ٣٤) فلا شك فى أن الله يعلم هذه الأمور الخمسة، ولكن علمه بثلاثة منها يأتى من خلال العبارة الصريحة والمعلوماتان الآخران يأتیان بواسطة مفهوم المخالفة على النحو التالى:

المعلوم	بالعبارة	بالمخالفة
علم الساعة	+	-
نزول الغيث	+	-
علم ما فى الأرحام	+	-
الكسب فى المستقبل	-	+
الموت	-	+

فالتقدير فى المعلوماتين الأخيرين هو (ولكن الله يدرى) وهو المعنى المقصود.

ومن المعانى الذهنية المعنى الاستدعائى (وهو المدلول الذى يستدعيه قول أو عمل). ومنه ما حدده البلاغيون من علاقات الكناية والمجاز المرسل. فأما الكناية فقد جعلوا علاقتها للزوم؛ فإذا قلت: فلان طويل النجاد، فإن طول النجاد يلزم عنه (أى يستدعى إلى الذهن) طول القامة. فلو أن فلانا الذى يحمل سيفاً ذا نجاد طويل لم يكن ذا قامة طويلة لكان مضطراً أن يجير سيفه وراءه، فلا تكون العبارة مدحاً له وإنما تنقلب إلى سخرية منه. وأما علاقات المجاز المرسل فإنها تعود إلى أربع من المقولات العشر هى: الإضافة (وتحتها السببية والمسببية) والكم (وتحتها الكلية والبعضية) والزمان (وتحتها ما كان وما يكون) والمكان (وتحتها الحالية المحلية).

ومن المعانى الاستدعائية ما يأتى فى صورة ظل من ظلال المعنى الأصل للفظ

نتيجة لتحول في العرف، فيقال عندئذ إن العبارة أشربت معنى آخر. أى أن اللفظ المفرد وهو يدل على المعنى العرفي الذى نسب إليه في المعجم قد تجاوز هذا المعنى العرفي حين أصبح في سياق النص ليتحول إلى دلالة أخرى استدعاها جو النص. فمن المعروف أن كلمة "الوطن" مثلاً معناها الرقعة التى ولد فيها المرء ونشأ. فلو أن مصرياً قال: "وطنى مصر" ما أحس السامع لقوله أكثر من انتساب هذا المتكلم إلى مصر، فهذا في قوة قوله: أنا مصرى. ولكن أين هذا من قول شوقي:

وطنى لو شغلت بالخلد عنه نازعتنى إليه في الخلد نفسي

الذى منح الوطن ظلاً لم يكن له وهو لفظ مفرد من ألفاظ المعجم.

ومن المعانى الاستدعائية المعنى الانعكاسى الذى يصيب لفظاً ما ليصير هذا اللفظ غير مستحب في السمع. فمن المعروف مثلاً أن لفظ "البيت" يوحي حال إفراده بالاحترام إذ يدل على مستقر الأسرة أو حتى على البيت الحرام الذى هو قبلة الإسلام. ومن المعروف أيضاً أن لفظ "الأدب" من الألفاظ الداعية إلى الاحترام، فلو نسب شخص ما إلى قلة الأدب فلا بد أن يغضب لنفسه غضباً شديداً. ولو وصفنا إنساناً بأنه (من بيت علم) لسره ذلك، ولكننا لو وصفناه بأنه من (بيت أدب) لرأى في ذلك إهانة له، ولصرف الوصف إلى معنى غير مستحب.

ومن المعانى الاستدعائية المعنى البؤرى الذى يضع اللفظ في بؤرة الاهتمام. وهذا المعنى هو الذى يراه النقاد من وظائف التقديم في الأسلوب الأدبى. وقد سبق أن جئنا بشاهد على قيمة التقديم هو قوله تعالى: ﴿أَپِفْكَآَ إِلَهَآَ دُونَ إِلَآهِ تُرِيدُونَ﴾ (الصافات ٨٦). وقد يأتى هذا الظل البؤرى من خلال التكرار عند الربط بإعادة اللفظ كما في قوله تعالى ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُودْنَ أَلْسِنَتَهُم بِأَلِكْتَبٍ لِّتَحْسَبُوهُ مِنْ أَلِكْتَبٍ وَمَا هُوَ مِنْ أَلِكْتَبٍ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ إِلَآهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ إِلَآهِ وَيَقُولُونَ عَلَى إِلَآهِ أَلَكْذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران ٧٨). وكما في الحديث الشريف حين سأل رجل النبى صلى الله عليه وسلم: "من أحق الناس بحسن صحابتي؟"

قال: "أمك" قال: "ثم من؟" قال: "أمك" قال: "أمك". قال: "ثم من؟" قال: "أبوك". فأعطى للأم بؤرة الانتباه.

أما الوصول إلى الإبداع في المعنى الذهني فمرتته بالنشاط الذهني أيضا. ففي قوله تعالى: "لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا" لم يذكر من القياس إلا هذه المقدمة، ويبقى على الذهن بعد ذلك أن يبنى القضية الثانية وهي: "ولكنهما لم تفسدا" وذلك بناء على الإدراك القائم لعدم الفساد، ومن ثم يمكن الوصول إلى النتيجة القائلة: إذن "ليس فيهما آلهة إلا الله". وفي عمل رجال المباحث الجنائية يكون الوصول إلى شخص القاتل عملا استنباطيا بكل المقاييس وفي المجاز المرسل يكون على الذهن أن يستعين بالمقولات الأربع لاستنباط العلاقات. وفي الكناية يدرك الذهن لزوم بشئ عن شئ آخر. وفي إدراك ظلال المعاني كما في معنى تمجيد الوطن نجد الذهن ينصرف عن المعنى العرفي إلى الاعتزاز وإعلاء القيمة. وفي حالة المعنى الانعكاسي أيضا انصرف عن المعنى العرفي إلى معنى آخر ألصقه الذهن باللفظ بناء على ارتباط بين هذا اللفظ وبين أمر آخر غير مستحب. ويبقى مما ذكرنا من المعاني الاستدعائية ما أطلقنا عليه لفظ "المعنى البؤري" وهذا يعتمد على أمر ذهني ليس من قبيل العرف وهو التكرار أو التقديم أو غير ذلك من الوسائل المستعملة في تسخير اللفظ لتوليد المعنى بواسطة التصرف في خصائص هذا اللفظ لإخراجه من نطاق المعنى الذي تعارف عليه المجتمع اللغوي إلى معنى آخر يدركه الذهن ولا يفرضه العرف.

المعنى الانطباعي:

إذا سمعت قطعة موسيقية فإنها تترك في نفسك أثرا طيبا أو سيئا، وربما أثارت في نفسك نشاطا يتناسب مع إيقاعها أو تترك لديك خولا مناسبة لها. وإذا صادفت شخصا تعرفه فنظر إليك بوجه متجهم فهمت من عبوسه أنه غير راض عنك، وإذا صادفت لوحة للرسم فرأيت بها منظرا معينا حكمت لهذا المنظر بالجمال أو عليه بالقبح. كل أولئك يعد من قبيل الانطباع الشخصي الذي لا يخضع لعرف ولا

لفكر. فقطعة الموسيقى التى أعجبتك قد لا تعجب غيرك، وقد يفهم غيرك من عبوس العابس أنه لابد أن يكون قد مر بتجربة غير سعيدة فيخف إلى سؤاله عن حاله، أما المنظر الذى رأيته فى اللوحة فقد يثير عند غيرك إحساسا غير الذى كان لك فيحكم على هذا المنظر بالقبح. فالواضح مما تقدم أن هذا المعنى الانطباعى لا يعد من قبيل الفعل بالنسبة لمن يدركه وإنما هو من قبيل رد الفعل.

هذا المعنى الانطباعى من نوعين: أحدهما يأتى عن الانفعال والآخر عن التجربة الحية. فأما من حيث الانفعال فكلنا يرى فى الضخامة معنى الهيبة والاحترام. ومن الأدلة على ذلك أن أماكن العبادة من المساجد أو الكنائس لا تكتفى من الارتفاع والعلو بما يسود فى المساكن العادية؛ لأن المساكن العادية هى بيوت العباد. أما أماكن العبادة فهى بيوت الله، فمن دخلها فإنه يشعر عند دخولها أنه فى مكان يستحق الخشوع والاحترام. ومن المعروف أيضا أن التفخيم للأصوات أضخم من الترقيق، فإذا أردنا أن ندخل عليها عنصر التأكيد عدلنا عن الترقيق إلى التفخيم، كما فى قوله تعالى فى معرض الإخبار عن تكوين الأرض: "والأرض بعد ذلك دحاها" أما عند ارادة التأكيد فإن الأمر يحتاج إلى تفخيم الصوت فجاء صوت الطاء المفخم فى موضع صوت الدال.

والتكرار أيضاً من وسائل المعنى الانطباعى لكونه يؤكد فيولد الانفعال. ويأتى هذا الانفعال عند تكرار الصوت فى الكلمة المفردة ذاتها كما فى قوله تعالى: "فككبوا فيها هم والغاؤون" فقد جاء تكرار الكاف والباء موحيا بأن إسقاطهم فى النار لم يكن دفعة واحدة، وإنما سقطوا فيها طوائف يتلو بعضها بعضا. ومثله قوله تعالى ﴿فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ هَلْ فَسَوْذَ﴾ (الشمس ١٤). وقد يأتى الانفعال من تكرار الكلمة المفردة، كما فى قوله تعالى: "حتى إذا دكت الأرض دكا دكا وجاء ربك والملك صفا صفا" فقد عبرت الآية عن مبدأ التوالى بتكرار كلمتى "دكا" و "صفا" فكان المعنى توكيدا لفظيا.

وللإيقاع أثر حسى سمعى هو معناه الانطباعى الذى يحسه من يسمعه سواء كان

هذا الإيقاع موسيقيا أم كان لغويا نثريا أم شعريا. ولقد سبق منذ قليل أن أشرنا إلى التكرار الذى قرأناه فى عبارتى: دكا دكا وصفا صفا. ونود أن نشير الآن إلى ما سبق فى النص ذاته من عبارتين أخريين هما: أكلا لما وحبا جما وإلى ما يحسه القارئ عند قراءة العبارات الأربع من إيقاع لا يخفى على ذى سمع. وفيما يلى عرض للآيات المشتملة على هذا الإيقاع: "وتأكلون التراث أكلا لما وتحبون المال حبا جما كلا إذا دكت الأرض دكا دكا وجاء ربك والملك صفا صفا". اما فى الشعر فالأمر أشهر من أن يبالغ المرء فى شرحه، حتى إن بعض ذوى النظر فى أغراض الشعر يربطون بين بحور الشعر فى تباينها وبين أغراضه. فيرون أن طوال البحور أولى بالاستعمال للأغراض الجادة، وقصارها ألصق بالأغراض الخفيفة. فالطويل والبسيط مثلا يناسبان الفخر والهجاء والمدح والثناء ونحوها، ولكن المتقارب والمتدارك مثلا أولى بالأغراض المستخفة. وبين الطائفتين أبحر تتوزعها الأغراض، ومنها الرجز الذى يسمونه: حمار الشعر.

ومن المؤثرات الانطباعية حكاية الصوت للمعنى، وهى غير ما ذكرناه منذ قليل فى شأن الضخامة والتفخيم وما يثيرانه من الهيبة والتأكيد. ذلك أن الصوت هنا لا يوحى فقط بل يحكى المعنى ويقربه إلى الفهم أكثر مما يفعل الإيحاء. انظر مثلا إلى قوله تعالى: "مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض" وستجد أن "اثاقلتم" أصله ثاقلتم، وكان يمكن أن يستعمل بصورته الأصلية ليدل على المعنى الأصلى (العرى) وهو الثاقل. ولكن الآية آثرت أن تحول المعنى العرفى إلى معنى آخر انطباعى، فعمدت إلى استعمال حكاية الصوت للمعنى. فكان ذلك بإدغام المتقاربين (الثاء والطاء) فى أول لفظ الفعل ثم اجتلاب همزة وصل فى أول الكلمة للتوصل إلى نطق الجزء الأول من الثاء المشددة. أين إذن كانت حكاية الصوت للمعنى؟ إن الثاء المشددة صوت رخو يعتمد فى نطقه على تسرب الهواء من منطقة المخرج فيبدو للسمع كأنه إفراغ طاقة محبوسة يبدو صوتها كصوت إفراغ إطار عجلة السيارة من الهواء. أرايت إلى السيارة بعد إفراغ ما فى اطرها من هواء أيكون

من شأنها أن تتحرك؟ إن الآية الكريمة تدل بحكاية هذا الصوت على امتناع هؤلاء المخاطبين عن الحركة واللاحاق بالمجاهدين في أرض المعركة.

وأشبه هذه الحكاية في القرآن الكريم كثير كالذى نجده في قوله تعالى: "تأخذهم وهم يخصمون" (بكسر الخاء وتشديد الصاد المكسورة) وقوله جل شأنه: "آمن لا يهدى إلا أن يهدى"، "وحتى إذا ادركوا فيها جميعاً" وهلم جرا.

وثمة نوع آخر من الحكاية يتم بواسطة ارتجال ألفاظ لا وجود لها في اللغة. ومن ذلك أن المعروف أن عالمنا هذا الذى نعيش فيه لا يعرف شجرة تسمى: "شجرة الزقوم"؛ فهى ﴿ شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿ (الصافات ٦٤ - ٦٥). وقد ارتجلت الآية هذا الاسم للشجرة المذكورة، وجعلت الاسم يحكى أهم خواصها وهى أنها "طعام الأثيم"، وأن الضالين المكذبين يأكلون من ثمرها فيملأون منه البطون. فلماذا كانت حكاية اسم الشجرة المذكورة على هذا النحو؟ أول ما يربط هذا الاسم بالطعام اشتغال الاسم على الزاى والقاف ومنها يتكون الفعل "زق" الذى يصف إطعام الطائر لفرخه إذ يقال: "زق الطائر فرخه". ثم نلاحظ أن القاف (ومخرجها قريب جداً من البلعوم) جاءت مشددة فكانت أطول زمناً في نطقها من القاف المفردة، مما يحكى بقاء اللقمة في هذا الموضع مدة أطول مما يكون مع أفراد القاف مما يحكى عسر البالع. وليت الحكاية وقفت عند هذا الحد، ولكنها تجاوزت ذلك إلى اختيار تحريك القاف بواسطة واو المد دون الضمة القصيرة فأضافت زمناً إلى بقاء اللقمة في موضعها دون ابتلاع لزيادة معاناة الآكل. ثم يأتى الحرف الأخير في الكلمة معبراً عن نهاية المعاناة. فنحن نستطيع أن نشرب الماء بصبه في فم مفتوح الشفتين والفلك الأسفل دون الإحساس بمشكلة أثناء البلع، ولكن ابتلاع الطعام لا يكون إلا مع إقفال الشفتين الذى هو جزء من نطق صوت الميم. وهكذا تعددت طرق الحكاية في لفظ مفرد للدلالة على مرور الضالين المكذبين بإحدى صور العذاب في الأخيرة.

سبق أن قلنا إن المعنى الانطباعي قد يأتي عن طريق التأثير وقد يكون عن طريق التجربة الحسية Pragmatic والمعروف أن التنافس بين الأقران للوصول إلى النجاح أمر مطلوب، غير أن أحد المتنافسين قد يبالغ في اتخاذ الوسائل المؤدية إلى النجاح حتى يعمل دون قصد على إفشال جهود الآخر. عندئذ يكون من المعقول أن يفهم الآخر أن التنافس قد تحول إلى تنافر أو تناجز، ثم يتصرف إزاء صاحبه في ضوء هذا الفهم. وقد يكون بينك وبين أحد صداقة متينة طال عليه العهد حتى أصبحت أقرب إلى مرتبة الإخاء ثم يعرض له المرض ولا تعلم أنت بمرضه ويظل هو يطمع في أن تعود فلا تعود، فيفهم من ذلك أنك قد تنكرت للصداقة، ويقف منك موقفاً مناسباً لهذا الفهم. وقد تبحث عن مسكن تسكنه فتصادف حياً نظيفاً من أحياء المدينة تكثر فيه المساجد فتبادر إلى سكناه راضياً عنه، ثم يتكشف لك بعد قليل أن كثرة المساجد التي أغرتك بسكنى الحى لها جانب آخر يزهدك في سكناه. ففي المساجد مكبرات صوت تعمل بأقصى طاقتها، وأئمة هذه المساجد يتنافسون في إلقاء دروس قبل الصلوات أو بعدها ويطيلون في الخطبة يوم الجمعة. وقد تقام مراسم العزاء في ساحات هذه المساجد فما تزال تضيق ذرعاً بالأصوات العالية حتى تصل إلى قرار مغادرة هذا الحى إلى حى آخر يتمتع بالهدوء. وهكذا ينقلب المعنى من الإقبال والترحيب إلى الإدبار والنفور.

وقد تتعدد المعانى الإنطباعية في فهم التجربة الواحدة بحسب اختلاف المواقف، فتكون: ﴿وَيَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِاللّٰهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ٥٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ٥٨ وَإِنْ يَكُنْ هُمْ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ٥٩﴾ (النور ٤٩ - ٥٠). وواضح من سياق الآيات أن هؤلاء المنافقين يعلنون الإيمان والطاعة إذا رأوا في ذلك نفعاً، ثم يرى فريق منهم أن النفع لم يعد كما كان فيعرضون عما أعلنوه من قبل من الإيمان. ثم إذا اضطروا إلى التقاضى فعلموا أن القاضى هو رسول الله أعرضوا مخافة أن

يكون الحق من جانب الخصم، أما إذا كان الحق في جانبهم فإنهم يخضعون لحكم النبي صلى الله عليه وسلم. من هنا يكون المعنى الذى يختلف فهمه من لدن المسلمين على النحو التالى:

- إعلان الإيمان ثم النكوص عنه = فى قلوبهم مرض. (أفى قلوبهم مرض).

- عدم قبولهم قضاء النبي = ريب. (أم ارتابوا).

- خوفهم أن يحيف الله رسوله عليهم = ظلم. (بل أولئك هم الظالمون).

هذا ما فهمه المسلمون بالانطباع الذى سيطر على أفهامهم فلم يفضلوا أحد الفروض على غيره.

تلخيص:

رأينا مما سبق أن المعانى أنواع بعضها يستند إلى العرف ويحدده اتفاق الجماعة اللغوية؛ فاستعماله يتطلب القياس على ما ارتضاه المجتمع. فمن أراد الإبداع فسيبيله إلى ذلك هو الخروج على أصل الاستعمال العرفى باللجوء إلى إحدى الوسائل التالية:

١ - عرفنا مما سبق أن المعنى قد يتعدد للعنصر اللغوى الواحد مع تفاوت شهرة كل معنى. فمن وسائل الإبداع المعنى الذى يناسب جو النص.

٢ - ومن الوسائل المذكورة نقل اللفظ من القسم الذى ينتمى إليه من أقسام الكلم كما فى المجاز ونحوه.

٣ - ومنه نقل نمط الجملة من معناه الأصيل إلى معنى آخر، كتحويل النمط الخبرى إلى معنى الأمر فى "والمطلقات يتربصن".

٤ - الترخص فى قرائن المعنى، وهى الإعراب والبنية والأداة والتضام والرتبة والربط. فكل واحدة من هذه القرائن قد تفيض عن حاجة أمن اللبس، فيصبح المعنى واضحا بدونها، وعندئذ يمكن الترخص فيها بعدم استعمالها فى الكلام. ومن ذلك ما يلى:

أ - من الترخّص في الإعراب ما يسميه النحاة إعراب الجوار، وتعلق المعنى بالبديّهات دون الحركات نحو "جحر ضب خرب" و "خرق الثوب المسار" ... الخ.

ب - التصرف في البنية، نحو "أمن لا يهدى" وكذلك "وطور سينين" و "سلام على إلياسين" و "وكذبوا بآياتنا كذابا".

ج - الأداة، كدلالة "هل" على التعجب في قوله تعالى: "هل في ذلك قسم لذي حجر"، وقوله: "الحاقة ما الحاقة". وكحذف الأداة "وإن أطمعتموهم إنكم لمشركون" وزيادتها في قوله: "لثلا يعلم أهل الكتاب"، وكذلك في: "فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم".

د - التضام، نحو حذف الجواب في "أئن ذكرتم" (أى تطيرتم)، ومثل إضافة المصدر في "لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا" فلو لا القرينة الدالة على أن المعنى على إضافة المصدر إلى فاعله فيما يلي لوقع اللبس في المعنى.

هـ - الرتبة، نحو "ويصنع الفلك وكلما م عليه ملأ من قومه سخروا منه" (أى سخروا منه وهو يصنع الفلك)، ونحو "وهى تجرى بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه" (أى نادى نوح ابنه وهى تجرى بهم في موج كالجبال).

و - الربط، نحو "اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم" (أى أنعمتها) وكذلك "قضى الأمر واستوت على الجودى" (الضمير المستتر لسفينة لم يرد لها ذكر) ونحو "وأشرق الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجئ بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق" (الضمير في بينهم يعود على الخلق كلهم ولم يرد لهم ذكر) وكذلك "قالنا أتينا طائعين". (أى طائعين).

هذه أمثلة وشواهد قليلة تشهد على ظاهرة واسعة الانتشار هى ظاهرة الترخّص

في القرينة عند أمن اللبس وهي صورة من صور الإبداع في استعمال اللغة العربية. أضف إلى ذلك ما يعرض للسياق من فصل أو حذف أو إضمار أو قصر أو إيجاز أو غير ذلك من طرق الإبداع في حدود المعنى العرفي.

أما بالنسبة للمعنيين الذهني والانطباعي فليس هناك ما يربطهما بالعرف اللغوي، بل بالعكس، هما يمثلان نشاطا فرديا يختلف من فرد إلى آخر، ومن ثم يعد كل منهما مجالا للإبداع الشخصي.

الفرق بين اللبس واحتمال وجوه المعنى

إذا قلت لصاحبك: "زرت فلانا ساعة ثم غادرته غاضبًا" لم يدر صاحبك من منكما كان هذا الغاضب. فهذا من قبيل اللبس، لأنه لا توجد قرينة في هذه العبارة تعين على معرفة المعنى. وتقول: "ذهبت إلى ابن أخى وصديقه" فلا يدرى السامع لمن هذا الصديق، لابن أخيك أم لأخيك. والقرينة غائبة دائمًا في الألغاز ليكون غيابها سببًا في التباس المعنى كما يلي:

ما اسم شىء تركيبه من ثلاث وهو ذو أربع تعالى إلى الإله
فإذا ما قلبته وأخذت الـ ثلث منه يكون لى ثلثاء

الجواب الفيل ولا دليل عليه في النص لأن لفظ "قلبه" يفهم على وجهين: قلب الشىء وقلب اللفظ الدال على هذا الشىء. ومنه أيضًا:

يا أيها العطار أعرب لنا عن اسم شىء قل فى سومك
تراه بالعينين فى يقظة كما يرى بالقلب فى نومك

والجواب هو "كمون". والسر أيضًا في لفظ "القلب" في الحالتين. أما إذا قامت قرينة على المعنى فإن الأمر لا يعدو إحدى حالتين: أن يؤدى النص معنى واحدًا فقط، أو أن يخضع النص لأكثر من احتمال للمعنى لتعدد القرائن والاحتمالات. وهذا هو المقصود بقول المفسرين عن القرآن الكريم: إنه

حمال أوجه. دعنا نضرب بعض الأمثلة لدلالة القرينة على المعنى الواحد، مثال ذلك:

* لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

* يأتى البرد فى الشتاء ويأتى الحر مع الصيف.

* لمصر تاريخ حافل بالأحداث العظام.

* طلب العلم وسيلة للتقدم.

أما إذا قامت قرينة على المعنى الآخر (إما فى سياق النص وإما فى سياق الموقف) فإن هذا المعنى يتضح ولو بواسطة التأويل. انظر مثلاً إلى ما يلى من الآيات القرآنية وإلى ما بها من دلالة على المعنى:

* ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ (يس: ٣٥).

تصلح "ما" هنا للنفى والموصولية ولكن النص يشتمل على قرينة تدل على أنها للنفى، وذلك قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ فالشكر هنا موجه إلى من صنع الطعام.

* ﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ (الأنبياء:). دليل المعنى ما

يلى:

﴿الرَّحْمَنُ﴾ معناه المهيمن، (انظر الجزء الأول من كتاب البيان فى روائع القرآن ص ٢٩٤ وما بعدها). والموقف مع هذه الآية موقف استعانة بالرحمن على من سمعوا الدعوة فلم يستجيبوا (الأنبياء: ١٠٨ - ١١٢) فالمعنى فى ظل هذا الفهم يجعل الرحمن صفة للمبتدأ، وهو "ربنا"، ويجعل لفظ (المستعان) خبراً عنه. أما المعنى الآخر فهو أن يكون الرحمن هو الخبر ويكون المستعان صفة للخبر.

* ﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ﴾ (النجم: ٢٥). رأى بعض المفسرين (انظر تفسير

القرطبى ج ٩ ص ١٠٤ مثلاً) أن هذه العبارة تعنى أسلوباً خبرياً، ولكن إعادة النظر فى الجملة تكشف عن أسلوب تعجبى يشبه قولنا: "الله أنت".

* ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ۚ مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ﴾ (الملك: ٣)، رأى بعض المفسرين (انظر تفسير القرطبي ج ١٧ - ١٨ ص ٢٠٨) أن المعنى (خلقها طبقات بعضها فوق بعض). غير أن قرينة المعنى هي ما يلي ذلك في النص القرآني من قوله تعالى: "ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت" أى خلقها متطابقة دون اختلاف. فالمقصود بالسموات هو المجرات وهى متطابقة لأنها جميعها يشتمل على نجوم وكواكب وعلى جاذبية تشكل قوة طاردة تحول دون تصادمها.

* قال تعالى: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ ۚ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۚ﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿ (الإخلاص: ٢ - ٤). قال بعض المفسرين (انظر تفسير الطبرى، الجزء الأخير ٢٤٥) إن معنى لفظ الصمد الذى يصمد إليه فى الحاجات. ولكن سياق النص يجعل ما بعد لفظ "الصمد" تفسيراً لمعناه. فلا والد له ولا ولد ولا نظير.

فى هذه الآيات السابقة معان توضحها قرائن مستخرجة من النص أو من الموقف. وليس بهذه الآيات لبس، وليس فى معناها احتمال أوجه. أما ما نسب لبعض المفسرين من معان فالمعانى المقترحة هنا أولى منه بالقبول، أو على الأصح تعين على رفضه، وهكذا ينتفى أن يكون به تعدد أوجه.

غير أن السياق اللغوى أحياناً يشير إلى أكثر من معنى مع تساوى المعانى فى صدق الدلالة، وفى هذه الحالة يقال إن النص حىال أوجه. وذلك كما يلى:

قد يعود تعدد احتمالات المعنى إلى الاشتراك فى اللفظ، وقد يعود إلى لازم المعنى، وقد يأتى من تعدد صور الإعراب أو اختلاف القصد، أو من غير ذلك من المقاصد كما سنرى بعد قليل:

المشترك اللفظى:

* قال تعالى: ﴿يَبْنَىٰ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُورِى سَوْءَ بَٰئِكُمْ وَرِيشًا ۚ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ (الأعراف: ٢٦).

نسب بعض المفسرين إلى التقوى لباسا تلبسه أو أنها هي لباس يلبسه التقى،
واورد القرطبي شعرا بهذا المعنى يقول:

إذا المرء لم يلبس ثيابا من التقى تقلب عريانا وإن كان كاسيا
وخير لباس المرء طاعة ربه ولا خير فمين كان لله عاصيا

ولاشك في أن إضافة اللباس إلى التقوى بقصد هذا المعنى على سبيل المشاكلة
يخطئ بالقبول إلى حد ما، ولكن الأقرب إلى القبول أن كلمة "اللباس" المستعملة
هنا هي مصدر لابس يلبس لباسا وملابسة. أى أن مباشرة التقوى خير من ستر
العورة.

* قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ
وَيَكُونَ الرُّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة: ١٤٣).

* قال بعض المفسرين (انظر تفسير القرطبي ج ١ - ٢ ص ١٥٣): أى جعلناكم
دون الأنبياء وفوق الأمم. وفي قوله تعالى: ﴿ حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ
الْوُسْطَى ﴾ (البقرة: ٢٣٨) فهم بعض المفسرين الوسطية بالمعنى الزمنى فقالوا إن
المقصود صلاة العصر لأن قبلها صلاتين وبعدها صلاتين أخريين (ولكن هذا
يصدق على كل من الصلوات الخمس). غير أن المعنى المقبول في هذا المقام هو
أقرب (ولكن ليس طبقاً) للمعنى الأول، بدليل قوله تعالى في معرض الكلام عن
أصحاب الجنة (القلم: ٢٨): ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾ أى أفضلهم. وبذلك يكون معنى
الصلاة الوسطى أى المتقنة.

لازم المعنى:

قال سبحانه: ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ
لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾ (الفرقان: ٧). يرى بعض أهل التفسير
(انظر الجزء ١٣ من تفسير الطبري ص ٤) أن أعيان قريش عيروا النبی عليه الصلاة

والسلام بأنه قانع بأكل الطعام والمشى في الأسواق وكان خيرًا له أن يكون في صحبة الملائكة.

وقد أبطل الله سبحانه زعمهم هذا بقوله: "وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق". ولكن من الواضح أن هذه الآية تقصد بها الكناية وإن لها معنى آخر يلزم عن هذا المعنى الأول. ذلك أن أكل الطعام من شأنه أن يهضمه وأن يفرز فضلاته، وهذا الإفراز من شأن فاعله أن يتخفى عن الناس لا أن يسعى متلبسا به إلى مواجهتهم بالدعوة إلى اتباع دعوته إلى دين جديد يؤثر في زعامتهم للعرب.

أما ما يلزم عن المشى في الأسواق فهو ممارسة البيع والشراء وما يترتب على ذلك من زعم جودة سلعة رديئة لبيعها، أو رداءة سلعة جيدة لإنقاص ثمنها. وكلا هذين الأمرين اللازمين ليسا من مهمات الرسل.

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ (المائدة: ٦٤). الغلول والبسط كنايةان عن البخل والكرم وكذلك عن الفقر والغنى. يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ (آل عمران: ١٨١). فهذان الوجهان (البخل والفقر) من لوازم الغلول.

تعدد احتمال الإعراب:

﴿قال تعالى: "فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج".

يقول ابن مالك في الألفية (الجزء الثاني ص ٧):

وركب المفرد فامحأ كلا	حول ولا قوة والثاني اجملا
مرفوعا أو منصوبا أو مركبا	وإن رفعت أولا لا تنصبا

ويقول ابن عقيل في معرض شرح ذلك (الجزء الثاني ص ١١):

وأشار بقوله: "والثاني اجعلنا" إلى أنه إذا أتى بعد "لا" والاسم الواقع بعدها بعاطف ونكرة مفردة وتكررت "لا" نحو "لا حول ولا قوة إلا بالله" يجوز فيها خمسة أوجه، وذلك لأن المعطوف إما أن يبنى مع "لا" على الفتح، أو ينصب أو يرفع. ثم يقول باختصار:

فإن بنى معها على الفتح جاز في الثاني ثلاثة أوجه: البناء على الفتح لتركبه مع لا الثانية، نحو "لا حول ولا قوة إلا بالله" أو النصب عطفاً على اسم "لا"، أو الرفع وفيه ثلاثة أوجه: الأول أن يكون معطوفاً على محل "لا" واسمها، والثاني أن تكون "لا" الثانية عملت عمل "ليس"، والثالث أن يكون مرفوعاً بالابتداء.

نخرج من كل ذلك بما يلي:

أولاً: اللبس: تعدد احتمالات المعنى وليس لأحدها قرينة ترجحه.

حمل الأوجه: تعدد احتمالات المعنى ولكل منها قرينة تدل على صحته.

ثانياً: حمل عدد من أوجه المعنى يصدق على عموم اللغة لا على خصوص القرآن الكريم

كيف يتم التغلب على اللبس في السياق العربي

المقصود باللبس تعدد احتمالات المعنى دون مرجح. إذ لا يستطيع من يتلقى الكلام أن يقطع بأن المقصود واحد بعينه من هذه المعاني المحتملة. ويرجع تعدد احتمالات المعنى إلى عدم التوازي بين المعاني التي تسعى اللغة إلى التعبير عنها والمباني التي تشتمل عليها اللغة لأداء هذا التعبير. فالمعاني لا حدود لها ولا يمكن إحصاؤها، ولكن المباني محدودة العدد. ومن هنا كان من الضروري أن يتعدد المعنى للمبنى الواحد حين يكون هذا المبنى خارج النص، فإذا اشتمل عليه نص ما أصبح بحاجة إلى قرينة تشير إلى أن المقصود به في بيئة النص هو أحد تلك المعاني التي كانت له حال إفراده. وتتفاوت النصوص في القدرة على استعمال القرائن الدالة على المعنى المقصود عندما يعرض القصص في دلالة المبنى على هذا المعنى. ولعل النص القرآني الكريم أعظم النصوص وفاء بتقديم القرائن عندما يعرض اللبس في اللفظ أو في التركيب كما سنرى أثناء عرض الموضوع فيما يلي من بيان مسالك اللبس. وهذه المسالك هي:

- * تعدد المعنى الوظيفي.
- * تعدد احتمالات العلاقة السياقية.
- * تعدد احتمالات المعنى المعجمي.
- * تعدد احتمالات المعنى عند الحذف.

* تعدد احتمالات الوصل والفصل.

* تعدد احتمالات دلالة التركيب.

وسنرى نماذج من كل حالة من هذه في النصوص التالية:

أولاً - تعدد المعنى الوظيفي:

المقصود بالمعنى الوظيفي ما يقابل المعنى المفرد (المعجمي) والمعنى المفيد، وذلك في عرف النحاة. وكان النحاة يصفون هذا المعنى الوظيفي بقولهم: "معنى عام حقه أن يؤدي بالحرف". غير أن الذى أقصده بهذا المعنى يشمل معانى الأدوات والصيغ الصرفية ولا يشمل معانى التعليق والربط. دعنا أولاً نأخذ لفظ "ما" بوصفها أداة متعددة الوظائف لنرى كيف تتعدد معانيها ويظل مبناها على حاله لا يتغير. وسوف تكون الشواهد من القرآن الكريم في معظمها مع بيان القرائن الدالة على المعنى في كل حالة:

* ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ (يس: ٣٥).

يسمح التركيب النحوى هنا بفهم "ما" في "وما عملته أيديهم" بأحد معنيين:

أ - ليأكلوا من ثمره ومن الذى عملته أيديهم.

ب - ليأكروا من ثمره ولم تعمله أيديهم.

غير أن في هذه الآية قرينة على إرادة المعنى الثانى هى عبارة "أفلا يشكرون". لأن من يأكل طعاماً لم يصنعه بيده أولى بأن يعبر عن شكره لمن أطعمه ممن يأكل طعاماً صنعه بنفسه. ومما يرشح هذا المعنى أيضاً قوله تعالى في سورة النمل:

* ﴿أَمْ نَخْلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلْ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ

حَدَّاهِيقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ﴿ (النمل: ٦٠). فقوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ﴾ يتفق في معنى النفي مع قوله: "ولم تصنعه أيديهم". فالقرينة هنا مزدوجة بالنص أولاً حيث تكون القرينة هي المناسبة المعجمية بين "ما" النافية وقوله تعالى بعد ذلك: ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ وبالتناص ثانياً. بالنظر إلى آية النمل (٦٠)

* ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾ (يس: ٦٩).

يسمح تركيب الجملة في قوله: "وما ينبغى له" بفهم أحد معنيين:

أ - وما ينبغى للشعر ذاته من معرفة قواعد نظمه. (أى وما علمناه الشعر وعلم العروض)

ب - ولا ينبغى للنبي أن ينظم الشعر.

وهذا المعنى الثانى هو المقصود بقرينة التناص بين هذه الآية وقوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ (الشعراء: ٢٢٤). وكذلك كل آية تنص على أن النبي صلى الله عليه وسلم إنما بعث لهداية البشر. أضف إلى ذلك أننا حتى لو لم ندفع معنى الموصولية عن "ما ينبغى" فإن الآية في جملتها تقع في سياق نفي "ما" الأولى في "وما علمناه".

* ﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴾ (آل عمران: ١٩٨).

يسمح مجرد التركيب النحوى بأحد معنيين:

أ - أن تكون "ما" نافية (تعالى الله عن ذلك) فهذا المعنى مرفوض بسبب المفارقة المعجمية بين النفي للخير ونسبة ذلك إلى الأبرار.

ب - أن تكون موصولة، أى: والذي عند الله خير من ذلك للأبرار.

وقرينة المعنى الثانى ما سبقه في الآية ذاتها من قوله تعالى: "لكن الذين اتقوا

رهبهم لهم جنات... إلخ" من حسن الجزاء، وما سبق في الآية رقم ١٩٣ من دعاء: ﴿ رَبَّنَا فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴾ (آل عمران: ١٩٣). مما يدل على رضوان الله على الأبرار من عباده واستحقاقهم للخير.

* ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ (سبا: ٣٩).

يأذن التركيب النحوى المجرد بأحد معنيين:

أ- لم تنفقوا شيئاً يستحق الإخلاف لتطالبوا بإخلافه.

ب- وإن من شىء أنفقتموه إلا يخلفه الله.

وقرينة المعنى الثانى قوله تعالى بعد ذلك مباشرة: "وهو خير الرازقين".

* ﴿ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (الأعراف: ٤٨).

يمكن بدون القرينة أن يفهم النص بأحد معنيين:

أ- ماذا أغنى عنكم جمعكم واستكباركم؟

ب- لم يغن عنكم جمعكم واستكباركم شيئاً.

وقرينة المعنى الأول ما بعده من استفهام بقوله تعالى: ﴿ أَهْتُلَا۟ءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ﴾ (الأعراف: ٤٩).

* ﴿ وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَةُ وَٱلنَّذْرُ عَنِ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ (يونس: ١٠١).

يمكن فهم التركيب النحوى للنص على أحد احتمالين:

أ- ما الذى ينفع من آيات أو نذر إذا أصر قوم على رفض الإيمان؟

ب- لن تغنى الآيات والنذر عن قوم يصرون على الكفر.

وقرينة إرادة المعنى الثانى قوله تعالى قبل ذلك مباشرة: ﴿ وَجَعَلُ ٱلرَّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (يونس: ١٠٠). وقبل ذلك أيضاً: ﴿ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس: ٩٩).

* ﴿وَمَا أَعَجَّلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى﴾ (طه: ٨٣).

يصلح التركيب النحوى لأحد معنيين:

أ - ما أشد عجلتك عن قومك!

ب - ما الذى جعلك تعجل فتأتى قبل قومك؟

وقرينة إرادة الاستفهام (دون التعجب) هى ما يأتى بعد ذلك من جواب يقول

موسى: ﴿هُمْ أَوْلَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ (طه: ٨٤).

* ﴿الْحَاقَّةُ ۝ مَا الْحَاقَّةُ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ (الحاقة: ١ - ٣).

يمكن فهم التركيب النحوى هنا على أحد وجهين:

أ - الاستفهام، بمعنى ما هى الحاقة وما الذى تعرفه عنها؟

ب - التعجب، بحذف أفعل بعد ما الأولى بمعنى ما أعظمها أو ما أقربها. وهذا

شبيه بما فى حديث أم زرع من قولها: "زوجى أبو زرع وما أبو زرع!" ثم تأتى الآية

التالية فى صورة جملة تعجبية كاملة هى: "وما أدراك ما الحاقة!" أى ما أعظم

درايتك بها. وهذا المعنى هو المقصود ولهذه الجملة التعجبية أشباه فى سور أخرى من

ذلك. وما أوراك ما ليلة القدر" و"وما أدراك ما الحطمة" و"وما أدراك ما سقر"

و"ما أدراك ما يوم الفصل" و"وما أدراك ما القارعة" الخ.

* ﴿هَٰذَا بَلَدٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِمْ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾ (إبراهيم:

٥٢).

يمكن أن يفهم هذا التركيب على أحد وجهين:

أ - هذا بلاغ للناس ويجب أن يكون إنذاراً لهم، فاللام للأمر.

ب - هذا بلاغ من أجل الإنذار، فاللام للتعليل.

والقرينة الدالة على إرادة المعنى الثانى ما يأتى بعد ذلك من نصب الفعل الواقع

في سياق العطف على ذلك، وهو قوله: "ول يذكر أو لو الألباب". فلو كان المعنى على الأمر لجاء الفعل مجزوماً.

* ﴿لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (الطلاق: ١٢).

هنا أيضاً يمكن فهم اللام في لتعلموا على أحد معنيين: الأمر أو التعليل. وذلك بالتقدير التالي:

أ- اعلموا أن الله على كل شيء قدير.

ب- لأجل أن تعلموا أن الله على كل شيء قدير.

والقرينة الدالة على التعليل قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الطلاق: ١٢).

* * *

نصل عند هذا الحد إلى تعدد المعنى الوظيفي للصيغة الصرفية بحيث تدل على أكثر من قسم واحد من أقسام الكلم في وقت معاً، أو على عدد من المعاني في نطاق قسم واحد، فلا يتعين لها أحد هذه المعاني إلا بقرينة. فمن ذلك مثلاً:

١ - ﴿أَنَّا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾ (النمل: ٣٩)، و ﴿أَنَّا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ (النمل: ٤٠). يصلح لفظ "آتيك" حال إفراده لنوعين من التأويل:

أ- أن يكون فعلاً مضارعاً، والمعنى: سوف آتيك.

ب- أن يكون اسم فاعل مضافاً إلى كاف المخاطب المفرد.

والمعنى: أنا الذى أتيتك به؛ فاسم الفاعل إذا أضيف دل على المضى وإذا نون دل على الاستقبال كما فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَأْنٍ إِنْى فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ۝﴾ (الكهف: ٢٣ - ٢٤). فالقرينة التى تدل على المعنى إذا أن سليمان يقول قبل ذلك: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾ (النمل: ٣٨).

٢ - ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ (النساء: ١٠٣).

يفهم من لفظى "قيامًا وقعودًا" حال قطعهما عن السياق أحد معنيين:

أ - جمع قائم وقاعد.

ب - مصدر قام وقعد.

وتشتمل الآية على قرينة تدل على إرادة المعنى الأول، هى قوله تعالى: "وعلى جنوبكم".

٣ - ﴿وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِن هَذَا رَشَدًا﴾ (الكهف: ٢٤).

يمكن أن ندرك نوعين من المعنى النحوى للفظ "أقرب" فى هذا السياق:

أ - أن تكون الكلمة فعلاً مضارعاً فيكون لفظ "رشداً" مفعولاً لأجله، أى لاقترب من هذا فأكون راشداً.

ب - أن يكون المعنى على التفضيل فيكون لفظ "رشداً" للتمييز.

والقرينة تدل على التفضيل لأن النص يشتمل على ما يدل على أنه نسى أن يقول: إن شاء الله ولذا يطلب من ربه أن يهديه إلى أفضل من ذلك.

٤ - ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ (الإسراء: ٤٦).

تحتمل صيغة فعول أحد معنيين:

أ - المصدرية، فيكون المقصود أنهم نفروا نفورا.

ب - جمع اسم الفاعل "نافر" فالمعنى: ولو نافرين.

والفرق بين المعنيين أن معنى الجمع (جمع نافر) يجعل نفورهم صفة متأصلة فيهم، ولكن معنى المصدرية يربط النفور بمناسبة خاصة هي سماعهم لذكر الله وحده. ويشهد لإرادة معنى الجمع ما في الآية التالية "نحن أعلم بما يستمعون به" مما يكشف عن موقفهم من النبي عليه الصلاة والسلام واتهامهم إياه بأنه "رجل مسحور" كلما سمعوا منه ذكر الله سبحانه وتعالى.

* * *

بقى أن نتناول صيغ بعض الأفعال التي يتعدد معناها فتحتاج إلى قرينة تكشف عن المقصود بالصيغة. ومن الملاحظ أن صيغ الفعل - صحيحاً كان أم معتلاً - تكشف عن بعض التشابه في الجدول الإسنادي في صيغ المضارع. انظر مثلاً إلى جدول إسناد الفعل "ضرب" إلى الضمائر:

١ - ضربْتُ	١٥ - أضرب
٢ - ضربنا	١٦ - نضرب
٣ - ضربتَ	١٧ - تضرب
٤ - ضربتِ	١٨ - تضربين
٥ - ضربتما	١٩ - تضربان
٦ - ضربتِما	٢٠ - تضربان
٧ - ضربتم	٢١ - تضربون
٨ - ضربتن	٢٢ - تضربن
٩ - ضَرَبَ	٢٣ - يَضْرِبُ
١٠ - ضَرَبْتُ	٢٤ - تَضْرِبُ
١١ - ضربنا	٢٥ - تضرب
١٢ - ضربتا	٢٦ - تضربان
١٣ - ضربوا	٢٧ - يضربون
١٤ - ضربن	٢٨ - يضربن

فلو نظرنا إلى صور الإسناد إلى الضمائر في هذا الجدول الاول لوجدنا الشبه تامًا بين الصيغة رقم ١٧ والأخرى رقم ٢٤، ولوجدناه تامًا أيضًا بين ١٩ و ٢٠ و ٢٦. ومعنى هذا أننا بحاجة إلى قرينة تعيننا على فهم ما إذا كان رقم ١٧ مسندًا إلى المخاطب المفرد المذكر أو إلى الغائبة المفردة المؤنثة. والأمر كذلك في الإسناد رقم ٢٤. ولو نظرنا لوجدنا تشابها ملبسًا أيضًا بين ٣١ و ٣٢.

فإذا كانت فاء الكلمة في صيغة الفعل تاء إزداد الأمر تعقيدًا، وبخاصة في إسنادات الفعل المضارع التي تسمح في بعض الصور بتوالى تاء المضارعة وتاء فاء الكلمة؛ فيقتضى الأمر حذف إحدى التاءين لكرهية توالى الأمثال. وهنا نجد أن عبارة: "ولا تتنازعوا" تثول إلى: "ولا تنازعوا"، كما يخضع بعض أخواتها للإجراء نفسه؛ ومن ثم يزيد عدد الإسنادات المتشابهة على النحو التالي:

١ - توليت	١٥ - أتولى
٢ - تولينا	١٦ - نتولى
٣ - توليت	١٧ - تتولى
٤ - توليت	١٨ - تتولين
٥ - توليتما	١٩ - تتوليان
٦ - توليتما	٢٠ - تتوليان
٧ - توليتم	٢١ - تتولون
٨ - توليتن	٢٢ - تتولين
٩ - تولي	٢٣ - يتولى
١٠ - تولت	٢٤ - تتولى
١١ - توليا	٢٥ - يتوليان
١٢ - تولتا	٢٦ - تتوليان
١٣ - تولوا	٢٧ - يتولون
١٤ - تولين	٢٨ - يتولين
	٢٩ - تول
	٣٠ - تولي
	٣١ - توليا
	٣٢ - توليا
	٣٣ - تولوا
	٣٤ - تولين

فإذا خضعت الإسنادات من رقم ١٧ إلى ٢٢ بالإضافة إلى ٢٤ و ٢٦ لحذف إحدى التاءين لكرهية توالى الأمثال (أى للتخفيف) وصلنا إلى التشابه الملبس داخل المجموعات التالية:

المجموعة الأولى: ٩ و ١٧ و ٢٤. إذ يصبح جميعها على صورة: تولى.

المجموعة الثانية: ١٣ و ٢١ (منصوبًا أو مجزومًا) و ٣٣، ليصبح جميعها: تولوا.

المجموعة الثالثة: ١٤ و ١٨ (منصوبًا أو مجزومًا) و ٣٤ ليصبح جميعها: تولين.

المجموعة الرابعة: ١١ و ١٩ و ٢٠ (منصوبين أو مجزومين) و ٢٦ و ٣١ و ٣٢ إذ يصبح جميعها: توليا.

يمكننا بعد هذا الإيضاح أن نأتى ببعض الشواهد على إمكان وقوع تعدد الاحتمال النحوى الخالص المؤدى لما يعرض لهذه الصيغ من اللبس، ثم ما يعين على إزالة هذا اللبس من القرائن الدالة على المعنى المراد؛ وهى الفضيحة التى نجدها دائماً فى نص القرآن الكريم ولا تتوافر فى غيره من النصوص إلا بقدر دون ذلك.

١ - ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفَىٰ خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (العصر: ١ - ٣).

تصلح صيغة "تواصوا" أن تكون فعلاً ماضياً معناه: أوصى بعضهم بعضاً، وأن تكون فعل أمر معناه: فليوص بعضكم بعضاً. غير أن قرينة معنى الماضى أن الفعل "تواصوا" معطوف على فعلين ماضيين هما "آمنوا" و "عملوا".

٢ - ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ (التوبة: ١٢٩).

يمكن لصيغة الفعل "تولوا" أن تكون ماضياً مسنداً إلى ضمير الغائبين، وأن تكون مضارعاً محذوف إحدى التاءين مسنداً إلى جماعة المخاطبين. والقرينة

على إرادة المعنى الأول أن إرادة المخاطبين كانت ستشمل النبی صلی الله علیه وسلم وهو ليس ممن يتولون وإنما هو مأمور أن يقول: "حسبى الله".

وهكذا رأينا أن المعنى الوظيفى هو الوظيفة التى يؤدّيها العنصر اللغوى من الأدوات والصيغ الصرفية. وسنحاول بعد ذلك أن نلقى الضوء على نوع آخر من المعنى هو المعنى العلائقى.

ثانيًا. تعدد احتمالات المعنى العلائقى:

المقصود بالمعنى العلائقى معانى حروف الجر وحروف العطف ووسائل الربط كعود الضمائر على مراجعها ونحو ذلك مما تنشأ به علاقة بين عنصرين أو أكثر من عناصر النص، كما يتضح عند النظر إلى الشواهد التالية:

١ - ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَرَ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ (هود: ٢٤).

إن من ينظر إلى مجرد تكرار الواو قد يحكم بأن الآية تشتمل على أربعة عناصر عطف بعضها على بعض. تلك هى الأعمى والأصم والبصير والسميع.

غير أن الآية تشتمل على قرينة تدل على أن العطف هنا يربط بين شخصين أحدهما (أعمى - أصم) والآخر (بصير - سميع). وتمثل هذه القرينة فى تشية لفظ "الفریقین" وإسناد الفعل "يستويان" إلى ضمير الاثنين.

٢ - ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالٍ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ۚ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ فَأَتُوهُمْ نَصِيحُهُمْ﴾ (النساء: ٣٣).

يسمح التركيب هنا باحتمالين:

أ - أن تكون الواو فى "والذين" عاطفة والفاء فى "فأتوهم" للاستئناف.

ب - أن تكون الواو للاستئناف و"الذين" أشربت معنى الشرط والفاء اقترنت بخبر "الذين" لأنها مع إشرابها معنى الشرط جاء خبرها في صورة جملة طلبية. فعومل معاملة جواب الشرط.

والقرينة تدل على إرادة المعنى الثانى، لأن الولاء يمنح حق الميراث فى أحكام الشرع. ولكن لما كان الولاء غير القرابة وضع حكمه فى الآية فى أسلوب الشرط لىتميز فى الحكم عن ورثة الوالدين والأقربين.

٣ - ﴿يَتَأْتِيَا النَّاسُ آعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: ٢١).

يحتمل التركيب النحوى عطف "الذين" إما على لفظ "ربكم" وإما على "الذى" فىكون المعنى على النحو التالى:

أ - اتقوا ربكم واتقوا الذين من قبلكم.

ب - اتقوا ربكم الذى خلقكم وخلق الذين من قبلكم.

وتأتى القرينة على المعنى الثانى بعد ذلك مباشرة فى قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ دون أن ينسب أى نوع من الفضل للذين من قبلهم. أضف إلى ذلك أن عقيدة التوحيد تمنع أن يكون مع الله من يستحق أن يقرنه المؤمن به.

٤ - ﴿وَقَتِّلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ (الأنفال: ٣٩).

يحتمل التركيب النحوى أن يكون النفى بواسطة "لا" مسلطاً على "تكون" دون "يكون" كما يحتمل أن تكون مسلطة عليهما معا؛ فىكون المعنى:

أ - حتى لا تكون فتنة ويصبح الدين كله لله.

ب - حتى لا تكون فتنة ولا يكون الدين كله لله.

والقرينة الدالة على إرادة المعنى الأول هي التناقض بين الفتنة والدين. فإذا وجد أحدهما انتفى الآخر كما في الاحتمال الأول، ولا يجوز أن ينتفيا معا كما في الاحتمال الثاني.

٥ - ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ (التوبة: ٧٩).

لا يمنع التركيب النحوي لهذه الآية أن تكون السخرية التي في "سخر الله منهم" من الذين يلمزون والذين لا يجدون على معنى العطف، أو أن تكون من الذين لا يجدون موجهة إلى المطّوعين من المؤمنين. كما يسمح التركيب للفاء في "فيسخرون" أن تكون عطفاً على الذين لا يجدون بعد عطف الذين لا يجدون على الذين يلمزون؛ فتكون الفاء وما دخلت عليه في حيز "الذين لا يجدون" فقط بعد عطفها على الذين يلمزون.

غير أن القرينة تحول دون ذلك لأن الذين لا يجدون إلا جهدهم أولى بالإحساس بالعجز لا بإرادة بالسخرية من الغير. ومن ثم خضعوا للّمز والسخرية من لدن الذين يلمزون. وهكذا يشير النص إلى أن الله تعالى يسخر من الذين يلمزون ويسخرون من المطّوعين ويسخرون أيضاً من الذين لا يجدون إلا جهدهم وهكذا تنحصر إرادة السخرية في الذين يلمزون دون غيرهم.

٦ - ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِّ﴾ (الأعراف: ٦٤).

لا يحول التركيب بين أن تكون الواو في "والذين معه" للحال فيكون المعنى: أنجيناها عندما كان الذين معه في الفلك؛ دون إشارة إلى أنهم نجوا معه. كما يسمح بأن تكون الواو للعطف فتكون النجاة لنوح ومن معه وهم جميعاً في الفلك. والقرينة تدل على هذا المعنى الثاني وهي الآيات الثلاث (٤١ - ٤٣) من سورة هود

إذ تدل هذه الآيات على أن الذين لم يركبوا في الفلك كانوا من الهالكين المغرقين، وأن من كانوا فيها نجوا من الغرق.

٧- ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ (النجم: ١٨).

يمكن للوهلة الأولى أن يفهم الإنسان من هذا التركيب أحد معنيين:

أ- لقد رأى الكبرى من آيات ربه.

ب- لقد رأى آية من آيات ربه الكبرى.

هناك نوعان من الآيات الدالة على عظمة الله سبحانه وتعالى: النوع الأول آيات يكرم الله بها الأنبياء للدلالة على صدق رسالاتهم، وهذه الآيات تتدرج في الأهمية كما نرى في قوله تعالى في شأن موسى وفرعون: "فأراه الآية الكبرى فكذب وعصى". وفي هذا المقام يفهم من لفظ "الآية الكبرى" آية العصا. والنوع الثاني الآيات السماوية القريبة من عرش الرحمن، وهي التي رآها محمد صلى الله عليه وسلم في ليلة المعراج؛ وجميعها يوصف بلفظ "كبرى".

ومن ثم يكون اللفظ الذي في هذا الشاهد (رقم ٧) معبراً عن هذا المعنى. أرى أن ما رآه النبي عليه الصلاة والسلام في ليلة المعراج هو عدد من الآيات الكبرى عبرت عنه الآيات ذات الأرقام ١٣ - ١٨ من سورة النجم.

٨- ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (يونس: ٤٤).

لا يمنع مانع نحوي أن يكون لفظ "أنفسهم" توكيداً معنوياً للناس، أو أن يكون مفعولاً به مقدماً للفعل "يظلمون". ولكن النظر إلى آيات أخرى في القرآن الكريم يرشدنا إلى أن المقصود هو معنى المفعولية، أى أن الناس يظلمون أنفسهم وأن الله سبحانه لا يظلم أحداً إذ يقول جل شأنه: "ولا يظلم ربك أحداً". فمن أسمائه الحسنى أنه "العدل". ومن الآيات الدالة على أن الناس يظلمون أنفسهم قوله

تعالى: ﴿ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِفَايِنَتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾ (الأعراف: ١٧٧).

٩- ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ﴾ (الأنعام: ٣٤).

بماذا يمكن أن نعلق "حتى" وما دخلت عليه من قوله: "حتى أتاهم نصرنا"؟
هناك ثلاثة أفعال يصلح كل منها أن تتعلق به "حتى":

أ- صبروا حتى أتاهم.

ب- كذبوا حتى أتاهم.

ج- أودوا حتى أتاهم.

ولا يستبعد في صناعة النحوي من هذه الاحتمالات. ولكن هناك قرينة عقلية تؤكد أن مفهوم الغاية الذي تعبر عنه "حتى" يرتبط بالصبر لا بالكذب ولا بالإيذاء. وفي القرآن الكريم من الشواهد ما يربط بين حتى وبين الصبر، كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ أَلَهُ ﴾ (يونس: ١٠٩)، ﴿ فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَخْرُجَ اللَّهُ بَيِّنَاتٍ ﴾ (الأعراف: ٨٧). لهذا يرتبط إتيان النصر بالصبر على التكذيب والإيذاء.

١٠- ﴿ يٰٓيَسٰٓءَ النَّبِيَّ لَسْتُنَّ كَمَا حَلَوْ مِنْ اَلنِّسَاءِ ۚ اِنْ اَتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ (الأحزاب: ٣٢).

لقد وضعت علامة الوقف في المصحف على لفظ "النساء"، ولكن تعاليم القرآن نفسه ربما جعلت الوقف صالحاً أن يكون على لفظ "اتقيتن". فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ اِنْ اَنْحَرَمْتُكُمْ عِنْدَ اللّٰهِ اَتَقْنٰكُمْ ﴾ (الحجرات: ١٣)، ويقول نبينا صلى الله عليه وسلم: "لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى". هذا من ناحية؛ أما من

ناحية أخرى فإن الوقف على الفعل "اتقتين" يجعل ما بعده استثناءً لبيان المقصود بالتقوى في هذا المقام. فهي عدم الخضوع بالقول منعاً لطمع ذوى القلوب المريضة. فإذا تحققت هذه التقوى كن خيرة النساء. وهكذا يكون الوقوف على "اتقتين" أقرب وإلى وصايا الدين.

١١ - ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ (الأنبياء: ١١ - ١٢).

من الواضح أن في القرية حذفاً بيانياً، لأن المقصود "أهل القرية" الموصوفين بالظلم، والظلم لا يكون من مباني القرية. من هنا نتساءل عن مرجع الضمير "هم" أين هو؟ ومن هم الذين يركضون من القرية؟ أهم أهلها الأولون الظالمون أم القوم الآخرون؟ من البديهي أن القوم الآخرين لم يقع منهم ظلم فيركضوا خوف البأس، والقرية لفظ مؤنث لا يصلح مرجعاً للضمير "هم". هنا يسمح المعنى باعتبار الضمير المذكور راجعاً إلى المحذوف البياني الذي هو "أهل القرية" الأولون.

١٢ - ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ (الحج: ٤٠).

إلام يعود الضمير في "ينصره"؟ إلى المنصور، فيكون المعنى: ولينصرن الله من يشاء الله أن ينصره؟ أم إلى الناصر، فيكون المقصود: ولينصرن الله من ينصر الله (برفع لفظ الجلالة مع الفعل الأول ونصبه مع الفعل الثاني في الآية)؟ المعروف أن القرآن يفسر بعضه بعضاً (وهذا المبدأ وجد لنفسه مصطلحاً حديثاً هو مصطلح "التناصر") فإذا طبقنا هذا المبدأ فلنا أن نلتزم في تفسير هذه الآية بالتوفيق في المعنى بينها وبين قوله تعالى: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ (محمد: ٧) وبذلك يعود الضمير في "ينصره" إلى لفظ الجلالة في الآية التي بين أيدينا. أما المعنى الآخر وهو: (ولينصرن الله من يشاء الله أن ينصره) فهو من المسلمات التي لا تفتقر إلى نص

عليها أو إعلام بها، فهي شبيهة بقولك: الأرض أرض والسماء سماء. أى أنها لا تشتمل على جديد يستحق الإشارة إليه.

١٣ - ﴿إِن مِّثْلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تَرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (آل عمران: ٥٩).

في هذه الآية تشبيه عيسى بآدم. ووجه الشبه أن كليهما تم خلقه من غير نطفة بشرية. فأما عيسى فقد تم خلقه بواسطة نفخ الملك جبريل في جيب أمه مريم، وأما آدم فقد خلق من تراب. فعلى الرغم من أن النحو يسمح بإعادة الضمير على كل منهما على حدة فإننا نجد عوده إلى آدم أولى من عوده إلى عيسى ومن عوده إليهما معا، وذلك بسبب النص على أن آدم خلق من تراب دون ذكر الطريقة التي خلق بها عيسى..

١٤ - ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْن يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ (الرعد: ١١).

ثمة احتمالان لفهم العلاقات في داخل هذه الآية من الناحية النحوية الصرف: أحدهما بين الجار والمجرور، والآخر بينهما وبين لفظ معقبات. والمعنى بحسب كل منهما كما يلي:

١ - له معقبات يحفظونه من أمر الله.

٢ - له معقبات من أمر الله يحفظونه.

والذى يرجح المعنى الثانى أنه لا يمكن لشيء أن يحول دون أمر الله ليحفظ أحد مخلوقاته. ومعنى ذلك رفض تعليق الجار والمجرور بالفعل "يحفظونه". أما ما قاله القرطبي من أن "من" في قوله: "من أمر الله" بمعنى الباء فهو غير متجه لأنه لم يأت على ذلك إلا بشاهد واحد هو قول أبى ذؤيب الهذلي:

شرين بماء البحر ثم ترقعت متى لجج خضر لهن نسيج

وهو يحتمل تضمين "شرين" معنى حفلن بباء البحر، لأن الكلام عن السحائب. كما يحتمل زيادة الباء تجوُّزًا. وأيا ما كان الأمر فإن الاعتماد على الشاهد الواحد ربما كان اعتمادًا على رخصة ترخصها الشاعر فلا يصح أن تبني عليها قاعدة.

١٥ - ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَسَأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل: ٤٣ - ٤٤).

يحمل التركيب ثلاثة أنساق نحوية، على النحو التالي:

أ - وما أرسلنا من قبلك بالبينات والزبر إلا رجالاً نوحى إليهم.

ب - وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم بالبينات والزبر.

ج - وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر.

فالباء ومجرورها وما عطف عليهما تتعلق بالفعل "أرسلنا" أو بالفعل "نوحى" أو بالفعل "تعلمون". فأى هذه الأنساق هو المقصود؟ هناك قرينة في محيط هذا الشاهد؛ فالآية رقم ٣٦ من النحل تقول: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ آعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (النحل: ٣٦). فهذا الشاهد الذى بين أيدينا يشتمل على بيان الطبيعة البشرية للرسول ولكنهم يختلفون عن بقية البشر بأنهم يوحى إليهم برسالات فيها بينات وكتب سماوية يعلمها من اهتدوا بهديهم؛ أى أنه إذا كان رسولكم الذى أرسل إليكم رجلاً من بنى الإنسان فذلك لا يمنع من أن الله أرسله بالبينات والزبر كما أرسل من قبله من الرسل. فإذا كنتم لا تعلمون بما أنزلنا إليه من البينات فاسألوا أهل الذكر ممن يعرفون شأن الرسالات السابقة.

١٦ - ﴿ وَنَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَّى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُوْتُوهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ ﴾ (النساء: ١٢٧).

من المعروف أن الفعل "رغب" يتعدى بحرف الجر "في" فيكون معناه "طلب" أو بالحرف "عن" فيكون معناه "رفض" أو بالحرف "إلى" فيكون معناه "رجا".

غير أن الفعل "ترغبون" جاء في هذه الآية بدون حرف جر، فكان من الممكن أن يكون في النص لبس. ولكن القرآن الكريم يأبى اللبس؛ لأن حذف حرف الجر يناسب المقام، ويأتى للتعبير عن تعدد احتمالات حال اليتيمة المرغوب فيها أو عنها بحسب حالها. فهذه اليتيمة ذات مال كتب لها بالميراث، فالرغبة في الوصاية عليها قائمة سواء كانت جميلة أم قبيحة فإن كانت جميلة كانت الرغبة فيها، وإن كانت قبيحة كانت الرغبة عنها. فلما كانت الرغبة مرتبطة بحرفين مختلفى الدلالة إلى درجة التقابل حذف كلاهما اتكالا على أن النص يعنى كلا منهما في الوقت نفسه. ومثل هذه الحالات يعرض في النصوص القانونية في الوقت الحاضر فيجربى التعبير عنه بواسطة ذكر الحرفين وبينهما خط مائل مثل: (في/ عن)، ولكن ذلك ليس من أسلوب القرآن الكريم.

١٧ - ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (النور: ٦٣).

يمكن من الناحية النحوية الخالصة أن يكون للإضافة في "دعاء الرسول" أحد معنيين:

أ - إضافة المصدر إلى مفعوله، أى لا يكن نداؤكم الرسول كنداء بعضكم بعضا.

ب - إضافة المصدر إلى فاعله، أى لا يكن كلام الرسول إليكم ودعوته إياكم إلى اعتناق عقائد الإسلام كمخاطبة بعضكم بعضاً. بل قابلوا دعاءه إياكم بالانتباه والطاعة.

اختار بعض المفسرين كالقرطبي (رواية عن سعيد بن جبير وعن قتادة) الإضافة إلى المفعول، فجعلوا المعنى نحواً من "لا تقولوا يا أبا القاسم ولكن قولوا يا رسول الله". فلما وصل القرطبي إلى تفسير "قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لو إذا" ذكر من المواقف ما يدعو إلى ترجيح المعنى الثانى، بل النص على إرادته تقريباً؛ إذ يقول: والتسلل والانسلال الخروج، واللواذ من الملاوذة وهى أن تستتر بشيء مخافة من يراك؛ فكان المنافقون يتسللون عن صلاة الجمعة. "لوإذا" مصدر فى موضع الحال؛ أى متلاوذين، أى يلوذ بعضهم ببعض، ينضم إليه استتاراً من رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأنه لم يكن على المنافقين أثقل من يوم الجمعة وحضور الخطبة؛ حكاة النقاش. فالخطبة فيما يظهر يمكن أن تكون هى المقصودة بدعاء الرسول.

١٨ - ﴿ وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ (الأحزاب: ٤٨).

يسمح النظام النحوى للإضافة هنا فى لفظ "أذاهم" بأحد معنيين:

أ - الإضافة إلى الفاعل، فيكون المعنى "أن تؤذيه".

ب - الإضافة إلى المفعول، فيكون المعنى "أن يؤذوك".

ولكن القرينة الدالة على المقصود تظهر فى وقائع السيرة النبوية الشريفة إذ كان المشركون هم الذين يؤذون النبى صلى الله عليه وسلم.

١٩ - ﴿ وَلَا تَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا ﴾ (المائدة: ٢).

هنا أيضًا يأذن النحو بالإضافة إما إلى الفاعل فيكون الشنآن (وهو البغض) من جهة القوم، وإما إلى المفعول فيكون من جهة المسلمين. ولكن القرينة على إرادة الإضافة إلى الفاعل هي قوله: "أن صدوكم"، أى فلا تقابلوا كراهيتهم إياكم ومنعكم من زيارة البيت بالعدوان عليهم بمنع قافلة لهم من الوصول إلى البيت الحرام. ولو قدرنا الإضافة إلى المفعول لكان الشنآن واقعا من المؤمنين فلا تكون هناك فائدة في النهي عن العدوان.

ثالثاً - احتمالات الحذف:

الحذف أحد الأساليب البلاغية التى ترمى إلى غاية معينة؛ منها تجنب الإطناب ومنها إرادة تجنب التصريح بالعنصر المحذوف ومنها الاعتماد على دلالة القرائن، إذ "لا حذف إلا بدليل". وله أغراض أخرى لا مجال لإطالة القول فيها هنا. ولقد سبق أن تناولنا تحت رقم ١٦ من شواهد احتمالات المعنى العلائقى حذف حرف الجر بعد الفعل "ترغبون"، وبيننا الغرض الأسلوبى الذى حققه هذا الحذف. وسنحاول هنا أن نورد بعض الشواهد على حذف بعض العناصر الأخرى؛ وبخاصة الضمائر الرابطة وهى القسط المشترك بين معظم الشواهد.

١ - ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدَوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (الأنعام: ١٠٨).

إن من لا يفتن لدواعى الحذف فى هذه الآية ليظن أن المعنى: ولا تسبوا الكفار الذين يدعون آلهة من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم. ولكن هذا التقدير يهمل عنصر التقابل الذى ينبغى أن يكون بين طرفى السب. ولو طبقة١ مبدأ التقابل هنا لكان جواب النهى بحسب هذا الفهم: "فيسبوكم". أما الفهم الصحيح فإنه يستدعى تقدير ضمير يعود على "الذين" أى على آلهتهم؛ والتقدير: "ولا تسبوا الذين يدعونهم من دون الله فيسبوا الله".

٢ - ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ (الإسراء: ٥٧).

قبل هذه الآية جاءت آية أخرى (رقم ٥٦) هي قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ رَزَعْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ فكانت هذه الآية قرينة على المعنى. فلما أشار في الشاهد الذى بين أيدينا بلفظ "أولئك" كان لابد من تقدير ضمير فى الفعل "يدعون" يعود إلى أولئك. والمقصود بهذا الضمير هو أهتهم المزعومة من دون الله.

٣ - ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٧٥).

قرينة الحذف هنا هى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (آل عمران: ١٧٣).

فتدل هذه الآية على أن هناك من يريد إخافة المؤمنين ممن اجتمعوا لقتالهم. فأرادت آية الشاهد أن تقول إن هؤلاء الذين أبلغوكم الخبر غير مخلصين لكم. وإنما أرادوا أن يخوفوكم من أصدقائهم الذين جمعوا لكم المقاتلين ليقاتلوكم. فالتقدير لنص الشاهد: إنما ذلكم الشيطان يخوفكم أوليائه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين حقًا. فضمير المخاطبين مقدر فى الفعل "يخوف".

٤ - ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَىٰ هُدًىٰ لَّهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ (النحل: ٣٧).

يحتمل الفعل "يضل" أن يكون مسندًا إلى ضمير يعود على "من" أو أن يكون مسندًا إلى لفظ الجلالة. والقرينة على إسناده إلى لفظ الجلالة (أو ضمير لفظ الجلالة على الأصح) هو إسناد الفعل "يهدى" إليه قبل ذلك مباشرة. وبذلك

يتحتم تقدير ضمير مفعول به للفعل "يضل" أى أن الله لا يهدى من يقدر له الضلال. أضف إلى ذلك ما فى بداية الآية من عبارة "إن تحرص على هداهم" أى لا ينبغي لك أن تحرص على هداهم لأن الله لا يهدى من قدّر له الضلال.

رابعاً - احتمالات المعنى المعجمي:

مادة المعجم تنتمى أساساً إلى فقه اللغة لا إلى النحو، ومشتقاتها تنتمى إلى الاستعمال؛ إذ يلزم أن تقوم المناسبة المعجمية بين الألفاظ فى السياق، ومن هنا وجدنا البيانين يستعملون عبارات مثل: إسناد الفعل إلى من هو له أو إلى غير من هو له. ولو أننا أخذنا مادة من مواد المعجم مثل: (ح ف ف) وتبعنا مشتقاتها لوجدنا هذه المشتقات تتنوع صرفياً فى صورها ومعجمياً فى معانيها. فهى تتنوع أولاً تبعاً لصيغ أقسام الكلم، وتنوع ثانياً تبعاً لبيئتها فى السياق. ومن ثم لزم فى الشرح المعجمي لمعاني المفردات أن يأتى الشارح بالشاهد أو بالمثال المشتمل على بيئة اللفظ فى السياق ليكون هذا الشاهد أو المثال قرينة على المعنى الذى نسب إليه اللفظ؛ لأن اللفظ الواحد يتعدد معناه فى حال إفراده ويظل قيد الاحتمال حتى يحدده الشاهد أو المثال.

دعنا أولاً نأخذ نموذجاً من المعجم للمادة المذكورة منذ قليل لنرى صدق ما نقول:

(حفت) الأرض - حفوفاً: ييس بقلها. - الطعام: كان يابساً غير دسم. ويقال حف وهو فى حفوف من العيش. وحف بطنه: ييس من عدم أكل الدسم واللحم.

وحف شعره أو رأسه: شعث من عدم الأدهان. - الشمع: ذهب أجمعه - الشيء خفيفاً: سمع له صوت، كالذى يكون من جناحي الطائر، أو تلهب النار، أو مرور الريح فى الشجر. و- الشيء (منصوب) - (بضم الحاء) حفا وحفافاً: استدار حوله وأحرق به. ويقال حف الشيء بالشيء وحوله ومن حوله. حف فلانا: اعتنى

به ومدحه. و - الشيء (بالنصب): قشره. ويقال: حف شعره ولحيته وشاربه: أحفاه وخففه. وحفت المرأة وجهها: أزال ما عليه من شعر. وحفته الحاجة: أصابته. (من المعجم الوسيط).

وهكذا أورد المعجم ثلاثة عشر معنى للفظ "حف" وحدد كل معنى منها بيئته في السياق. ولو لم يورد من الأمثلة والشواهد ما يدل على المعنى في كل حالة لأصبح لفظ "حف" ملبسا لتعدد المعاني والاحتمالات، وغير صالح للاستعمال.

١ - لفظ "لباس":

﴿يَسْبِيءُ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُورِي سَوْءَ نِكَمٍ وَرِدْشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ (الأعراف: ٢٦).

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ (البقرة: ١٨٧).

﴿فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ (النحل: ١١٢).

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ ذُشُورًا﴾ (الفرقان: ٤٧).

﴿وَجَعَلْنَا لِبَاسًا ۖ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ (النبا: ١٠ - ١١).

يؤخذ من لفظ "لباس" أحد معنيين: أحدهما الملابس، وذلك هو المقصود بكلمة "لباسا" (بالنصب) في آية الأعراف المذكورة في بداية الشواهد فوق هذا الكلام، بقرينة قوله تعالى: "يوارى سوءاتكم". والثاني مصدر الفعل "لابس يلبس لباسا وملابسة" وهو المعنى المقصود فيما عدا ذلك من المواضع في الآيات المذكورة هنا. وقرينة ذلك أن تصوّر الملابس تفسيرا للفظ "لباس" في المواضع المذكورة لا ينسجم مع النص بخلاف معنى الملابس التي تدل على الإقامة مع الأهل، أو في معاناة الجوع والخوف، أو قضاء الليل مع الأسرة

والانتشار لطلب الرزق في النهار. فاللباس في كل ذلك مصدر بمعنى الملازمة. وقد تكرر لفظ "لباس" في الآية الأولى على سبيل المشاكلة؛ فذلك شبيه بما في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لِيُثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ (الروم: ٥٥).

٢ - لفظ "كتاب":

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانٍ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ (البقرة: ٧٨).

﴿ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (الأنفال: ٦٨).
﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ (النساء: ٢٤).

﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالٍ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (يونس: ٦١).

﴿ وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾ (الكهف: ٤٩).
﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ (النور: ٣٣).

﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكُمْ ﴾ (العنكبوت: ٤٨).
﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِیْظٌ ﴾ (ق: ٤).
﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا ﴾ (آل عمران: ١٤٥).
﴿ فَمَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ بِإِيمَانِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ ﴾ (الإسراء: ٧١).

إن من يتأمل دلالات الآيات السابقة ويرى أثر السياق في معاني الألفاظ

المستعملة فيها سيري أن لفظ "كتاب" يدل بحسب ترتيب الآيات على المعانى التالية:

* فى الآية الأولى يدل لفظ "كتاب" على الكتابة بدليل استعمال لفظ "أميون" فالكتاب مصدر "كتب".

* ويدل فى الثالثة على "الفريضة"، لأن الآية تدور حول حكم شرعى للتعامل مع النساء.

* وفى الرابعة على اللوح المحفوظ الذى يشتمل على أمور لا يحيط بعلمها إلا الله.

* وفى الخامسة على سجل أعمال المرء عند الله مشتملاً على الحسنات والسيئات.

* وفى السادسة على مكاتبة العبد الرقيق على مبلغ من المال يصبح بعد أدائه حراً، فالكتاب مصدر "كاتب".

* وفى السابعة على أى نص مخطوط، فلفظ كتاب معناه "مكتوب".

* وفى الثامنة ما يصيب كل واحد من العباد.

* وفى التاسعة موعد الموت.

* وفى العاشرة قائمة الحسنات التى كسبها العبد أثناء حياته الدنيا، بدليل، "ييمينه".

وهكذا يختلف معنى "كتاب" من الناحيتين الصرفية (التي يكون بها مصدرًا للفعل كتب أو كاتب أو بمعنى اسم المفعول من كتب)، والمعجمية التى تطلقه على الفريضة واللوح المحفوظ وسجل أعمال المرء عند الحساب أو ما يقع منه أو موعد الموت.

٣ - لفظ كوثر:

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ ﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾
(الكوثر: ١ - ٣).

تدل الأصول الثلاثة (ك ث ر) للفظ "كثر" على أن معنى "كوثر" متصل بمعنى الكثرة. ويشهد على ذلك قول الكميت:

وأنت كثير يا ابن مروان طيب وكان أبوك ابن العقائل كوثرًا

فقد جعل الشاعر ابن مروان كثيرًا ثم بالغ فيما وصف به أباه من الكثرة بزيادة الواو، أى أن الكوثر مبالغة في الكثرة. ويقول رواة الأثر إن المقصود بالكوثر في سياق هذه السورة نهر في الجنة، أو حوض للنبي صلى الله عليه وسلم تشرب منه أمته. ويوردون من الأحاديث ما يشهد لصحة هذا المعنى ولكنهم يختلفون في سبب نزول هذه السورة بين الرجوع عن دخول مكة في غزوة الحديبية وبين وفاة أحد أبناء النبي، وهو عبد الله أو إبراهيم ثم تعبير أبي جهل للنبي بأنه أبتَر إلخ. وهذا القول الأخير في سبب النزول أوجه في رأى من السبب الذى قبله، لأن الذى قبله لا يتضح منه سبب ذكر "الأبتَر" في آخر السورة. والمعنى في عمومه - والله أعلم -: إنا أسبغنا عليك الكثير من النعم فاشكر الله بالتقرب إليه بالصلاة والقربات، ولا تعباً بما قاله شانئك الأبتَر.

٤ - لفظ "وسط":

﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى ﴾ (البقرة: ٢٣٨).

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ (البقرة: ١٤٣).

﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ (القلم: ٢٨).

﴿ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ ﴾ (المائدة: ٨٩).

يقول القرطبي في تفسيره: روى الترمذى عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى: قال: "عدلاً". قال: هذا حديث حسن صحيح. وفى التنزيل: "قال أوسطهم" أى أعدلهم وخيرهم. وقال زهير:

همو وسط يرضى الأنام بحكمهم إذا نزلت إحدى الليالى بمعظم
غير أن القرطبي فى تفسير معنى "الصلاة الوسطى" يقول: "واختلف الناس فى الصلاة الوسطى على عشرة أقوال". وقد اشتملت هذه الأقوال التى يشير إليها على تسمية جميع الصلوات الخمس مفردة أو مع جمع بعضها مع بعض، فخالف بذلك ما رواه عن الترمذى فى شرح معنى الأمة الوسط. ثم فسر الوسطية فى آية المائدة بأنها منزلة بين منزلتين أخذنا من الحديث الشريف القائل: "خير الأمور أوسطها". مع أن الحديث يمكن أن يكون المقصود به أن أوسط الأمور هو خيرها، بمعنى أن الخيرية هى معنى الوسطية، أى تفسير معنى الوسطية؛ والتقدير: أوسط الأمور معناه خيرها. كما تقول: سيد القوم خادمهم، أى خادم القوم أهم من فيهم لضرورة وجوده بينهم. فكما أن هذا المثال يمكن عكسه فيصير: سيد القوم خادمهم فكذلك يمكن عكس نص الحديث ليصير: أوسط الأمور خيرها.

ولقد كان يمكن قبول هذا الاختلاف الذى أورده القرطبي فى شرح معنى الوسطية لو قامت قرينة سياقية على كل معنى نسب إلى اللفظ. ولكن القرينة قائمة فعلاً على أن المعنى واحد فى جميع الشواهد السابقة على الترتيب التالى:

حافظوا على الصلوات وعلى إتقانها.

وكذلك جعلناكم خير أمة أخرجت للناس.

قال أفضلهم ألم أقل لكم قولوا إن شاء الله!

من أفضل طعام أهليكم أو كسوتهم.

فالأفضلية هى المعنى فى جميع الحالات، وإنكارها فى حالة الشاهد الأخير نوع

من البخل الذى يترك أثره فى حكم شرعى.

٥ - لفظاً "أيد" و"موسعون":

يحتمل لفظ "أيد" أن يقصد به الأيدى وأن يقصد به الأيد وهو القوة (يقال: أيدك الله أى قواك) وقرينة المعنى الثانى ما فى قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ﴾ (ص: ١٧). وقيل فى لفظ "موسعون" ما فسر به أصحاب التفسير العلمى من "تمدد الكون"، أى أن الله يوسع مساحة الكون بقدرته. وتشير القرينة إلى أن المعنى: "وإن فى وسعنا أن نفعل ذلك". والدليل على صحة هذا المعنى ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿عَلَى الْمَوْسِعِ قَدْرُهُ﴾ (البقرة: ٢٣٦)، أى على المستطيع أن ينفق بقدر استطاعته.

٦ - الآخرة والأولى:

﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ (الضحى: ٤).

﴿وَإِنْ لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ (الليل: ١٣).

﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ (النازعات: ٢٥).

﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾ (النجم: ٢٥).

﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ﴾ (القصص: ٧٠).

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولُنَاهُمَا﴾ ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ (الإسراء: ٥ - ٧).

اشتهر فى أفهام المفسرين أن يكون المقصود بالأولى هو الحياة الدنيا، وأن المقصود بالآخرة هو الحياة بعد الموت. ولكن القرائن المحيطة بفهم هذه الآيات تدل على أن الأولى ما وقع ذكره أولاً وأن الآخرة هى المذكورة بعد ذلك.

فالمقصود بهذين اللفظين فى سورة الضحى هو النزلة الأولى للوحى وما كان

فيها من مشقة، وبالنزلة الثانية ما صحبها من عطاء الرسالة وما فيها من عقيدة وشريعة.

أما في سورة الليل فالمقصود بالأولى قوله تعالى: "فسنيسره لليسر" والمقصود بالآخرة قوله تعالى: "فسنيسره للعسر". أما قوله تعالى: "وإن لنا للآخرة والأولى" فمعناه: ونحن نستطيع التيسير لكليهما.

وأما في سورة النازعات فإن فرعون في أولى المعصيتين "كذب وعصى"، وفي الثانية "أدبر يسعى فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى". فعاقبه الله على اقتراف الآخرة والأولى.

وأما في سورة النجم فثمة قوله تعالى: "ثم دنا فتدلى"، وهذه هي الأولى. وقوله: "ولقد رآه نزلة أخرى"، وهذه هي الآخرة. ثم جاءت بعد ذلك جملة التعجب التي تقول: "فلله الآخرة والأولى" أى ما أحسنهما.

وأما في القصص فإن الأولى تتمثل في قوله تعالى: وربك يخلق ما يشاء ويختار" وتتمثل الآخرة في قوله سبحانه: "وربك يعلم ما تكن صدورهم".

ثم يقول: "له الحمد في الأولى والآخرة". أى له الحمد خالقاً وله الحمد عالماً.

وأما في الإسراء فثمة قوله تعالى: "لتفسدن في الأرض مرتين". ومن هنا يأتى ذكر أولاهما والآخرة.

فالكشف عن الأولى والآخرة في هذه الشواهد هو القرينة على إرادة المعنى المذكور لكل من هاتين الكلمتين.

٧ - الرحمن الرحيم:

يقول النسفى في تفسيره: "الرحمن فعلا من رحم وهو الذى وسعت رحمته كل شىء كغضبان من غضب وهو الممتلى غضباً وكذا الرحيم فعيل منه كمريض من مرض. وفي الرحمن من المبالغة ما ليس في الرحيم لأن في الرحيم زيادة واحدة وفي

الرحمن زيادتين وزيادة اللفظ تدل على زيادة المعنى. ولذا جاء في الدعاء: يا رحمن الدنيا لأنه يعم المؤمن والكافر ورحيم الآخرة لأنه يخص المؤمن". وفي قول النسفى هذا محاولة الكشف عن سبب اختلاف صيغة اللفظين وأصلهما واحد. وإذا كان الاستقراء من طرق البحث فلا مانع من أن ننظر في استعمال القرآن الكريم لهذين اللفظين لنعلم من سياق استعمالهما المعنى المقصود بكل منهما. وقد تكون الطريقة المختصرة لأداء ذلك هى النظر فى المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، لأنه يجمع من الآيات فى موضع واحد كل ما يشتمل على أحد هذين اللفظين تحت مادة معجمية واحدة. وهكذا نفى أنفسنا فى مشقة التفتيش عن الآيات المطلوبة فى النص القرآنى مجتمعاً.

وقبل أن نفعل ذلك يحسن بنا أن نشير إلى أن الأسماء الحسنى تدل على الذات الإلهية من جهتين: إحداهما الألوهية والأخرى الربوبية. الأولى تعنى استحقاق العبادة والأخرى استحقاق الاستعانة. وقد صرح النص القرآنى بذلك فى سورة الفاتحة بقوله تعالى: "إياك نعبد وإياك نستعين"، وبالفصل بين "مالك يوم الدين" و"رب العالمين". فإذا نظرنا فى ضوء ذلك إلى مواضع استعمال لفظى الرحمن والرحيم رأينا أن لفظ الرحمن يستعمل للدلالة على الألوهية وأن لفظ الرحيم يدل على الربوبية. أما لفظ الجلالة "الله" - وهو الاسم الأعظم فهو عام فى دلالة على الجهتين؛ لأنه معبود ومستعان فى وقت معا كما يفهم من مواضع استعماله.

وإذا كان الأمر كذلك فدعنا نلق نظرة إلى ترتيب الآيات فى معجم ألفاظ القرآن الكريم لنرى من سياق الآيات ما يوحى به كل من اللفظين:

﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ (الإسراء: ١١٠).

﴿قَالَتْ إِنِّى أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ﴾ (مريم: ١٨).

* ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ (مريم: ٢٦).

* ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ (مريم: ٤٤).

* ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ﴾ (مريم: ٤٥).

* ﴿إِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِمْ ءَايَتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ (مريم: ٥٨).

* ﴿جَنَّتْ عَدْنُ آلِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ﴾ (مريم: ٦١).

* ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾ (مريم: ٦٩).

فالرحمن كما رأينا صفة ألوهية وهيمنة وإحاطة بالعباد. فإذا اقترن ذكرها بلفظ "رب" فإنها تأتي في مقام طلب المناصرة كما نراه في آيتين من آيات القرآن الكريم:

﴿وَإِنْ رَبُّكُمْ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ (طه: ٩٠). أى إن ربكم هو المهمين الفعال لما يريد، فكيف تتخذون العجل إلها من دونه!

﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ (الأنبياء: ١١٢). أى وربنا المهمين هو المعين لنا على عنادكم.

ففى الآية الأولى نرى بنى إسرائيل قد فتنوا فعبدوا العجل من دون الله فيقول لهم هارون ما نصت عليه الآية الأولى؛ فلما كان بنو إسرائيل ينظرون إلى الله تعالى من زاوية الربوبية أكثر مما ينظرون إليه من زاوية الألوهية، فهم شعبه المختار وهو يلتزم (في ظنهم) بإنعامه عليهم وهم لا يلتزمون بعبادته، وإنما يعبدون العجل كما عبده الفراعنة رأى هارون من الضروري أن يبصرهم بأن الله ليس ربا فقط بل هو رب وإله "وإن ربكم الرحمن" أى هو الإله أيضًا.

أما فى الآية الأخرى فإن الجملة الأصلية هى: "وَرَبُّنَا الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ" ولكن المقام تطلّب أن تكون الاستعانة به تعالى من حيث الألوهية وطلب النصر لا

من حيث الربوبية وطلب النعمة. وقد مهدت الآيات السابقة على هذه الآية لهذا الموقف على النحو التالي: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ ۚ فَعَلِمَ أَن تَكُونُوا مُسْلِمُونَ﴾ ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنِ أَذْرِي أَقْرَبُ أَم بَعِيدُ مَا تُوعَدُونَ﴾ ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ ﴿وَإِنِ أَذْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَّبِعْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ ﴿قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ ۚ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧ - ١١٢). وهكذا اقتضى الموقف أن يوصف الرب المستعان بأنه "الرحمن" الإله الواحد، ذو العرش المجيد الفعال لما يريد.

وإذا كان "الرحمن" من صفات الألوهية والهيمنة واستحقاق العبادة كما اتضح من بيئة اللفظ في سياق الشواهد السابقة فإن "الرحيم" من صفات الربوبية والعطاء والرأفة كما يبدو أيضًا من بيئة اللفظ في آيات القرآن الكريم. ولن يتسع المقام هنا - كما لم يتسع من قبل - لإيراد كل ما في القرآن من آيات ورد فيها لفظ "الرحيم".

ومن ثم يحسن بنا أن نكتفى بإيراد شاهد واحد لكل صفة اقترن بها هذا اللفظ مما يوحى بمعنى الربوبية الذي يستفاد منه. وهذه الصفات هي:

* التواب: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتَيْنِ فَنَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: ٣٧).

* الرؤوف: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: ١١٧).

* الرحمن: ﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهُ وَاحِدٌ ۚ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: ١٦٣).

* الغفور: ﴿فَمَنْ أَضْطَرُّ فِي مَخْصَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ ۚ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (المائدة: ٣).

* الودود: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ (هود: ٩٠).

* العزيز: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (الشعراء: ٩).

* الرب: "سلام قولاً من رب رحيم" (يونس: ٥٨).

* البر: ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ (الطور: ٢٨).

فالتوبة والرفقة والغفران والود والربوبية كلها صفات عطاء؛ أما العزة فهي كمال ذاتي ليس له هيمنة الرحمن. وأما الشاهد الذي اشتمل على عبارة "الرحمن الرحيم" فإن الآية تتكلم في الأساس عن الإله الذي هو الرحمن ثم تصفه بأنه "رحيم" بعباده. ومعنى هذا في النهاية أن لكل من لفظي "الرحمن" و"الرحيم" ظلاً مختلفاً عن الآخر في المعنى وإن اتفقا في أصل الاشتقاق.

٨ - مادة (ق د ر) ومشتقاتها:

لمشتقات مادة (ق د ر) عدد لا بأس به من المعاني يجمعه اتجاه عام إلى مفهوم "الضبط والتحديد" الذي يمكن ملاحظته في الأمور الآتية:

المقدرة: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ (القيامة: ٤٠).

القيمة: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ (الأنعام: ٩١).

الغلبة: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾ (المائدة: ٣٤).

الموعد: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمْوَسَّىٰ﴾ (طه: ٤٠).

﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ (المرسلات: ٢١).

الملك: ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا﴾ (البقرة: ٢٦٤).

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ (النحل: ٧٥).

الحسبان: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا﴾ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (الأنعام:

٦٩).

﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ (يس: ٣٩).

﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامًا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ (فصلت: ١٠).

﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ (المزمل: ٢٠).

التضييق: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ (الرعد: ٢٦).

﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَةً وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ (سبا: ١١).

﴿وَمَن قُدِّرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ (الطلاق: ٧).

﴿فَظَنَّ أَن لَّنْ نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ (الأنبياء: ٨٧).

﴿أُحْسِبُ أَن لَّنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ (البلد: ٥).

تحديد المقدار: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ (الفرقان: ٢).

﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ (المرسلات: ٢٣).

﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ (الطلاق: ٣).

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ (الرعد: ٨).

﴿وَمَا تُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ (الحجر: ٢١).

﴿فَسَأَلْتُ أَوْدِيَةً بِقَدَرِهَا﴾ (الرعد: ١٧).

﴿وَلَكِن يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾ (الشورى: ٢٧).

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ (المؤمنون: ١٨).

واحسب أن هذا المعنى الأخير قريب من مفهوم "توازن البيئة" كما نفهمه الآن.

خامساً. احتمالات الوصل والفصل:

أول ما يرد على الذهن من هذه الظاهرة ما يعرف باسم "تعايق الوقف" كالذى نصادفه في أول سورة البقرة من قوله تعالى:

* "ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين". إذ يمكن لهذه الآية أن تقرأ بكل من الصور التالية:

ذلك الكتاب - لا ريب فيه - هدى للمتقين.

ذلك الكتاب - لا ريب - فيه هدى للمتقين.

ذلك الكتاب لا ريب فيه - هدى للمتقين.

موضع التعانق هو عبارة "لا ريب فيه" من حيث علاقة الألفاظ في داخلها وعلاقاتها بها حولها سواء مما تقدم عليها أو تأخر عنها. وهناك صور أخرى لاحتمالات الوصل والفصل يسمح بها النحو ويأبى بعضها المعنى المقصود، نورد بعضها فيما يلي:

* ﴿قُلْ أَحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ (المائدة: ٤).

لا يمنع مانع نحوى من عطف "ما علمتم" على الطيبات والوقف على لفظ الجلالة، ثم الاستئناف بقوله: "فكلوا". ولكن يمنع من ذلك تحريم لحم الجوارح من جهة وعدم استعمال الطيبات فى الصيد من جهة أخرى. من هنا يكون الاستئناف على قوله: "وما علمتم" وتصبح الفاء فى "فكلوا" واقعة فى جواب الشرط.

* ﴿تُرْجَى مَن تَشَاءُ مِنْهُمْ وَتُقْوَى إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ^{٥٠} وَمَن ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ (الأحزاب: ٥١).

ولا يمنع مانع نحوى أيضًا من عطف "ومن ابتغيت" على "من تشاء" والاستئناف بجمله "فلا جناح عليك". غير أن المعنى قائم على ربط الاستئناف بالجملة الشرطية "ومن ابتغيت" وجوابها "فلا جناح عليك".

* ﴿قَالُوا يَوَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا^{٥١} هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ (يس: ٥٢).

لو كان الوقف على لفظ "هذا" (ولا يمنعه النحو) لتحولت "ما" التى بعده عن الموصولية إلى نفى الوعد والصدق.

* ﴿وَلَا تَحْزَنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ (يونس: ٦٥).

لا يمنع مانع نحوى من الوصل ولو تم الوصل لقامت دعوى غير معقولة هى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يحزن عند قول هؤلاء: إن العزة لله جميعاً. ولكن الوقف على لفظ "قولهم" يجعل قولهم شيئاً غير ذلك، ويفيد أن ما بعده هو من كلام الله سبحانه وتعالى. أما ما قاله هؤلاء فقد أشارت إليه الآية رقم (٩٥) من السورة، وهى تقول: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَلًا قُلْ إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَكُمْ أَنْ تَقْتُلُوا﴾. فقولهم هذا هو الافتراء.

* ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ (آل عمران: ٧).

لا مانع من النحو يمنع من أن يكون الراسخون فى العلم أهلاً لتأويل المتشابه، فيكون لفظ "الراسخون" معطوفاً على لفظ الجلالة فلا مانع من الوصل. ولكن الراسخين - كما تقول الآية - "يقولون آمنا به كل من عند ربنا". وهكذا يقف الإيمان بإزاء العلم فيكون لهم الإيمان والله العلم بالتأويل.

* ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ (النمل: ٤٩).

يجوز فى منطق النحو الوقف على "تقاسموا" ليكون على سبيل البدل من "قالوا" ثم الاستئناف بقوله تعالى: "بالله لنبيته وأهله". ولكن هؤلاء الرهط "كانوا

يفسدون في الأرض ولا يصلحون" فلا ينتظر منهم أن يكونوا من أصحاب الإيثار. ولو نظرنا إلى إيراد صيغة القسم "بالله" لوجدنا رواية اللفظ بعينه أولى أن تكون من كل واحدة منهم على حدة، لا أنهم تلووا القسم معاً. فلا يبقى إلا أن يكون الكلام متصلاً بدون استئناف، وأن يكون كل منهم على حدة قد تلا القسم أمام الآخرين. وعلى ذلك يكون لفظ القسم من الجار والمجرور متعلقاً بالفعل "تقاسموا" متصلاً به في التلاوة.

سادساً. احتمالات معنى التركيب:

إذا صح أن يتعدد المعنى للحرف والأداة والصيغة واللفظ المفرد والوقف والابتداء فإن المعنى يتعدد أيضاً لتركيب الجملة في بعض الحالات. ولقد رأينا كيف يعتمد المفسرون والفقهاء في فهم معنى فعل الأمر على القرائن فيرونها مفيداً للإباحة حيناً وللوجوب حيناً آخر. وليس تعدد المعنى مقصوراً على صيغة الأمر، ولكن له مظاهر أخرى في تراكيب العربية سجلها النحاة تحت عنوان "إشراب التركيب معنى غير معناه الأصلي" وأوضحوا ذلك في باب الإخبار بالذی والألف واللام، إذ يصادفون خبر المبتدأ في بعض الحالات مقترنا بالفاء فيفهمون بذلك أن الجملة الخبرية قد أشربت معنى الشرط. وأرى أن هذا الفهم لمشكلة تعدد المعنى في مجال الجملة صالح أن يعمم في الحالات المختلفة للجمل في النحو العربي. انظر على سبيل المثال إلى احتمالات المعنى في الشواهد التالية:

* ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٢).

التركيب في صورة النهي وقد أشرب معنى الأمر بدليل أن الموت لا ينهى عنه وأن ما صحب التركيب من الاستثناء والغائية يشير إلى طلب التمسك بالإسلام حتى الموت.

* ﴿فَتَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ (المؤمنون:

(١١٦).

التركيب في صورة الخبر ولكنه أشرب معنى الإنشاء التعبدى بقرينة النص على شعار الوحداية والعرش الكريم.

* ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (الكهف: ٢٨).

النهي للعينين في التركيب وللنبي صلى الله عليه وسلم في المعنى. بقرينة إسناد الفعل "تريد" إليه صلى الله عليه وسلم.

* ﴿وَلَا يَصُدُّنَاكَ عَنْ ءَايَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلْتُ إِلَيْكَ﴾ (القصص: ٨٧).

اتجه التركيب إلى نهى المشركين والقصص نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن طاعتهم.

* ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ (القلم: ٤٤).

التركيب أمر أشرب معنى الوعيد.

* ﴿وَالَّتِي يَهْتَنُّ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرْبَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ﴾ (الطلاق: ٤).

التركيب خبرى أشرب معنى الشرط بقرينة الفاء في "فعدتهن".

* ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ (البقرة: ٢٢٨).

التركيب خبرى أشرب معنى الشرط بقرينة ما بعده من قوله تعالى: "إن كن يؤمن".

* ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَمِّ الرِّضَاعَةَ﴾ (البقرة: ٢٣٣).

التركيب في صورة الخبر ولكنه أشرب معنى الشرط بقرينة قوله تعالى: "لمن أراد أن يتم الرضاعة".

* ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ (الإنسان: ١).

التركيب على صورة الاستفهام ولكنه أشرب معنى التعجب أى ما أطول ما مر بالإنسان من الدهر دون أن يكون له وجود. والقرينة أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن له علم بتطور نشأة الإنسان فيسأل عما كان من ذلك.

* ﴿هَلْ تَوَبَّ الْكَفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (المطففين: ٣٦).

التركيب على صورة الاستفهام ولكنه أشرب معنى التعجب من تبدل الحال بين الكفار والذين آمنوا.

* ﴿الْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ (الحاقة: ١ - ٣).

قوله تعالى ﴿مَا الْحَاقَّةُ﴾ جاء على صورة الاستفهام غير أنه أشرب معنى التعجب بقرينة ما بعده من تعجب كامل الأركان هو قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ بدليل أن النبى صلى الله عليه وسلم كان على علم بأشراط الساعة.

* ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (هود: ١٤).

التركيب على صورة الاستفهام ولكنه أشرب معنى التحضيض. وقد جاء ذلك بعد أن أمر الله المؤمنين بقوله: "فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنها أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو".

* ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ (الكهف: ١٠٣ - ١٠٤).

التركيب للاستفهام ولكنه أشرب معنى الخبر، أى سأنبئكم.

* ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ (المائدة: ٦٤).

التركيب على صورة الخبر ولكنه أشرب معنى الإنشاء بقصد الدعاء.

مكونات الضمائر في النص القرآني الكريم

المقصود بالضمائر ما وضعته من الكلم تحت هذا العنوان في كتاب اللغة العربية معناها ومبناها من ضمائر الأشخاص والإشارات والموصولات. وذلك ضمن تقسيم جديد للكلم في اللغة العربية. ولقد قبل النحاة قول ابن مالك في الألفية:

وما لذي غيبة أو حضور كأت وهو سم بالضمير

ولو أنصف ابن مالك لأضاف إلى عبارة "أنت وهو" لفظين آخرين أحدهما من الإشارات ليمثل معنى الحضور والآخر من الموصولات ليمثل الغيبة، وبذلك يشمل مصطلح الضمير الأنواع الثلاثة جميعا.

ثم يظل لكل نوع من هذه طرق استعماله وظلال معانيه. وفيما يلي بعض ما يتضمنه استعمال الضمائر بأنواعها الثلاثة من التوسع في الأسلوب القرآني:

أولا- ضمائر الأشخاص:

المعروف أن معاني الضمائر معان عامة (لا تدل على شئ مفرد)، ومن ثم يقول النحاة إن من حقها أن تؤدَّى بالحرف، وأن أدائها يعد سببا للبناء للشبه المعنوي بين اللفظ الذي يحمل المعنى العام وبين الحرف. والمعاني التي تحملها الضمائر من ثلاثة أنواع هي:

أ- النوع (التذكير والتأنيث).

ب- العدد (الإفراد والتثنية والجمع).

ج - الوضع (التكلم والخطاب والغيبة).

وهذه المعانى مما يتوقف عليه فهم الضمير فى الخطاب، بمعنى أن المتكلم من شأنه أن يراعى هذه المعانى لأن رعايتها شرط من شرط الإفادة. ومن ذلك الأيخاطب المؤنث بضمير المذكر ولا المخاطب بضمير المتكلم .

هذا ما يطلبه نظام اللغة. ولكن رعاية النظام شئ ورعاية التداوليات شئ آخر. من ذلك مثلا مخاطبة الغائب بضمير المخاطب، ويكون ذلك باستحضار الغائب بالتجريد الذهنى لمخاطبته فى أمر يهم المتكلم، وعندئذ يقال: "جرد الشاعر من نفسه شخصا وخاطبه" لأن خطاب التجريد يختلف عن خطاب الحضور. وحين قال امرؤ القيس:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

جرد من نفسه مخاطبين لا مخاطبا واحدا، ولم يكن لهذين المخاطبين حقيقة واقعة وذلك على عكس ما يقول به نظام اللغة من حضور المخاطب أثناء الخطاب.

ومن ذلك أيضا أن اختلاف المواقف الاجتماعية بين المتكلم والمخاطب يسمح، بل يقضى أحيانا فى كثير من الظروف. أن يخاطب المتكلم السامع المفرد الذى هو أعلى منه درجة فى السلم الاجتماعى بضمير الجماعة. فيقول له وهو مفرد: "أهلا بكم وسهلا، وقد شرفتمونا بزيارتكم". وسيعلم المخاطب عندئذ إنه ليس موضع ترحيب فحسب، بل هو موضع احترام كذلك. والمتكلم الذى هو أعلى قدرا من السامعين يبيع لنفسه أيضا أن يشير إلى شخصه المفرد بضمير الجمع، فيقول: "نحن كذا قررنا ما يلى: ...". أما فى حال الإشارة إلى الغائب فإن الاحترام يكون بإضافة الصفة الداعية إلى الاحترام إلى الغائب أو ضميره، فيقال: "جلالة الملك" أو "سمو الأمير" أو "سيادة الرئيس" أو "معالي الوزير" أو غير ذلك من صفات التكريم. أو يقال: جلالته وسموه وسيادته ومعاليه ويظل الضمير على حاله.

هنا يمكن أن نتناول أسلوب القرآن الكريم فيما يتصل باستعمال الضمائر، سواء

ما يقوله المتكلم وما يتقبله السامع. فالذين يذكرون الله بضمير الخطاب يقولون: "أنت" بضمير المفرد على عكس ما في الحياة الاجتماعية الإنسانية، وإن ذكره في غير الخطاب فذلك بضمير المفرد "هو". ومن شواهد ذلك بالنسبة للخطاب:

﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة ٣٢).

﴿أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة ٢٨٦).

﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيَّ﴾ (المائدة ١١٧).

﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ- فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ (يوسف ١٠١)

ومن شواهد ضمير الغيبة:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ (البقرة ٢٩).

﴿قُلْ أَنْتَ حَاجُونَنا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ (البقرة ١٣٩).

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (التقرة ١٦٣).

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ (أل عمران ٢).

لقد رأينا في هذه الشواهد اطراد الافراد في ضميرى الخطاب والغيبة عند ذكر الله تعالى، وذلك تجنباً لظن الوقوع في التعدد الذى يفهم من ضمير الجمع. فلو خاطب سبحانه بضمير الجمع لكان من الممكن للسامع غير المسلم أن يفهم من الضمير أنه جماعة من المخاطبين، أو يفهم من ضمير الغيبة إشارة إلى التعدد أيضاً.

هذا فيما يتصل بضميرى الخطاب والغيبة، أما فيما يتصل بضمير التكلم فإن الله سبحانه وتعالى يستعمل ضمير التكلم المفرد حيناً وضمير المعظم ذاته حيناً آخر، بحسب سياق النص. أما ضمير المتكلم المفرد فيكون استعماله عندما يكون الكلام موجهاً إلى المقرين أو المعاتين من عباده كما في قوله تعالى:

﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ ﴿ وَأَنَا آخِزْتُكَ ﴾
(طه ١٢-١٣).

﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي ﴾ (طه ١٤).

﴿ فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (البقرة ١٦٠).

﴿ يَمُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (النمل ٩).

﴿ تُسْرُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ ﴾ (المتحنة ١).

أما بمناسبة ذكر الالاء والنعم والقدرات الإلهية فإن الله سبحانه يستعمل ضمير الجمع لإعلاء الذات كما نرى في الشواهد الأبية:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُدْ حَافِظُونَ ﴾ (الحجر ٩).

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴾ (الحجر ٢٣).

﴿ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ (الإسراء ٣١).

﴿ وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ آلِفِئِمَةٍ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ (الإسراء ٥٨).

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ﴾ (الكهف ١٣).

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ (مريم ٤٠).

﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلًى ﴾ (مريم ٧٠).

﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ (طه ١٠٤ وق ٤٥).

﴿ نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعِيقَةُ لِلتَّقْوَى ﴾ (طه ١٣٢).

﴿ فَتِلْكَ مَسْكِنُهُمْ لَمَّا تَسْكُنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾
(الإسراء ٥٨)

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدُمُوا وَءَاثَرَهُمْ ۚ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ (يس ١٢).

﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (الزخرف ٣٢).

﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ (ق ١٦).

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴾ (ق ٤٣).

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَكُمْ فَلَوْلَا تَصَدِّقُونَ ﴾ (الواقعة ٥٧).

﴿ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ ﴾ (الواقعة ٦٠).

﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ ﴾ (الواقعة ٧٣).

﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ (الواقعة ٨٥).

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴾ (الإنسان ٢٣).

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ۚ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴾ (الإنسان ٢٨).

ولعل القرينة النصية الدالة على أن الضمير "نحن" في الشواهد السابقة لا يدل على متعدد هي قوله تعالى في سورة طه: ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي ﴾ (طه ١٤). وقد سبق ذكر هذا الشاهد.

ومما يمكن أن يضاف إلى المعاني العدولية الأسلوبية للضمائر ما يقصد بها من الدلالة على الشأن أو القصة بحيث يصبح الشأن مرجعا متأخرا للضمير، فإذا كان الضمير مذكرا سمي ضمير الشأن وإن كان مؤنثا قيل له ضمير الالقصة. ومن شواهد ذلك:

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ

كُفُّوا أَعْدًا ﴿ (الإخلاص ١-٤). فالشأن الذي عاد عليه الضمير هو "الله أحد الله الصمد" أما ما بعد ذلك حتى نهاية السورة فهو كلام مفسر كلمة "الصمد".

﴿ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ (طه ٧٤).

﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَىٰ الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَىٰ الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (الحج ٤٦)

﴿ يَمْوَسِيٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (النمل ٩).

فما بعد الضمير في كل ذلك هو مرجع الضمير.

ثانيًا - ضمائر الإشارة:

وقد يشار إلى كلام لاحق بضمير إشارة فلا يكون ثمة فارق بينه وبين ما يسمى ضمير الشأن ومن ذلك ما في قوله تعالى:

﴿ ذَٰلِكَ يَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿١٥٦﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (آل عمران ٥٩). فمرجع الضمير "ذلك" هو قوله "إن مثل عيسى... الخ".

﴿ فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتَيْنِ فَنَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ﴾ (البقرة ٣٧-٣٨). فالكلمات هي "قلنا اهبطوا... الخ".

ويمكن كذلك أن يشار إلى كلام سابق بضمير إشارة يتلوه واو العطف (وذلك شرط فيما نقصد) ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ حُرْمَتَ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾ (الحج ٢٧-٣٠). ومثله قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ (الحج ٣٢).

فقوله "ذلك" إشارة إلى الشأن السابق في الكلام، والواو عاطفة على ما يلي. أى

أن من الشأن النحوى ما يكون مرجعا لضمير الإشارة، سبقه ضمير الإشارة أو لحقه.

وكما حمل الضمير الشخصى "نحن" شحنة الاحترام وجدنا بين الضمائر الإشارية ضميرين هما "اولئك" و "هؤلاء". فأما أولئك فيشار به دون نية تكريم أو انتقاص، ولكن استعمال "هؤلاء" فى النص القرآنى يحمل من إرادة الانتقاص قدرا لا يخفى على ذى فهم يكفى أن نقرأ لفظ "هؤلاء" فى الشواهد التالية لنعرف أن المشار إليهم غير محل رضى، وإليك ما يلى من شواهد ذلك:

﴿ فَقَالَ أَنِيبُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (البقرة ٣١).

﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ (البقرة ٨٥).

﴿ هَتَأْتُمْ هَؤُلَاءِ حَسْبَ جُنْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّوهُمْ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ﴾ (آل عمران ٦٦).

﴿ هَتَأْتُمْ أَوْلَاءَ يُحِبُّوهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ ﴾ آل عمران (١١٩).

﴿ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴾ أى عن الذين كفروا (النساء ٥١).

﴿ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ (النساء ٧٨).

﴿ هَتَأْتُمْ هَؤُلَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَدِّلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ (النساء ١٠٩).

﴿ مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ ﴾ (النساء ١٤٣).

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ أَنَّهُمْ لَعَنُوكُمْ ﴾ (المائدة ٥٣).

﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مِثْلُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا ﴾
(الأنعام ٥٣).

﴿ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾ (الأنعام ٨٩).

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَتُنَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ (يونس ١٨).

﴿ وَيَقُولُ الْأَشْهَدُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ ﴾ (هود ١٨).

﴿ قَالَ يَنْفَرِمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ (هود ٧٨).

﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ ﴾ (هود ١٠٩).

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْحِحِينَ ﴾ (الحجر ٦٦).

﴿ قَالَ إِنْ هَؤُلَاءِ ضَيَّفُوا فَلَا تَفْضَحُونِ ﴾ (الحجر ٦٨).

﴿ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ (الحجر ٧١).

﴿ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ ﴾ (النحل ٨٩).

﴿ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ﴾
(الكهف ١٥).

﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ﴾ (الأنبياء ٤٤).

﴿ ثُمَّ نَكْسُوْا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴾ (الأنبياء ٦٥).

﴿ لَوْ كَانَتْ هَؤُلَاءِ ءَالِهَةً مَا وَرَدُّوَهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (الأنبياء ٩٩).

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ ﴾ (الفرقان ١٧).

﴿إِنَّ هَتُولَاءِ لَشِرْذِمَةً قَلِيلُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ﴾ (الشعراء ٥٤-٥٥).

﴿وَمَا يَنْظُرُ هَتُولَاءِ إِلَّا صَبِيحَةٌ وَاحِدَةٌ مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾ (ص ١٥).

﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَتُولَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَبَقَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (الزمر ٥١).

﴿وَقِيلَ يَرْبِ إِنَّ هَتُولَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الزخرف ٨٨).

﴿إِنَّ هَتُولَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾ (الدخان ٣٤-٣٥).

﴿هَتَأْتُهُ هَتُولَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْتَخُلُ﴾ (محمد ٣٨).

﴿إِنَّ هَتُولَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ (الإنسان ٢٧).

﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَتُولَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أَرْسَلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾ (المطففين ٣٢-٣٣).

ومن اساليب الإشارة ما اسميه: "الإشارة على الشيوخ". وذلك هو الإشارة إلى غير معين ومن ذلك أن تقول لسامعك مثلاً: إما أن تكون صديقي أو عدوي، اختر هذه أو تلك". فذلك في قوة قولك: اختر أيهما شئت، وهكذا تكون الإشارة على الشيوخ. وقد جاء في سورة الإسراء (٦٦-٧٢) شيء من هذا القبيل. وذلك ما نصادفه في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾. وإليك ما نفهمه من معنى "هذه" و "الآخرة":

١- يَسِّرُ الله للإنسان طلب الرزق في البحر. الله تعالى ينقذ الإنسان من أخطار البحر.

٢- غير أن في ركوب البحر خطراً. ولكن الإنسان يعرض عن شكر الله.

الله قادر على إعادة الإنسان إلى خطر البحر

وقادر على عقابه في البر أيضا.

سيحاسب الله عباده يوم القيامة.

فمن حسن عمله نجا، ومن ساء عمله في أى من هاتين البيئتين بالإعراض عن شكر النعمة فلن ينفعه الشكر للنعمة الأخرى. وهكذا تصلح "هذه" للإشارة إلى أى واحد من المرجعين دون تعيين. وقديما أشار زوج الاثنتين إليهما إشاره على الشيوخ حين قال:

تزوجت اثنتين لفرط جهلى بما يشقى به زوج اثنتين
لهذى ليلة ولتلك أخرى عذاب دائم فى الليلتين
هذه = إحداهما (بلا تحديد). تلك = الأخرى (بلا تحديد).

ونفى التحديد فى الحالتين هو المقصود بمفهوم الشيوخ.

ثالثا: ضمان الغيبة:

سبق أن ذكرنا معنى الغيبة فى الكلام عن اتخاذ فكرة ضمير الشأن فى مقدمة للكلام عن دلالة ضمان الإشارة على ما يسبقها وما يليها، وعددنا هنا صورة أخرى لضمير الشأن. وذلك أن نتناول وسيلة أخرى للدلالة على الغيبة بواسطة ما تكنه "ال" الدالة على الجنس وكذا الدالة على العهد. ولست أريد الكلام هنا عن مطلق الجنس، لأن دلالة "ال" على مطلق الجنس لا تضيف إلى المعنى ظلا مهما. ولكننى أشير إلى نوع من الجنس أسميه: "الجنس النسبى"، لأن مدلول هذه التسمية لا يستقل بالوجود؛ وإنما يوجد منسوباً إلى مفهوم آخر. ففى قوله تعالى: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ (النازعات ٧٩) دل لفظ "النفس" على صاحب النفس، لأن لكل حى نفسا تنسب إليه ويتنسب إليها. ولذلك كانت النفس دالة على جنس من

الأجناس لا يستقل بوجود خاص. ومن ثم كان من قبيل الجنس النسبي الذى يدل على ما نسب إليه. ومنه:

﴿وَلَفَّتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ (الأحزاب ١٠)

﴿أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد ٢٨).

﴿وَلَمْ يَبْطِ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتْ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ (الأنفال ١١).

﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ (النجم ٢٣).

فالقلوب والحناجر والأقدام والظن والأنفس كل أولئك يفهم بالنسبة إلى ذويه، ومن ثم سميت هذا الجنس بالجنس النسبي.

وتبقى بعد ذلك "ال" الدالة على العهد. ولقد سبق بيان معنى العهد بأنه "المعرفة السابقة". وقد يكون السبق سبقا للذكر كما مضى نحو: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ (يوسف ٥٨)، وقد يكون سبقا لمجرد المعرفة الذهنية كما فى قوله تعالى "﴿الْنَّبِىُّ أَوَّلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ (الأحزاب ٦)". ومع أن ذاكرة العهد قد ترتبط بسبق الذكر فتكون "ال" بمعنى "المذكور" أو بسبق المعرفة العامة فتكون بمعنى "المعهود"، فإن فكرة الحضور بالنسبة لهذه الذاكرة أضعف من أن تقاوم فكرة السبق. وبذلك أرى أن المعهود بواسطة "ال" يعد أقرب إلى ضمائر الغيبة منه إلى ضمائر الحضور.

والمعروف أن "ما" و"الذى" من الموصولات. وأن الموصولات من ضمائر الغيبة ولكن الضمائر (كما رأينا فى "أذ" منذ قليل) يمكن أن تتحول إلى معان أخرى كما فى قوله سبحانه: ﴿رَبَّنَا لَا تُرْغِ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ (آل عمران ٨). وهكذا نجد "ما" أداة مصدرية فى قوله جل شأنه: ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ (آل عمران ١١٨) أى عنتكم.

ونجد "الذى" وهى ضمير موصول تعاقب "ما" المصدرية فتقع موقعها فى قوله

سبحانه: ﴿وَحُضِّتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ (التوبة ٦٩) أى كخوضهم. وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ (الأنعام ١٥٤). أى تماما على إحسانه.

والدليل على إرادة المصدرية في الحالتين ما نقرؤه في قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ (الأعراف ١٤٥). إذ نجد في مقابلة النصوص الثلاثة ما يلي:

تماما	يقابلها	من كل شيء
تفصيلا	يقابلها	تفصيلا
الذى أحسن	يقابلها	بأحسنها.

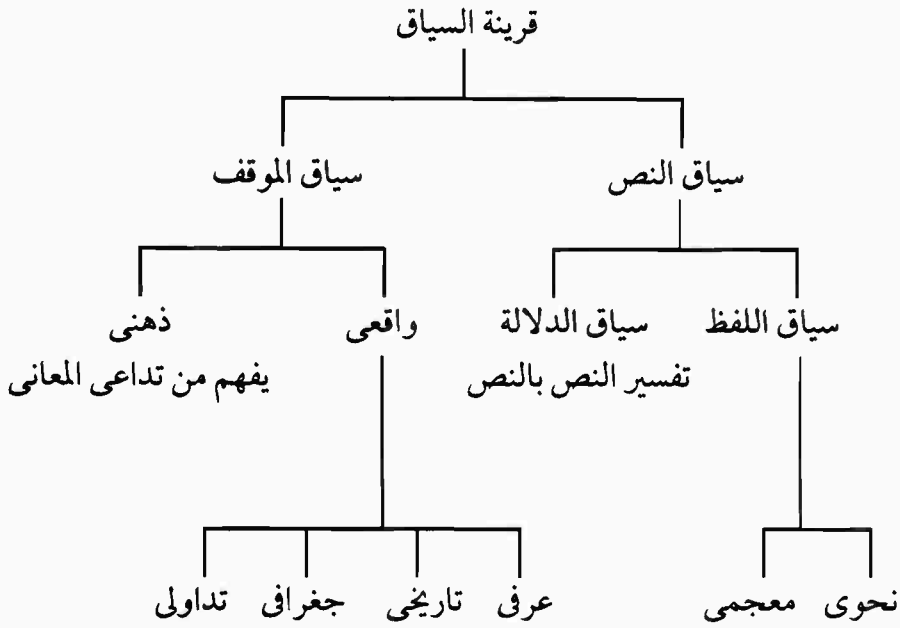
أضف إلى ذلك أن الفرق بين "ما" الموصولة وبين أختها المصدرية أن الاولى يعود عليها الضمير الرابط ولا يعود على الثانية. ومع وجود تقدير الضمير بعد "خاضوا" وبعد "أحسن" نجد الضمير المذكور بعد "خاضوا" يعود على الخائضين، والضمير المفهوم في "تماما على إحسانه" يعود على المحسن.

شواهد قرآنية على دلالة قرينة السياق

المقصود بالسياق التوالى، ومن ثم يمكن أن ننظر إليه من زاويتين: أولاًهما توالى العناصر التى يتحقق بها السياق الكلامى، وفى هذه الحالة نسمى السياق "سياق النص". والثانية توالى الأحداث التى هى عناصر الموقف الذى جرى فيه الكلام، وعندئذ نسمى السياق "سياق الموقف". وهناك علاقة طابعتها العموم والخصوص بين مصطلحين هما: "دلالة السياق" و "قرينة السياق". فالمستفاد من النص فى جميع حالات الإفادة هو "دلالة السياق" سواء كانت هذه الدلالة (كما يقول الأصوليون فى كلامهم عن دلالة المفردات) بواسطة العبارة أم كانت بواسطة الإشارة أو الإيحاء أو الاقتضاء. والدلالة فيما عدا العبارة دلالة على معنى مضاف يلزم عن العبارة أى عن الكلام نفسه. وفى هذه الحالة يدل السياق بالإشارة أو الإيحاء أو الاقتضاء على معنى لم يرد عنه فى النص تعبير صريح. وعندئذ يكون السياق قرينة على هذا المعنى. وهكذا يكون المقصود بقرينة السياق أخص من المقصود بدلالة السياق. ويمكن إذن أن نوجز الأمر على النحو التالى:

بهذا نرى أن سياق النص إما أن يكون قرينة تركيبية (نحوية أو معجمية) أو دلالية (قوامها العلاقات النصية). أما سياق الموقف فإما أن يكون ذا دلالة واقعية أو ذهنية، فالواقعية مبناهما على العرف أو أحداث التاريخ أو مواقع الجغرافيا أو العلاقات العملية فى إطار الموقف الذى وقع فيه الكلام. أما الذهنية فإنها تنشأ عن تداعى المعانى بحيث يثير بعضها بعضاً فى تسلسل منطقي (طبيعي لا صوري).

دعنا إذن نلق نظرة على أنواع قرينة السياق واحدا بعد الآخر:



أولاً - قرينة العلاقة النحوية:

١ - يقول الله تعالى: ﴿ طه ١٠٠ ﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿ طه ١٠١ ﴾ إِلَّا تَذَكُّرٌ لِّمَن يَخْشَى ﴿ طه ١٠٢ ﴾ . المعروف أن "إلا" تأتى لمعنى الاستثناء، ولكن السياق هنا لم يشتمل على مستثنى منه وإنما جعل بين ما سبق "إلا" ما لحقها علاقة استدراك، فكان حتماً في هذه الحالة أن نفهم من "إلا" معنى "لكن"، وذلك بقرينة السياق (سياق النص).

٢ - ويقول تعالى: ﴿ وَإِنْ كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ (يس ٣٢) دخلت "إن" على الاسم ولم يأت بعدها ما يصلح للشرط، فبقى لها إما أن تكون مخففة من الثقيلة لاقترابها باللام في "لما" وزيادة "ما" بعد اللام، فيكون المعنى: "وإن كلا منهم لمحضرون جميعاً"، وإما أ، تكون "إن" للنفي و "لما" بمعنى "إلا". ثم إنه لما كانت الحروف ينوب بعضها عن بعض كان تقدير النية عن "إلا" أخف وقعا من تقدير

زيادة "ما". وبهذا يصبح المعنى: "وما كل إلا جميع لدينا محضرون" وذلك بقرينة السياق. أما تقدير الزيادة فهو يصلح لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُلًّا لَّمَّا لَمَوْفَيْتِهِمْ رَبُّكَ أَعْمَلْتَلَهُمْ﴾ (هود ١١١) وفي هذا الموضع الأخير يكون تكرار اللام للتأكيد، فهو شبيه بتكرار حرف النداء في قول الشاعر:

"ألا يا اسلمى يا دار مى على البلى"

٣- قال الشاعر:

"أنا ابن أبة الضيم من آل مالك وإن مالك كانت كرام المعادن"

فلو جعلنا "إن" في قوله "وإن مالك" نافية لأوقعنا الشاعر في التناقض، لأنه يكون قد مدح قومه بالإثبات في الشطر الأول ثم هجاهم بالنفى في الشطر الثانى، فكأنه يقول: إن قومه أبة الضيم وليسوا كرام المعادن. فلم يبق إذن إلا أن تكون "إن" مخففة من الثقلة ليستقيم السياق.

٤- هناك باب في النحو يسمى: "الإخبار بالذى والألف واللام". والملاحظ في تراكيب هذا الباب أن الخبر قد يقترن بالفاء إذا تحققت له شروط اقتران جواب الشرط بالفاء، ولا يقترن بها إذا لم تتحقق هذه الشروط. انظر إلى الفرق بين قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مِمَّا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى هُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة ٢٦٢).

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْبَلِّ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة ٢٧٤).

فالفرق بين خبر "الذين" في الحالتين أنه لم يقترن بالفاء في الحالة الأولى لأن الآية نزلت في عثمان بن عفان إذ جاء بألف دينار لإنفاقها على جيش العسرة فصحبها في حجر النبي صلى الله عليه وسلم. فهذا عمل وقع فعلاً فلا مجال فيه لمعنى الشرط، ومن ثم لم تكن بيئة الخبر هنا شبيهة ببيئة جواب الشرط، فلم يقترن الخبر بالفاء. أما

في الآية الثانية فإن سبب النزول هو الخض على علف خيل الجهاد فمعنى الشرط واضح فيه لأن من أنفق فله أجره عند ربه.

ومغزى هذا أن "الذين" هي أخت "من" و "و" أي "اللاتى ينتقلن من الموصولية إلى استعمال الشرط فيكون هن شرط وجواب. ولكن "الذين" لا تنتقل إلى استعمال الشرط وإن أشربت معناه أحيانا. فحين يتم إشرابها معنى الشرط كما في الآية الثانية يقرن خبرها بالفاء بالشروط التى تصدق على جواب الشرط. أما إذا لم تشرب معنى الشرط كما في الآية الأولى فلا مجال لإلحاق الفاء بخبرها. وهكذا تكون الفاء قرينة على إرادة معنى الشرط في الجملة الخبرية في هذا النوع من الجمل.

ثانياً - العلاقات المعجمية:

لا يتحقق المعنى بواسطة العلاقات النحوية فقط. فقد يستوفى التركيب كل الشروط النحوية فيصبح صالحاً للإعراب ولكنه مع ذلك يكون صفراً من المعنى. انظر إلى عبارة مثل "تألم الحجر فسلم على البرهان". إذ يمكن أن نعرب هذه العبارة فيكون إعرابها بيانا للعلاقات النحوية بين مفرداتها، حتى إذا حاولنا أن نفهم معناها لم نجد لها معنى يفهم. والسبب في خلو الجملة من المعنى أن بين مفرداتها مفارقة معجمية، لأن الحجر لا يتألم ولا ينطق فيسلم وليس البرهان ممن تلقى إليه التحية. فلقد أسند الفعلان كما يقول البلاغيون إلى غير من هما له. ومعنى هذا أن العلاقات المعجمية تؤدي دور القرينة على المعنى في الكثير من الحالات. وإليك البيان:

١ - في قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ (الأعراف ٢٦) تبرز المفارقة المعجمية في "لباس التقوى"، لأن التقوى لا لباس لها. ومن ثم يصبح المعنى معلقا بالكشف على علاقة معجمية مقبولة بين اللفظين. فإذا بحثنا عن معنى مقبول يمكن أن نفهم منه الإضافة التى بينهما وجدنا أن لفظ "لباس" لا يطلق على الملابس فقط، وإنما يكون مصدرا للفعل "لابس - يلبس - لباسا - وملابسة" أى "خالط". فإذا ربطنا بين اللفظين بواسطة هذا المعنى استقام الفهم. ومنه قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ

لَكُمْ﴾ (البقرة ١٨٧)، وكذلك ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ (النبا ١٠) وقوله تعالى: ﴿فَأَذِقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ (النحل ١١٢) أى ملابستها.

٢ - قال تعالى: ﴿أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَنَعِمْتَهُ﴾ (الأنعام ٩٩) بين الشجر الذى يعود إليه الضمير فى "ثمرة" وبين مفهوم النعم الذى فى لفظ "نعمه" مفارقة، فلا يقال: "شجرة يانعة" ولكن هناك مناسبة معجمية بين الثمر والينع إذ يمكن أن يقال: "ثمرة يانعة". وهذه المناسبة أو العلاقة المعجمية تبرر إعادة الضمير إلى الثمر دون الشجر.

٣ - قال تعالى: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (ص ٣٩). يتحتم تعليق الجار والمجرور "بغير حساب" فى هذه الآية بالمصدر "عطاؤنا" لأن الله سبحانه يعطى بغير حساب. ولا يعقل أن يقال: "أمسك بغير حساب" لما فى ذلك من مفارقة معجمية. وبذلك تكون عبارة "فامنن أو أمسك" على سبيل الاعتراض.

٤ - قال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ (الكوثر ١). وفى "الكوثر الأصول الثلاثة: الكاف والياء والراء، فهى ثلاثية الأصل أضيف إليها الواو لإلحاقها بالرباعى. فالمعنى "إننا أعطيناك الكثير". قال الشاعر:

وأنت كثير يا ابن مروان طيب وكان أبوك ابن العقائل كوثرا

فالإلحاق فى هذا اللفظ للمبالغة والتأكيد. وحتى لو نظرنا إلى أن الكوثر نهر فى الجنة فإن اسم هذا النهر إنما جاء للدلالة على سعته وغازاة مائه، لأن الإلحاق كما ذكرنا يحمل جرثومة المبالغة.

ثالثاً - الجانب الدلائلى:

قد يشتمل النص على قرينة تحدد معنى فيه لولاها لكان ملبسا وقد تقوم علاقة التناص بين نصين أو أكثر فيفسر أحدهما الآخر كما قال المفسرون من أن "القرآن يفسر بعضه بعضاً". فمن النوع الأول ما يلى:

١ - قال تعالى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (الأنعام ١)

وقال جل شأنه: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ (الأعراف ١٨١) فحين أسند الفعل "يعدلون" في الآية الأولى إلى ضمير الذين كفروا وتعلق به الجار والمجرور "بربهم" فهم منه أنهم يجعلون لله عديلاً غيره، وحين أسند الفعل في الآية الثانية إلى أمة يهدون بالحق فهم من لفظ "الحق" معنى "القسطاس". هذا على رغم مجيئ الفعل في الحالتين على صورة واحدة، غير أن كلا من النصين اشتمل على ما يحدد معناه.

٢ - ثمة أنواع من الاستفهام يميز بينها سياق النص:

فهناك استفهام على بابه يقصد به معرفة أمر مجهول كما في قول قوم إبراهيم: ﴿فَعَلْ هَذَا بَالِإِلهِتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنبياء ٥٩). ولهذا جاء الجواب كشفاً عن حقيقة لم تكن معلومة إذ قال من اتجه السؤال إليه: ﴿سَمِعْنَا فَقَدْ يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ (الأنبياء ٦٠) فإذا فهم السامع أن الاستفهام على بابه بادر بالإجابة. ولهذا كان الفرع طابع إجابة عيسى عليه السلام حين سأله ربه: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأَتَى إِلَهِتِي مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ (المائدة ١١٦) إذ أجاب بجمل منفصلة ليس بينها حرف عطف لتكون كل جملة إجابة قائمة بذاتها فتتعدد الإجابات طلباً للإقناع. فقد أجاب عيسى ربه بقوله: ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ (١١٦) ما قُلْتَ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ (المائدة ١١٦).

وقد يكون الاستفهام تقريراً بأن يشتمل بتركيب الجملة الاستفهامية على حرف النفي فتؤول بجملة مثبتة يغلب أن تصدرها اللام وقد أو الفعل "ينبغي" مثل: ﴿أَلَمْ يَحْذَكَ يَتِيمًا فَتَاوًى﴾ (١) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (الضحى ٦ - ٧) أى لقد وجدك، ومثل ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (المائدة ٧٤) أى ينبغي لهم أن يتوبوا ويستغفروا.

وقد يكون الاستفهام إنكاريا لا يشتمل تركيب الجملة فيه على حرف النفي ولكنه يؤول بجملة منفية، مثل: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى﴾ (طه ٨٣) أى ما كان ينبغي أن تعجل. وهذه الآية هى التى دعت إلى إيراد ما سبقها من تقدير. والسبب أن اثنين من أئمة المفسرين لم يشيرا إلى معنى الإنكار فى هذه الآية، ولكن الدليل على هذا المعنى يأتى من النص نفسه كما يلى:

أ - اعتذار موسى عليه السلام عن العجلة بقوله: "وعجلت إليك رب لترضى*" ولو كان السؤال على بابه لكفى للإجابة عنه أن يقول: "هم أولاء على أثرى".

ب - أن الإنكار إنما جاء بسبب ما حدث من ترك موسى لقومه عرضة للفتنة بدليل قوله تعالى: "فلما قد فتننا قومك من بعدل وأضلهم السامرى" أى بلوناهم وأضلهم السامرى. فالفتنة هنا بمعنى الابتلاء كما فى "ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى" وكذلك "وظن داود أنها فتناء" أى أننا ابتليناه وهديناه إلى الخطأ.

ج - رجوع موسى بعد هذا الإنكار إلى قومه غضبان أسفا، فإيراد هذين الوصفين دليل على تعدد مصادر الألم؛ فالغضب منصب على قومه والأسف لما كان من إنكار ربه عليه أن يعجل وفى ذلك مزيج من الحزن والألم.

٣ - قال تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمِ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ (هود ٢٤). تكررت واو العطف ثلاث مرات فى الآية فبدا التركيب فى السمع كأنها يتكلم عن أربعة أفراد هم الأعمى والأصم والبصير والسميع. وعندما يدرك السامع أن فى الكلام علامة الثنية فى "الفريقين" وضمير المثنى فى "يستويان". يدرك أن الكلام يتناول شخصين أحدهما أعمى وأصم والآخر بصير سميع. أى أن العطف كان للصفات لا للأفراد.

٤ - قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران ١٨). فلولا قوله: "قائما بالقسط" على الأفراد وقوله: "لا إله إلا هو" فى آخر الآية لسمح التركيب بصورته

هذه بعطف "الملائكة" على الضمير "هو" (تعالى الله عن ذلك) لا على اسم الجلالة. وهكذا يكون الملائكة وأولو العلم قد شهدوا مع الله أنه لا إله إلا هو.

٥ - قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ (النساء ١٠٣). يصلح القيام والقعود للمصدرية كما يصلحان لجمع قائم وقاعد، ويعربان في هذه الآية حالا على كلا الاحتمالين. ولكننا عند قراءة قوله: "وعلى جنوبكم" نفهم فوراً أن المراد معنى الجمع، أى اذكروه قائمين وقاعدين ومضطجعين ولو كان المعنى على المصدرية لقال: واضطجعوا.

٦ - قال تعالى: ﴿ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ (يس ٣٥). تصلح ما من قوله: "وما عملته" للمصدرية فيكون المعنى "والذى عملته أيديهم". وتصلح للنفي فيكون المعنى "ولم تعمله أيديهم". ولكن الحض على الشكر في ختام الآية يجعل المعنى على النفي، لأن من يأكل شيئاً لم يعمل به يده أحق بأن يتقدم بالشكر لمن أطعمه ممن صنع طعامه بنفسه. أضف إلى ذلك أن ما في سورة النمل من قوله تعالى: ﴿ أَمْنَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ﴾ (النمل ٦٠). فالله سبحانه يمن على عباده أن أنبت لهم حدائق ما كانوا يستطيعون إنباتها مما يوجد نوعاً من التناص بين الآيتين ويحكم بمعنى النفي للفظ "ما" في آية يس.

معنى التعليق:

١ - قال تعالى: ﴿ وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْتَحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ (النحل ٥ - ٦).

عند قراءة هذه الآية يسأل المرء نفسه أين يقف أثناء القراءة في الجملة الأولى. هل يقف على لفظ "خلقها" أو على الجار والمجرور "لكم"؟ ففي الحالة الأولى تكون الجملة التالية "لكم فيها دفء"، أما في الحلة الثانية فإن الجملة التالية تكون "فيها دفء". فإذا استمر المرء في القراءة صادف جملة بعد ذلك مباشرة تشبه بنية الجملة في

حالة الوقف الأول مثل: "ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون". عندئذ يدرك القارئ بواسطة اتساق المعنى أن هذه الآيات تقرأ على الصورة التالية: "والأنعام خلقها - لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون - ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون". ويصبح المعنى بذلك أن الله خلق الأنعام ليكون لنا فيها دفء ومنافع ومأكلاً وجمالاً.

٢ - قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ (الكهف ٥٨). عند النظر في هذه الآية نجد بها مبتدأ هو "ربك" ونجد الخبر يخضع لثلاثة احتمالات:

أولها "الغفور" وبعده وصف الخبر بالرحمة ثم جملة مستأنفة هي "لو يؤاخذهم... الخ"

والثاني أن يكون "الغفور" صفة للمبتدأ ويكون الخبر "ذو الرحمة" وبعده جملة مستأنفة.

والثالث أن يكون "الغفور" و "ذو الرحمة" نعتين للمبتدأ ويكون الخبر هو "لو يؤاخذهم... الخ". والذي يؤيد هذا المعنى الأخير هو اتساقه مع الآية التي تسبق ذلك مباشرة والتي فيها ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ (الكهف ٥٧).

٣ - قال تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِّنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٢٦) وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِّنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدٌّ مِّنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِّنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَٰذَا وَأَسْتَغْفِرِي لِدُنْيَاكَ إِنَّا كُنَّا مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩) (يوسف ٢٦ - ٢٩). رأى القرطبي أن المقصود بالعزير هو الملك وأن الشاهد الذي هو من أهلها فيه أربعة أقوال: أحدها أنه طفل في المهد تكلم، والثاني أن القميص قد بما فيه من لسان الحال (ويمنعه قوله: "من أهلها")، والثالث أنه خلق من خلق الله تعالى ليس بإنسى ولا

جنى (ويمنعه أيضا قوله: "من أهلها")، والرابع أنه رجل حكيم ذو عقل يستشيره في أموره وكان من جملة أهل المرأة وكان مع زوجها. والقرطبي بعد ذلك كلام طويل لا يخرج عن هذا الإطار. ولا يخرج كلام صاحب البحر المحيط عن ذلك. ولنا أن نلاحظ الأمور الآتية:

أ - قوله تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا آلِ بَابٍ﴾ (يوسف ٢٥).

ب - نداء الرجل موجهًا إلى يوسف: "يوسف أعرض عن هذا" أى لا تذكر للناس شيئًا عن ما حدث.

ج - مطالبة المرأة بالاستغفار عن ما حدث.

د - أن الزوج لم يكن هو الملك، لأن حديث يوسف إلى الملك يأتى بعد ذلك بقليل ولأن الملك لم يكن يعرف يوسف حتى كلمة ثم "قال إنك اليوم لدينا لمكين أمين".

هـ - أكبر احتمال أن منصب العزيز كان يساوى بالمقاييس الحاضرة كبير الشرطة أو وزير الداخلية. فكان له قدرة على استخراج النتائج من القرائن.. وله قدرة على عقاب يوسف.

بناء على ما تقدم يمكن القول إن الشاهد لم يكن غير العزيز نفسه. فحين لحق يوسف بالبال وفتح "ألفيا سيدها لدى الباب" فلما نظر العزيز إلى دلائل الانفعال في حالتي يوسف والمرأة سأل عن السبب فتضاربت أمامه الأقوال فلم يكن لديه بد من أن يتولى فهم الموقف بنفسه، فدار في نفسه الكلام الذى نسبته الآية إلى الشاهد. ولما تبين له الأمر أمر يوسف بكتمان القصة وأمرها بالاستغفار. وما كان لطفل فى المهد ولا لخلق من خلق الله ليس يأنسى ولا جنى ولا لحكيم أن يقول لامرأة فى محضر زوجها: "إنك كنت من الخاطئين". فالشاهد الذى هو من أهلها لم يكن غير زوجها.

٤ - قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَأَ هُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ لَيْسَجُنُّهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾

(يوسف ٣٥). ما السبب في هذا البداء بعد أن رأوا آيات براءته؟ لم يقل أحد من المفسرين شيئاً عن سبب ذلك.

غير أننا نذكر أن العزيز طلب من يوسف أن يكتُم خبر المراودة وأن يعرض عن ذكره لأى أحد. ولكن الخبر شاع في المدينة ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتْنَهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ (يوسف ٣٠)، فوَقَر في نفس العزيز أن يوسف لم ينفذ وصيته بالكتمان. وهكذا رأى أن يتدخل في المسألة بإلقاء اللوم على يوسف سترًا لنفسه ولأهل بيته، ورأى أن إلقاء اللوم على يوسف بإدخاله السجن سيقنع الناس بأن يوسف هو المذنب. ومن ثم أرسل به إلى السجن وهو برىء، وأعاناه على ذلك منصبه في السلطة.

٥ - قال تعالى: ﴿وَقَالَ يَبْنَئِي لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ (يوسف ٦٧). يقول القرطبي: "لما عزموا على الخروج خشى عليهم العين فأمرهم ألا يدخلوا مصر من باب واحد وكانت مصر لها أربعة أبواب. وإنما خاف عليهم العين لكونهم أحد عشر رجلاً لرجل واحد. وذلك ما قاله أيضاً صاحب البحر المحيط. ولكن أتى للعين أن تصيب جماعة من البدو خرجت بهم الحاجة إلى الطعام من مضاربهم إلى بلد فيه سمات الغنى والحضارة وفيه الميرة والطعام، وكيف يعرف الناس أن هؤلاء إخوة من رجل واحد؟ لقد قال يعقوب لأبنائه قبل ذلك بقليل: "لنأتننى به إلا أن يحاط بكم" أى أنه كان يخشى عليهم أن يؤخذوا بعد أن عوملوا معاملة قاسية في المرة السابقة باتهامهم بالسرقة، فكان تديره أنهم إذا كانوا مجتمعين فأصابعهم ضرر أصابعهم جميعاً، أما إذا تفرقوا فدخلوا من أبواب متفرقة فإن أحيط بالبعض نجا البعض الآخر. أضف إلى ذلك أن ما ساوره من الشك في عودتهم سالمين علمه بأن يوسف (الذى لا يعرف من يكون)، أصر على إحضار أخيهام قائلاً لهم: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِي بِهٖ فَلَا كَمَل لَّكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ (يوسف ٦٠).

رابعاً - السياق الواقعي:

أقصد بالسياق الواقعي اعتماد الفهم على العرف السائد أو على التاريخ أو على الجغرافيا أو على العلاقات السائدة بين عناصر الموقف الذي تم فيه الكلام. وسنحاول فيما يلي أن نكشف عن كل من هذه الملابسات ونبدأ بقرينة العرف.

أولاً - العرف:

١ - حين نقرأ قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَّغُوا عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ (النور ٣٣) نحتاج إلى معرفة عادات بعض السادة من العرب لثلاث نظن أن المقصود بالفتيات بناتهم من أصلابهم. فلقد كان مما يستسيغه بعض السادة كعبد الله بن أبي أن يكره جواريه على التكسب بالبغاء ليحصل هو على هذا الكسب، وعلى ما يكون نتيجة للزنى من ولد. وكانت له جاريتان يرغمهما على ذلك فشكتهما إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فكان ذلك من أسباب نزول الآية. كما أن المشهور من نتائج هذا العرف أن زياد بن أبيه نسب إلى أبي سفيان في عهد معاوية لينتصر به معاوية على علي بن أبي طالب، وأن عمرو بن العاص ألحق بأبيه عن طريق القيافة فيما يروى.

٢ - وحين نقرأ قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ (الأحزاب ٣٣) نلتمس ما يدلنا على تبرج الجاهلية الأولى وكيف كان، فإذا رجعنا إلى القرطبي وجدناه يروى عن ابن عطية ما يأتي: "والذي يظهر عندي أنه أشار للجاهلية التي لحقنها (أي نساء النبي) فأمرن بالنقلة عن سيرتهن فيها وهى ما كان قبل الشرع من سيرة الكفرة؛ لأنهم كانوا لا غيرة عندهم؛ وكان أمر النساء دون حجاب. وجعلها أولى بالنسبة إلى ما كان عليه وليس المعنى أن ثم جاهلية أخرى". بهذا نعلم أن الجاهلية الأولى ليست جاهلية عاد وثمود أو غيرهما.

٣ - وقوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ نَجْدَةٍ وَلَا سَآئِرَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامِرٍ﴾ (المائدة

(١٠٣) إشارة إلى نوع من الأنعام كان يهمل فلا ينتفع به رعاية لتعظيم الأصنام فيما يزعمون. فالبحيرة لا تحلب إلا للطواغيت، والسائبة التي ولدت عشر إناث متواليات ليس بينهم ذكر، والوصيلة من الغنم إذا ولدت أنثى بعد أنثى سبيوها، والحام فحل الإبل إذا انقضى ضرابه جعلوا عليه ريش الطواويس وسيبوه.

- وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً﴾ (الأنفال ٣٥) إشارة إلى عادات الجاهلية. يروى القرطبي عن ابن عباس أن قريشا كانت تطوف بالبيت عراة يصفقون ويصفرون فكان ذلك عبادة في ظنهم. بهذا ندرك أن العرف جزء من سياق الموقف وبالتالي قرينة على معنى السياق.

ثانياً - التاريخ:

أما قرينة التاريخ فإنها يعتمد عليها فهم النص عندما يفتر هذا الفهم إلى الإمام بأحداث بعينها وقعت في الفترة التي يشير إليها النص. فإذا نظرنا مثلاً إلى بعض آيات سورة التوبة التي تشير إلى طوائف من الناس دون أن تحدد أسماءهم ثم قرأنا أسماء هؤلاء في كتب السيرة النبوية عرفنا قيمة العلم بالحدث التاريخي في فهم النص. دعنا ننظر مثلاً في نصوص الآيات التالية من سورة التوبة:

١ - ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَذِبِينَ﴾ (٤٣).

٢ - ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أَتَذُنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي﴾ (٤٩).

٣ - ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ﴾ (٥٨).

٤ - ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ (٦١).

٥ - ﴿يَحْذَرُ الْمُتَنَفِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ (٦٤).

٦ - ﴿تَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ أُولَاؤِ لِمَا لَمْ يَتْلُوا﴾ (٧٤).

٧ - ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عِنْدَ اللَّهِ لَيْسَ أَتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنُصَدِّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٧٥).

٨ - ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلَفَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ (٨١).

٩ - ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ (٩٠).

١٠ - ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ (١٠١).

١١ - ﴿وَأَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ (١٠٢).

١٢ - ﴿وَأَآخَرُونَ مُرْجُونَ لَأَمْرِ اللَّهِ﴾ (١٠٦).

١٣ - ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِزْوَادًا لِّمَن حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ (١٠٧).

١٤ - ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا﴾ (١٢٧).

فهذه الآيات كلها تحمل إشارات عامة إلى طوائف من الناس إما بواسطة الضمائر أو الصفات ثم يعتمد فهم هذه الإشارات العامة على معرفة الوقائع التي تشير إليها الآيات بالتفصيل من كتب السيرة والتفاسير. أما بدون ذلك فستظل النصوص غامضة الدلالة. ومن الآيات ذات القرينة التاريخية أيضاً:

- ﴿الَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ (الفيل ١).

- ﴿كَذَّابٌ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ (آل عمران ١١).

- ﴿تَبَّتْ يَدَاؤِ لَهْمٍ وَتَبَّ﴾ (المسد ١).

- ﴿وَجِئْتِكَ مِنْ سَبِيلٍ يَبِينِ﴾ (النمل ٢٢).

ثالثاً - الجغرافيا:

وهي تقترن عادة بحدث تاريخي ولها أمثلة كثيرة في آيات القرآن الكريم. ومن ذلك ما يلي:

١ - يقول الله تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْبِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأُبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ۝ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ۝ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّهُ عَلَىٰ يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَحْوَتِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَأْتِيَتِ اسْتَنْجِرُهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَنْجَرْتُ الْقَوَى الْأَيْمَنُ ۝ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنِكَحَكَ إِحْدَى ابْنَتَي هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ۝ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ۝ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ۝ (القصص ٢٣ - ٢٩).

يؤخذ من هذه الآيات ما يشير إشارة تلزم عنها إلى مواقع جغرافية وقعت فيها الأحداث. ومن ذلك ما يلي:

أ - يؤخذ من قوله تعالى: "فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا" مع افتراض أن موسى لابد أن يسير في اتجاه يباعده بينه وبين فرعون أن اتجاهه كان إلى الشرق.

ب - فإذا كان الطور شرقي ماء مدين فلا بد من أن يكون ماء مدين في نقطة ما بين وادي النيل وجبل الطور. (في شبه جزيرة سيناء مثلاً لأن التخوم الصحراوية الشرقية الواقعة بين وادي النيل وخليج السويس لم تكن مأهولة بالبدو أيام الفراعنة).

ج - على الجانب الشرقى لخليج السويس فى طريق الذهاب إلى الطور موضع فيه عدد من الآبار يعرف الآن باسم: عيون موسى. وأكبر الظن أنه هو المقصود بماء مدين وأنه أخذ هذا الاسم من هذه القصة.

٢ - قال تعالى: ﴿وَأَنكُمُ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ۖ﴾ (الصافات ١٣٧) والمقصود بالضمير من "عليهم" قوم لوط أى قريتهم التى دمرت فأصبح عاليها سافلها. والمعروف أن هذه القرية كانت فى مكان ما من صحراء الشام قريبة من بصرى على طريق رحلة الصيف لأن هذه الرحلة كانت إلى الشام كما كانت رحلة الشتاء إلى اليمن. وإذا كان السير فى وقت الظهيرة فى الصحراء شاقاً فإن السير يكون فى وقت الصباح لا وقت الظهيرة. وفى ذلك إشارة إلى أن هذه الرواية كانت لموقع فى الصحراء.

٣ - قال تعالى ﴿وَتَنحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ﴾ (الشعراء ١٤٩). إن كل من يعرف شيئاً عن مدائن صالح فى شمال الساحل الغربى للمملكة العربية السعودية لابد أن يفهم ما تقصه الآيات عن رسالة صالح إلى ثمود، ويتصور كيف بنى هؤلاء الناس من الجبال بيوتاً. فالموقع الجغرافى بما فيه عون على فهم مجرى السياق.

٤ - قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَنْقُومِ آلِهَتِي مِثْلُكَ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (الزخرف ٥١). المعروف أن فى مصر نهر النيل. ومن عرف أن مصر بها نهر واحد هو نهر النيل وقرأ كلمة "الأنهار" قد يتساءل عن استعمال لفظ الجمع. فإذا عرف أن للنيل دلنا كانت قديماً ذات عدد من الأفرع، وأضاف إلى ذلك فرعاً من النهر كان يتجه إلى القلزم (السويس) عرف السر فى استعمال فرعون لصيغة الجمع.

رابعاً - التداولية:

المقصود بالتداولية دلالة عناصر الموقف الذى حدث فيه الكلام، من متكلم وسامع ونص ما قيل ومن أثر تركه فى بيئة الاتصال ونحو ذلك. كل أولئك يعين

على فهم دلالة النص ويتحتم الاعتماد به عند محاولة فهم ما قيل. ذلك بأن تركيب اللغة تسمح أحياناً باللبس؛ بمعنى أن عبارة مثل "ما هذا" قد يفهم منها الاستفهام على بابه كما يفهم منها الإنكار، وقد نتردد عند سماع عبارة "زيارة الأصدقاء تسعد النفس" قبل فهم من الزائر ومن المزور. فإذا كان النطق بالعبارة مصحوباً بسماع نغمة الكلام في الحالة الأولى وبرؤية الزائر في الحالة الثانية زال اللبس وحدث الفهم. وسماع ورؤية الزائر هما ذواتا طابع تداولي.

العلاقة الذهنية:

المقصود بالعلاقة الذهنية ما يدعو الذهن إلى صرف المعنى عن ظاهر النص إلى فهم آخر لولاه لتعذر قبول النص لما يترتب على الظاهر من مفارقة عقلية. وفيما يلي شواهد على ذلك:

- ١ - قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران ١٠٢). ظاهر النص نهى عن الموت إلا في حالة خاصة، ولكن الموت والحياة بيد الله ولا خيار لامرئ فيها فينهى عن أحدهما. وما دام الأمر كذلك فإن ظاهر النص يستعصى على القبول العقلي. ومن هنا يبدأ العقل عمله في التوفيق بين الظاهر والقصد فينتهي الأمر إلى أن المقصود ليس هو النهى عن الموت وإنما هو التمسك بالإسلام حتى الموت.
- ٢ - قال تعالى: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ (آل عمران ١٩٨). ليس في النحو ما يمنع أن تكون "ما" في هذا الشاهد نافية. ولكن ذلك يمتنع بقريتين إحداهما دلالية هي ما سبق ذلك من قوله تعالى: ﴿لَيْكِنَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ هُمْ جَنَّتْ نَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نَزْلاً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ (آل عمران ١٩٨). فالذى عند الله من الرضوان خير من هذه الجنات. والقريئة الثانية ذهنية؛ إذ لا يعقل أن يحجب الله الخير عن الأبرار من عباده ويحول دون وصوله إليهم.

- ٣ - قال تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ (الرعد ١١). ليس في النحو أيضاً ما يحول دون تعليق الجار والمجرور "من أمر الله"

بالفعل "يحفظونه" ولا سيما أنه أقرب إلى الجار والمجرور مما عداه من عناصر النص ولكن العقل هو الذى يحول دون ذلك لأن أمر الله (أى قضاءه وقدره) لا يحفظ منه شئ ولا تحفظ منه المعقبات المذكورة فى النص. هنا يتدخل العقل من أجل استنباط المعنى المقصود فيتهدى إلى إدراك أن الجار والمجرور صفة للمعقبات؛ أى (له) معقبات من أمر الله يحفظونه من بين يديه ومن خلفه).

٤ - قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَفِذُنْ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ۚ وَلَوْ دَخَلْتَ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْنَهَا وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا إِلَّا يَسِيرًا ۝ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلُّوهُ إِلَّا دَبْرًا وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ۝ قُلْ لَّنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُمْ مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝﴾ (الأحزاب ١٣ - ١٦). يروى ابن عباس أن اليهود قالت لعبد الله بن أبى بن سلول وأصحابه من المنافقين: ما الذى يحملكم على قتل أنفسكم بيد أبى سفيان وأصحابه؟ ومن ثم استأذن بنو حارثة بن الحارث ومعهم فى رواية النقاش بنو سلمة فى العودة إلى المدينة. وهما الطائفتان اللتان همتا أن تفشلا فى غزوة أحد. قال الضحاك: ورجع ثمانون رجلاً بغير إذن. هنا يمكن للعقل أن يعمل على الاختيار بين تعليق الجار والمجرور (من الموت) إما بالمصدر (الفرار) أو الفعل (فررتم). فإذا اعتمدنا على رواية الضحاك يكون الفرار قد وقع فعلاً فيتعلق الجار والمجرور بالفعل، والمعنى: أن فررتم كما حدث منكم فلن ينفعكم الفرار. أما إذا لم نعتمد على رواية الضحاك فزعمنا أن الفرار لم يقع فإن الجار والمجرور يتعلق بالمصدر (الفرار) دون الفعل ويكون المعنى: لن ينفعكم الفرار من الموت أو القتل إن فررتم. وعندئذ يكون عن المبدأ المعبر عنه بالمصدر لا عن واقعة وقعت فعلاً.

هذا هو المقصود بالعلاقة الذهنية. وبهذا نرى أن القرائن ذات النفع الجزئى ينتفع بها فى سبك التركيب، ولكن قرينة السياق هى القرينة الكبرى التى تعين على الإلمام بالمعنى الكلى للسياق، وعلى الترابط المفهومى للنص.

الصحة والجمال فى النص القرآنى

حين تصدى النحاة العرب لدراسة اللغة العربية كانت الغاية التى يسعون للوصول إليها هى إنشاء نظام طابعه الاطراد، وكان التصنيف خطوتهم الأولى إلى هذه الغاية، وكانت ملاحظة أوجه الاتفاق والاختلاف سبيلهم إلى التصنيف، فجعلوا الاتفاق علاقة تحكم مفردات الصنف الواحد وجعلوا الاختلاف فارقاً بين باب وباب، ثم وصلوا إلى قواعدهم التى نسبوها إلى الاطراد.

أما إذا لم يتحقق الاطراد المطلق لقاعدة ما فإنهم خصصوا هذا الإطلاق بقاعدة فرعية شرطها أمن اللبس كما سنرى بعد قليل. والمعروف أن الاتفاق والتشابه يؤدي إلى تعدد الاحتمالات المؤدى إلى اللبس، وأن الاختلاف والفروق تؤدي إلى الوضوح وأمن اللبس. ومن تراكيب اللغة ما تتعدد احتمالاته فيلحق به اللبس. فلو قلت مثلاً: "غادرته غاضباً" لوجدت فى "غادرته" ضميرين يصلح كل منهما أن يكون صاحب الحال "غاضباً"، ولا توجد قرينة تدل على غضب أحدهما دون الآخر ومن هنا كان التركيب ملبساً. أما إذا قلت: "غادرته يتميز من الغضب" فإن بنية جملة الحال تربط هذه الجملة بضمير الغائب فيعرف السامع عندئذ من هو صاحب الحال بواسطة المطابقة فى معنى الغائب.

كان على النحاة من ثم أن يكشفوا عن القرائن الدالة على المعنى النحوى لكل باب من أبواب النحو، وأن يسيروا إلى كل منها فى نطاق النظام النحوى فى جملته، وهكذا أشاروا إلى القرائن التالية:

١ - قرينة التضام: (ويقع تحتها الافتقار والاختصاص والاستغناء والمناسبة المعجمية).

٢ - الرتبة: (وهى إما محفوظة وإما غير محفوظة تسمح بالتقديم والتأخير).

٣ - الربط: وتحتة أمران:

أ - المرجعية (وتشمل إعادة الذكر وإعادة المعنى وعود الضمير والإشارة والموصول والصفة) (*).

ب - المطابقة (فى الشخص (المتكلم إلخ) والنوع (التذكير إلخ) والعدد (الإفراد إلخ) والتعيين (التعريف إلخ) والإعراب).

٤ - العلامة الإعرابية: وهى تكون أصلية على المفرد المتمكن الصحيح الآخر وفرعية على المثنى والجمع السالم ومعاقبة مع المقصور والمنقوص والمبنى وما يحل محل المفرد (أى يعاقبه).

٥ - البنية: والمقصود اشتراط صيغة صرفية معينة لعنصر نحوى معين كاشتقاق للحال والجمود للتمييز.

٦ - الأداة: كالأدوات الداخلة على الجمل، والحروف الداخلة على المفردات لإفادة معنى.

٧ - دلالة السياق:

وهى قرينة تركيبية الطابع تفهم فى نطاق القرائن السابقة وفى نطاق العلاقات والموقف. كدلالة "إلا" على الاستدراك دون الاستثناء فى قوله تعالى: ﴿وَطَهُ ۥ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ۖ إِلَّا تَذَكُّرٌ لِّمَن يَخْشَىٰ ۖ﴾ أى لكن تذكرة لمن يخشى، ودلالة "إن" على النفى دون الشرط وذلك فى قوله جل شأنه: "إن أنت إلا نذير"،

(*) انظر البيان فى روائع القرآن لصاحب المقال ١٢٢-١٢٨.

ودلالاتها على التأكيد في: "وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله". في ضوء هذه المعطيات كان النحاة يحكمون على التراكيب بالصحة والخطأ، غير أن اللغة أوسع من نحو النحاة، لأن هموم الاستعمال اللغوي ليست نحوية فقط، إذ هناك مثلاً الجانب الأسلوبى الذى يقحم فى التركيب عدولاً عن أصل الاستعمال بواسطة الزيادة أو الحذف أو التضمنين أو التغليب أو الترخيص فى القاعدة أو المجاز أو غير ذلك من مظاهر الشجاعة الأسلوبية التى تتحدى الأطراد فى قواعد النحاة. انظر مثلاً إلى قول الشاعر:

ألا يا اسلمى يا دار مى على البلى ولا زال منهلاً يجـرعائك القطر

وتأمل كيف قدم الدعاء بالسلامة للدار بعد البدء فى ندائها ثم عاد فنادها بتكرار حرف النداء، وجعل ذلك أسلوباً للتعبير عن حرصه على سلامة الدار، ولو قصد غير ذلك لكان له مندوحة أن يقول: "ألا فاسلمى يا دار مى على البلى" ولكان حرف النداء واحداً غير مكرر. ولعل هذا التركيب الشعرى يلقى بعض الضوء على تكرار اللامين والفصل بين اللامين بـ "ما" الزائدة وتشديدها فى إحدى القراءتين للتعبير عن زيادة تأكيد المفهوم من تكرار اللام، وذلك فى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنَّا لَمَّا لِيُؤْفِقَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ﴾ (هود: ١١١). فتكرار اللام فى الآية شبيه بتكرار "يا" فى بيت الشعر، وإقحام "ما" بين اللامين شبيه بإقحام الفعل "اسلمى" بين حرفى النداء.

والقرآن الكريم نزل بلسان عربى مبين قبل أن يكون ثمة نحو أو نحاة. ففيه زخم اللغة الذى يتمثل فى صور العدول عن الأصل للوصول إلى أغراض أسلوبية. وفى القرآن قراءات مختلفة وصف بعضها بالشذوذ عن قواعد النحو، ولكن قبول هذه القراءات الشاذة كان مشروطاً بموافقتها للعربية (أى النحو) ولو بوجه من وجوه التأويل إلى أصل من الأصول. من هنا يتضح أن قضية الصحة قضية نحوية أولاً ثم لا تكون أسلوبية إلا عند تعلق الأسلوب بصورة التركيب كما

رأينا منذ قليل. وقد تتحقق الصحة في التركيب دون أن يتحقق المعنى لعدم وجود القرينة السياقية وهي كبرى قرائن النحو كما في قول المجنون ابن جندب:

محكوكة العينين معطاء القفا كأنما قدت على متن الصفا
ترنو إلى متن شرك أعجفا كأنما ينشرفيه مصحفا

فالبيتان لا يدلان على معنى محدد لأنها لا يحملان دليلاً على المعنى من شيء قليل فيه، ولا تتسم علاقة المفردات فيهما بالمناسبة المعجمية، وليس للضمائر فيهما مراجع محددة. هذا من الناحية النحوية أما من الناحية البيانية فلا يتضح فيهما المشبه والمشبّه به ولا علاقة الشبه. من أجل هذا خفي المعنى على رغم صحة الرصف النحوي.

والمعروف أن هناك ما يسمى بالحقول المعجمية، وقد اشتهر منها لدى علماء الأنثروبولوجيا حقلان هما حقل ألفاظ القربات (جد، أب، عم، إخ) وحقل الألوان (أبيض، أسود، أحمر، إخ). ولكن الأمر في الواقع أوسع من ذلك وبخاصة إذا نظرنا إلى المناسبة المعجمية بين ألفاظ الجملة وهي جزء من قرينة التضام. فلو أخذنا ما في الأفعال من معنى الأحداث لوجدنا الحدث المعين يتطلب فاعلاً مشروطاً بمناسبة معناه الأصلي لهذا الحدث. فلو سمع أحدنا قائلاً يقول في بداية كلامه: "فهم...." لكان به إرهاب بأن هذا الفاهم لابد أن يكون عاقلاً، فإذا أسند المتكلم الفعل إلى الحجر مثلاً كان لدى السامع أحد خيارين:

- ١ - أن يعتقد فساد المعنى.

- ٢ - أن يصرف الجملة إلى المجاز، فيكون المعنى. أن هذا الفاهم يشبه الحجر ذلك المشبه بالحجر.

ذلك أن لفظ الحجر نقل من معناه الأصلي إلى معنى آخر بعلاقة المشابهة بين جمود الحجر المشبه وقرينة كون الحجر الحقيقي لا ينسب إلى الفهم. أما إذا

سمعت قائلاً يقول: "تدحرجت إلى فوق" فإنك تحكم بفساد المعنى وإن كان رصف الجملة سليماً من الناحية التركيبية، وذلك كحكمك على فساد ما قاله المجنون ابن جندب منذ قليل على رغم صلاحية العبارتين للتحليل الإعرابي.

والمعاني ثلاثة أنواع كبرى تخضع للتفريع: أولها المعنى العرفي الذي هو شركة بين الناس في المجتمع، وذلك كالمعنى المعجمي للمفردات والنحوى للتركيب، ثم المعاني التى تفهم من أضواء المرور وطقوس الاحتفال وثياب الحداد... إلخ. وثانيها المعنى العقلى أو الذهنى أو المنطقى وهو الذى يرتب النتائج على المقدمات فيصل بذلك إلى الإفهام والأحكام من خلال النشاط الذهنى، ومن ذلك نشاط الكشف عن مرتكبي الجرائم وإدراك مفهوم المخالفة عندما يكون مقصوداً من الكلام. وثالثها المعنى الانطباعى الذى هو ثمرة المؤثرات الحسية كالذى نحسه عند النظر إلى الصورة الزيتية أو سماع الصورة البيانية أو عند سماع الموسيقى أو الشعر أو التمثيلية المسرحية. كل أولئك يعد من قبيل التأثير بالأسلوب، ومن قبيل هذا التأثير ما توحى به الصورة التى عبر عنها قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْتَسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٧٣) ففى الآية أسلوب لغوى ينسب إلى هؤلاء الفقراء صفات تبعث الشفقة عليهم والإكبار لهم، وفيها أسلوب تشكيلى يرسم لهم صورة يسهل معها أن نعرفهم بسيماهم. والإحساس بالشفقة والإكبار وكذلك المعرفة بواسطة الهيئة البادية للعيان كل أولئك من قبيل المعانى الانطباعية.

ولعل الفارق الأساسى بين العلم والفن أن العلم أكثر اعتماداً على المعانى الذهنية وأن الفن أكثر تعويلاً على المعانى الانطباعية. ففى العلم استقراء وفرض وتحقيق فرض ونتيجة وقياس إلخ. أما الفن ففيه خيال وإلهام وإيحاء وموقف

ذاتى، وربما لجأ إلى الترخص فى مطالب العقل والمنطق. ولو رجعنا إلى فضل تأمل للآية الكريمة السابقة لوجدنا نوعين من الانطباع بموقف هؤلاء الفقهاء: فلقد ظنهم الجاهل أغنياء بسبب التعفف عن السؤال، ومن ثم لم يستوعب المعنى الانطباعى على صورته الحقيقية، أما الحاذق الصادق النظرة فقد عرفهم بسيماهم ولم ينخدع بالتعفف. وهكذا اتحدت الصورة واختلف إدراك معناها الانطباعى.

خلاصة القول أن للاستعمال اللغوى جانبين أحدهما جانب الصحة والثانى جانب الجمال. فأما جانب الصحة فيتعلق بالمعنى العرفى، وأما جانب الجمال فيتعلق بالمعنى الانطباعى. الأول يقوم على شروط التركيب، والثانى يقوم على تأثير الانطباع، الأول يتحقق بمطابقة العرف اللغوى والثانى يتحقق بحساسية الذات المعبرة والمتلقية. وسوف نحاول فيما يلى من هذا المقال أن نلقى الضوء على موقف القرآن الكريم من صحة العبارة، وموقفه من جمال الأسلوب والتماس الجمال فى الوسائل اللغوية المختلفة:

أولاً: موقف القرآن الكريم من صحة العبارة:

جرد النحاة قواعدهم بملاحظة المسموع من كلام العرب ثم قاسوا السياق بعد ذلك على هذا المسموع. ولقد أرادوا للاطراد والقياس على المسموع أن يكونا من ضروريات النحو العربى. ولكن اللغة أرحب ساحة وأكثر مرونة من أن تخضع للاطراد الصارم ومعايير القياس، ومن هنا رأينا فى المسموع والمقيس كليهما من المخالفة لشروط التركيب ما أضطر النحاة إلى التغاضى والقبول أو إلى التأويل سعيًا إلى الاطراد.

وتتمثل تلك المخالفة فى مجالات مهمة مثل:

- ١ - الأساليب العدولية التى يقاس عليها.
- ٢ - القواعد الفرعية.
- ٣ - الترخص فى قرائن المعنى عند أمن اللبس.

فأما الأساليب العدولية (أى التى هى عدول عن أصل القاعدة) فمنها الحذف والزيادة والنقل والتضمن والتغليب والفصل والاعتراض، وإنما كان قبول النحاة لهذه الظواهر التركيبية يرجع إلى عدم إيصال التركيب إلى اللبس. فلا حذف إلا بدليل يحول دون اللبس، والزيادة تعرف يكون الزائد ليس عمدة ولا فضلة وأن الجملة تفيد معنى بدونه، والنقل يكون ظاهرة نحوية كنقل المصدر والفعل ونحوهما إلى العلمية ونقل المبهمات إلى الظرفية وكون التمييز منقولاً عن الفاعل أو المفعول وهلم جرا، قد يكون ظاهرة بلاغية بيانية كالمجاز المرسل والاستعارة والكناية ونحو ذلك. ويتضح التضمن من اكتساب المضمن علاقات ما تضمن معناه فى الجملة، فالفعل قد يكون متعدياً نحو "استحب" ولكنه حين يضمن معنى "فضل" يتعدى بحرف الجر على نحو: ﴿ فَاسْتَحَبُّوا آلَ عَمَىٰ عَلَىٰ أَهْلِيهِ ﴾ (فصلت: ١٧) أى فضله فيعرف وقوع التضمن بتغيير العلاقة مثلاً. والتغليب اختصار مقصودين بذكر أيسرهما نطاقاً كالعمرين أو أولاهما بالذكر كالأبوين بتغليب الأب والوالدين بتغليب الوالدة. ويعرف الفصل بموقعه والاعتراض بما يحدثه من فجوة فى السياق. ولوضوح المعنى بهذه الأدلة عليه لم يكن لدى النحاة ما يدعوهم إلى وصف هذه الأساليب بالشذوذ.

وأما اشتراط أمن اللبس فقد كان سبباً فى نشأة القواعد الفرعية التى تعد استثناء من القواعد العامة. وحسبنا عند إرادة الإيجاز أن نذكر قول ابن مالك فى بيان هذه القواعد المشروطة بأمن اللبس:

ولا يجوز الابتداء بالنكرة ما لم تفد كمند زيد ثمرة
والأصل فى الأخبار أن تؤخرا وجوزوا التقديم إذ لا ضررا
وحذف ما يعلم جائز كما تقول زيد بعد من عندكما
وفى جواب كيف زيد قل دنف فزيد استغنى عنه إذ عرف

وربما استغنى عنها إن بدا ما ناطق أراد معتمداً
 وشاع في ذاك الباب إسقاط الخبر إذا المراد مع سقوطه ظاهر
 والحذف في نعم الفتاة استحسنوا لأن قصد الجنس فيه بين
 وأخر المفعول إن ليس حذر أو أضمر الفاعل غير منحصر
 وما إلا أو يائما انحصر آخر وقد يسبق إن قصد ظاهر
 نقلاً وفي أن وأن يطرد مع أمن لبس كمجبت أن يدوا
 وقد ينوب عنه ما عليه دل كجد كل الجد وافرح الجذل
 وإن بشكل خيف ليس يجتنب وما لباع قد يرى لنحو حب

ومعنى كلام ابن مالك هذا أنه لا إصرار على القاعدة الأصلية إذا أمن اللبس،
 فإذا أمن اللبس نشأت قاعدة أخرى فرعية، ولكنه يقول أخيراً: "وإن بشكل خفيف
 لبس يجتنب" أي تبقى القاعدة الأصلية مستصحبة فلا ترخص فيها عند خوف
 اللبس.

وكما يكون الترخص في القاعدة يكون في إحدى القرائن الدالة على معنى نحوي
 ما. وقد سبق في أول هذا المقال أن عرفنا بهذه القرائن هي التضام والترتبة والربط
 والبنية والإعراب والأداة ودلالة السياق. فمن الترخص في قرينة التضام قوله
 تعالى: ﴿قَالُوا طَئِرُكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ﴾ (يس: ١٩) بحذف جواب الشرط أي:
 أين ذكرتم تطيرتم؛ ومن الترخص في الترتبة قوله جل شأنه: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلَكَ
 وَكَلَّمَا مَرْ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ (هود: ٣٨) بتقديم جملة الحال
 مع امتناع ذلك بحسب القاعدة. ومن الترخص في الربط قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ
 بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ ٣٨ ﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ ٣٩ ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ ٤٠ ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ
 قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ ٤١ ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ ٤٢ ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ٤٣
 وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ ٤٤ ﴿لَا خُذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ ٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ

﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ (١٧) وَإِنَّهُ لَتَذِكْرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٢١﴾ فَسَبِّحْ بِأَنِّم رَّبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿ (الحاقة: ٣٨ - ٥٢). ففى الآية عشرة من ضمائر الغيبة أحدها مستتر فى الفعل "تَقُولُ" وليس لواحد منها مرجع مذكور ولكن المراجع جميعاً واضحة من السياق. ومن الترخص فى البنية قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ وَالَّذِينَ وَالَّذِينَ﴾ (التين: ١ - ٢) أى وطور سيناء. ومن الترخص فى الإعراب ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقُونَ وَالنَّصَرَى﴾ (المائدة: ٦٩) ومن الترخص فى الأداة حذف الهمزة فى قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ (البقرة: ١٢٤) أى أو من ذريتي. أما دلالة السياق فالترخص فيها يؤدى إلى اللبس.

وقد يأتى الترخص فى نمط الجملة مع إرادة المعنى الذى جرى الترخص فى نمطه. ففى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٢) ليس المقصود النهى عن الموت على حال بعينها وإنما المقصود الأمر بالتمسك بالإسلام حتى الموت فجرى الترخص فى نمط الأمر وحل محله نمط النهى مع إفادة معنى الأمر. وفى قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَضْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ (البقرة: ٢٢٨) عدل عن نمط الأمر بالتربص إلى نمط الجملة الخبرية. وفى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَكُمْ مِنْ أَهْلٍ ثُمَّ أَنْصَرَفُوا﴾ (التوبة: ١٢٧) دل عن صيغة الحال المفردة والحال الجملة الخبرية إلى نمط الجملة الإنشائية "هل يراكم من أحد" وفى قوله جل شأنه: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ (الفرقان: ٢٠) جاء المفعول لأجله جملة إنشائية أيضاً والمعنى لرى قدرتكم على الصبر. يبدو للمتأمل فى هذه الحقائق السابقة أن النحو أضيق ساحة من اللغة لأنه صرف همه منذ البداية إلى الجانب المطرد منها عازفاً عن حصر الشجاعة الأسلوبية التى تتأبى على الاطراد والتقعيد وهى التى يتبين من خلالها العنصر الجمالى للنص اللغوى. وما أكثر ما سمعنا عن المشاحنة بين النحاة والشعراء إذ يتسلح النحوى بطرد القاعدة ويحيب الشاعر بحرية الفن قائلاً: علينا أن نقول وعليكم أن تتأولوا.

ثانيًا: الجمال في النص القرآني:

حين نريد معرفة الأثر الجمالي نتجه بالسؤال عنه إلى قارئ النص وليس إلى منشئه ولكننا حين نريد نسبة الفضل في التأثير الجمالي ننسبه إلى منشئ النص من خلال نسبته إلى النص نفسه. وإذا قيل إن القرآن معجز فإن بعض إعجازه يعود إلى الجمال. وإذا أردنا أن نتبع عناصر الجمال فيه فلا بد أن ننسبها إلى وسائل تربط المباني بالمعاني ربطاً يبعث في النفس الإحساس بالجمال. وتدرج هذه المباني من مخارج الأصوات وصفاتها إلى صياغة الكلمات المفردة إلى اختيار مفردة دون أخرى إلى ما في النص من الصور البيانية والتصوير الوقائعي إلى غير ذلك من وسائل التعبير.

١ - المستوى الصوتي:

للأصوات مخارج وصفات تعد في الدرس اللغوي سمات مميزة يؤمن اللبس بواسطتها وهذا هو الجانب العرفي عند النظر إلى الاستعمال وهو الجانب المنهجي العلمي عند البحث في اللغة. ولكن الذي نتكلم عنه هنا أصوات شأنها في التأثير شأن كل صوت مسموع كالصوت الموسيقي مثلاً، فالأصوات المسموعة ذات معان طبيعية إيجابية وانطباعية لا هي عرفية ولا ذهنية. فقد تدل المقابلة بين الترقيق والتفخيم على إرادة التأكيد عند تفخيم الصوت. انظر مثلاً إلى قوله تعالى في مجرد الإخبار عن خلق الأرض ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَنَهَا﴾ (النازعات: ٣٠) ثم عندما أريد التأكيد بمناسبة القسم قال ﴿وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَنَهَا﴾ (الشمس: ٦) بوضع الطاء في موضع الدال أي بإبدال التفخيم بالترقيق وقد يدعو المقصود إلى تغيير حركة البناء للوصول إلى غرض معين كما في تغيير بناء ضمير المفرد الغائب من الكسر إلى الضم على رغم القاعدة وذلك في قوله تعالى ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ إِلَهُ فَسِئْرَتُهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وذلك للحرص على تفخيم اللام في لفظ الجلالة. وقد

تدل الرخاوة أى الاحتكاك فى نطق الصوت على أثر معين كالذى نراه فى قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَا قُلْنَا إِلَى الْأَرْضِ﴾ (التوبة: ٣٨) وذلك بإدغام التاء من "تثاقلتم" مع التاء ليكون منهما مع ثاء مشددة أطول فى نطقها مدة من الصوت المفرد وأكثر دلالة على إفراغ الطاقة والركون إلى المكث والتخلف وذلك بإيحاء الصوت. وقد تدل شدة الصوت الشديد على الإقبال والحبس كما فى قوله تعالى: ﴿إِنِّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ﴾ (الهمزة: ٨) بهمز الواو من لفظ "موصدة" للإيحاء بهذا المعنى. ومن دلالات الإدغام أيضاً ما فى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَذَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾ (الأعراف: ٣٨) من إيحاء بمفاجأة إلقائهم فى النار، وفى قوله ﴿أَمِّنَ لَا يَخَذِي إِلَّا أَنْ يَخَذِي﴾ (يونس: ٣٥) من إيحاء بالإحجام عن الاهتداء، وقوله: ﴿قُلْ أَفَغَمَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُقِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ (الزمر: ٦٤) من دلالة على ضيق النفس بسبب هذا الأمر. أما التكرار فى أصوات الكلمة فيدل على التوالى كما فى قوله تعالى: ﴿فَكَيْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْقَاوُونَ ۖ وَجُنُودٌ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ (الشعراء: ٩٤ - ٩٥) ومن هذه الأساليب الصوتية أيضاً زيادة صوت على أصول الكلمة الثلاثة للدلالة على المبالغة كما فى قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ (فاطر: ٣٧) بزيادة الطاء على "يصرخون" للدلالة على شدة الصراخ. وانظر أيضاً إلى المقابلة بين "استطاعوا" و"استطاعوا" فى قوله ﴿فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ (الكهف: ٩٧) للدلالة على أن تسلق السور أسير من نقبه من حيث المبدأ وذلك أن ذا القرنين حين قال: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ أَنفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ (الكهف: ٩٦) فكانت لزوجه القطر حائلاً دون التسلق وكان حديد جسم السد حائلاً أيضاً وبصورة أشد دون نقب السد فاستحال على يأجوج ومأجوج أن يستطيعوا التسلق أو يستطيعوا النقب فكانت التاء فى "استطاعوا" دالة على الصعوبة الكبرى فى محاولة النقب.

٢ - مستوى المفردات:

قد يصوغ النص القرآنى الكلمة المفردة يرتجلها ارتجالاً يدخلها فى معجم اللغة بعد أن لم تكن فيه. فلا وجود فى مفردات العربية الجاهلية ولا فى صحراء شبه الجزيرة لشجرة تسمى "شجرة الزقوم"، ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ (١) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (الصافات: ٦٤ - ٦٥) ولكن اسم هذه الشجرة يرد فى القرآن الكريم بواسطة الارتجال ليكون مؤشراً أسلوبياً معناه من قبيل المعانى الانطباعية التى تبنى على الحكاية والإيحاء. فلقد صيغ الاسم المرتجل أولاً من الزاى والقاف وكأنه يذكرنا بالفعل فى "زق الطائر فرخه" أى أدخل الطعام إلى جوفه ولا غرو فشجرة الزقوم طعام الأثيم. ولأمر ما جاء تشديد القاف موحياً بمكث اللقمة فى فم الأثيم قريبة من مخرج القاف مدة أطول من المعتاد، وزاد من هذا المكث أن القاف لحقتها الواو (لا الضمة) فدلّت بكونها أطول من الضمة على زيادة المكث. ثم تأتى الميم بما لها من ضم الشفتين للإيحاء ببلع الطعام فانت تستطيع أن تتلع السوائل بفم مفتوح ولكنك لا تلع الطعام إلا بإقفال الشفتين عليه. كل ذلك من قبيل المعانى الطبيعية التى ليس مصدرها العرف أو الذهن. وكذلك حول النص القرآنى إلياس إلى الياسين فى قوله تعالى: ﴿سَلِّمْ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ (الصافات: ١٣٠) كما حول سيناء إلى سينين فى قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَتِهِمْ كَارِهُونَ﴾ (التين: ١ - ٢) وذلك لرعاية الفاصلة فى كلا الموضعين بحيث يكون ثمة تشابه صوتى بين فواصل الآيات يوحى بالانسجام والارتياح. وهناك عدد من صور التصرف فى البنية المقررة بغرض الإيحاء أيضاً كما فى ألفاظ مثل "عجاب" و"كَبَّار" و"كِذَّاب" و"يحموم" و"سجين" و"سلسيل" و"تسنيم" و"غساق" و"عليين" وهلم جرا.

وثمة موقف آخر للتصرف الأسلوبى يقوم على المفاضلة بين استعمال المفردات فى موقف بعينه، إذ يفضل النص مفردة على مفردة أخرى للوصول بذلك التفضيل

إلى غرض أسلوبى بعينه. لقد سأل زكريا عليه السلام ربه وهو يعجب ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ﴾ (آل عمران: ٤٠) وسألت مريم ربها وهى تعجب ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ ﴾ (آل عمران: ٤٧) فكان جواب الله على سؤال زكريا: "كذلك الله يفعل ما يشاء" وعلى جواب مريم: "كذلك الله يخلق ما يشاء". فاستعمل الفعل "يفعل" لإجابته زكريا والفعل "يخلق" لإجابته مريم. وواضح أن الفعل "يفعل" لا يناسب مخاطبة الأنثى كما فى حالة مريم. وفى الكلام عن محنة يوسف عليه السلام يقول الله تعالى: ﴿ وَرَوَدَتْهُ أَثْنَى هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ﴾ (يوسف: ٢٣) ولم يصف هذه المرأة بأنها سيدته تكريماً ليوسف. وحين ضرب الله للكافرين مثلاً بالعنكبوت قال: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ ﴾ (العنكبوت: ٤١) فلم يقل "نسجت" أو "بنت" وإنما قال اتخذت للدلالة على إرادة التحصن فى البيت. والله تعالى يقول: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ (النحل: ٧٠) يعود بالإنسان إلى الضعف الذى جربه فى طفولته ﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ﴾ (الروم: ٥٤) لذا كان من الأفضل لنص الآية أن يوحى بأن فى الشيخوخة المتأخرة وهى "أزدل العمر" انتكاسا إلى الضعف وارتدادا إليه، ومن هنا جاء الفعل "يَرُدُّ" وقد يدعو غرض أسلوبى إلى التعميم باستعمال الموصول تجنباً لذكر شيء أو شخص ما أو التهوين من شأنه كما فى قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِى قَالَ لِيَوْلَايَهِ أَفَبِ لَكُمْ مَا أَقْرَبَتْ ﴾ (الأحقاف: ١٧) وقوله: ﴿ أَقْرَبَتْ الَّذِى كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِينَ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ ﴿ أَطْلَعَ الْغَيْبِ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾ ﴿ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴾ ﴿ وَنَرِيهِ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ (مريم: ٨٠) فنجد النص يكتفى عن الشخص "بالذى"

وعن كلامه بـ "ما يقول" بقصد السخرية منه والتهوين من كلامه. ومن ذلك ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ (آل عمران: ١٨١)، ﴿وَلَعْنُوا يَمَّا قَالُوا﴾ (الحائدة: ٦٤)، ﴿قَالُوا يَشْعُوبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ﴾ (هود: ٩١)، ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ (المزمل: ١٠)، ﴿فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾ (الأحزاب: ٦٩)، ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ (طه: ١٠٤) وغير ذلك كثير في القرآن الكريم. مما يشير إلى تلخيص قول غير مقبول.

٣- مستوى التراكيب:

وكما تدعو الاعتبارات الأسلوبية الجمالية إلى اختيار المفردات تدعو أيضًا إلى اختيار التراكيب لدفع اللبس حيناً ولقصد التأثير حيناً آخر. دعنا أولاً نعرض بعض الصور التي أمن بها اللبس. فمن ذلك قوله تعالى ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُمْ عَلَيْهِمْ وَلَا أَدْرَنْكُمْ بِهِ﴾ (يونس: ١٦) فاستعمل "لا" مع "أدراكم" ولم يستعمل "ما" لسببين: الأول أن العطف مع تكرار النفي بما إنما يكون عند عدم وجود علاقة بين المعطوف والمعطوف عليه ومن ذلك: ﴿وَمَا تَخَذُ عَوْنِ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (البقرة: ٩)، ﴿فَمَا رَیَحْتَ تَحَوَّرْتَهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (البقرة: ١٦)، ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ فَبَلَّغْهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ فَبَلَّغْ بَعْضُ﴾ (البقرة: ١٤٥)، ﴿وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ (آل عمران: ١٤٦)، ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ (آل عمران: ١٥٦)، ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَصُدُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ﴾ (النساء: ١١٣)، ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ (النساء: ١٥٧)، ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (الأنفال: ٣٣) ففي كل هذه الشواهد لا يتوقف تحقق المعطوف على تحقق المعطوف عليه. أما إذا كان المعطوف عليه مقدمة لحدوث المعطوف فإن المعطوف ينفي بلا وليس بما كما في الآية. والسبب الثاني أن الفعل "أدراكم" لو دخلت عليه ما

لتعرض للبس للشبه عندئذ بين النفي والتعجب في "وما أدراك به" من هنا جاء تفضيل "لا" على "ما" في هذا التركيب. أما إذا كان المعطوف عليه منفياً بلا فإن المعطوف عندئذ لا ينفي إلا بها، نحوه ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى﴾ (القيامة: ٣١) ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ (التوبة: ١٢٦)، ﴿فَلَا زَكَتَ وَلَا فَسُقَ وَلَا جَدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ (البقرة: ١٩٧).

وقد يكون التكرار أيضاً لتوثيق علاقات المفردات أو التراكيب الفرعية في الجملة وقد يكون لدفع اللبس. فمن الأول تكرار صدر الجملة بعد أن طال الكلام قبل تمامها كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِمْ﴾ (البقرة: ٨٩)، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَّنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلُوا وَلَكِنِ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (البقرة: ٢٥٣)، ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (النحل: ١١٩) فلولا التكرار لا نحلت عرى الجملة وضعفت العلاقة بين أجزائها. أما التكرار لدفع اللبس فقوله تعالى: ﴿فَأَعْقِبْتُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (التوبة: ٧٧). "فلولا تكرار الباء في" بما كانوا يكذبون" لصلح التركيب للنفي دون المصدرية، وهناك قرائن أخرى تحول دون هذا اللبس منها أن الإخلاف والكذب آيتان من آيات النفاق كما أوضح الحديث النبوي القائل: "آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان".

وقد يكون نقل اللفظ من مكانه أو وضعه في مكان هو فيه زائد على المعنى مؤشراً أسلوبياً ذا غرض خاص كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ﴾ (غافر: ٥٨) أي "ولا الذين آمنوا

وعملوا الصالحات والمسيء" وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ (٢٢ - ١٩) ف "لا" زائدة قبل النور والحرور والأموات. وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَرَ وَالْبَصِيرَ وَالسَّمِيعَ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ (هود: ٢٤) فقوله: "هل يستويان" بإسناد الفعل إلى ألف الاثنين يحول دون اعتقاد المتعاطفات أربع مفردات ويدل على أن هناك شخصين أحدهما أعمى أصم والثاني بصير سميع.

٤ - التصوير البلاغي:

يقوم التصوير البلاغي على الانتفاع بالعلاقات سواء ما كان منها انطباعياً كالمشابهة، أو عقلياً نحو السببية (السبب المسبب) والزمانية (ما كان وما يكون) والكمية (الكلية والبعضية) والمكانية (الحالية والمحلية) واللزومية أو لغوياً إسنادياً (كالتعارض في المعنى بين المسند إليه والمسند) أو معجمياً (كالمشترك اللفظي) أو غير ذلك. فأما المشابهة فهي العلاقة التي يبنى عليها التشبيه والاستعارة، وأما السببية والزمانية والمكانية والكمية فهي علاقات المجاز المرسل، وأما لزوم المعنى فعلاقة الكناية، وأما تعارض طرفي الإسناد فعلاقة المجاز العقلي، والمشارك اللفظي أداة التورية. فمن التصوير بالتشبيه قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَتَكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (٢٦٤ - ٢٦٥) وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَفَاتَتْ أَكْلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِيبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (البقرة: ٢٦٤ - ٢٦٥). هنا صورتان من صور الإنفاق يشتمل عليهما المشبه به:

الأولى صورة جبل صخرى أملس تغطيه طبقة من التراب الصالح للزراعة والثانية صورة حديقة على رابية ترتفع قليلاً عن سطح الأرض نزل عليها المطر. يلاحظ أن نزول المطر بالنسبة للجبل عبرت عنه جملة معطوفة بالفاء أما نزوله على الحديقة فقد عبرت عنه جملة هي صفة للحديقة. فنزول المطر على الجبل حادث مفاجئ غير مرغوب فيه كان سبباً في تعرية الجبل حتى إنه لم يعد صالحاً للزراعة بدليل التعبير بالفعل "تركه" إذ صار الجبل متروكاً لعدم الفائدة أما الحديقة فمن صفتها أنها ١: بربوة ٢: أصابها وابل ولهذا آتت أكلها ضعفين. وهذا الموقع المتميز للحديقة يجعلها عرضة للرؤى من وجهين فإما أن يصيبها وابل وإما أن يصيبها الطل فتتفع بالماء في الحاليتين.

والمشابهة علاقة الاستعارة أيضاً لأن الاستعارة بحكم التعريف "نقل اللفظ من معناه الأصلي إلى معنى آخر لعلاقة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي" مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوا كَالْمُطَلَقَةِ﴾ (النساء: ١٢٩). فهنا نجد المعنى الأصلي للميل أنه ضد الاعتدال ولكن "تميلوا" نقل إلى معنى التحيز وعدم العدالة في المعاملة (أى بعلاقة) الانحراف في كل منهما ثم ترك معنى استقامة الوضع الحسى واستعمل معنى استقامة القصد والعدالة، والقرينة الدالة على هذا الاستعمال ما تقدم من قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا﴾. فهذه الاستعارة تصور الرجل بين امرأتين في وضع جسماني مائل إلى إحداهما دون الأخرى وهو وضع ينفر منه الرجل الكريم. والعين سبب الرؤية وسيلة الرعاية، فحين يقول الله تعالى لنبيه: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ (الطور: ٤٨) تصور الآية أن النبي في رعاية الله تعالى وفي ذكر العين ما يفيد الظرفية وهو الباء إيجاء بالمحبة والإعزاز. والقلب في الأدب التراثي محل الفكر، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (ق: ٣٧) مجاز مرسل في لفظ القلب واستعارة تبعية في

"ألقى السمع" فالصورة العامة تعنى أن في ذلك عظة لمن يفكر ويستمع إلى النصيح. والسنون أزمنة الوقائع فإذا ذكرت وكان المقصود ما حدث أثناءها فالمجاز مرسل والعلاقة زمانية وذلك ما نلاحظه في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ (الأعراف: ١٣٠) فالصورة هنا تجعل السنين أداة البطش وتعنى الأزمات. والأرض كوكب من كواكب المجموعة الشمسية فلا قدرة لعرب الجاهلية أن يروه في جملة، فإذا قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ (الرعد: ٤١). فليس معنى ذلك تصوير رؤيتهم كوكب الأرض وهو يضاوى لا كروى وإنما المقصود أرض الكفر ينقصها الله بنصر المسلمين على الكفار ففي الأرض هنا مجاز مرسل بعلاقة الكمية لأن الأرض المذكورة جزء من كوكب الأرض. وهكذا نرى اللفظ في الاستعارة وفي المجاز المرسل كليهما منقولاً من معناه الأصلي إلى معنى آخر لعلاقة بين المعنيين وقرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي ولكن العلاقة تشبيهية في الاستعارة وعقلية في المجاز المرسل. والنقل في الحالتين أداة التصوير. وثمة علاقة عقلية أخرى غير علاقات المجاز المرسل وتلك هى اللزوم وهو يقف بإزاء نقل المعنى فليس مع اللزوم نقل إذ يذكر المعنى الأصلي (ويسمى المعنى القريب) ويلزم منه معنى آخر يسمونه لازم المعنى أو المعنى البعيد. ويمكن إرادة أى من المعنيين دون حاجة إلى النقل مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفِّهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ (الكهف: ٤٢) فقد يراد المعنى القريب وهو تقليب الكفين وقد يراد ما يلزم من هذا التقليب من الأسف والندم والمراد بتقليب الكفين ضرب كف بكف ولا حاجة في الكناية إلى قرينة لصحة إرادة المعنى الأصلي. والصورة هنا معبرة جداً فليس أدل على الندم من تقليب الكفين.

والمجاز العقلي يبنى على المفارقة المعجمية في الإسناد لا في الأفراد كما مر في الاستعارة. فإذا كانت المفارقة في الاستعارة سببها نقل المعنى كأن ننقل معنى

الأسد من الحيوان المفترس إلى الرجل الشجاع فتترتب المفارقة بين الفعل "خطب" مثلاً وبين "الأسد" أى الشجاع، فإن المجاز العقلى يبقى على المعنى الأصلى للألفاظ ولكنه يجعل المفارقة بينها فى الإسناد إذ يسند اللفظ إلى غير من هو له لعلاقة مع قرينة مانعة من اعتقاد المناسبة بين طرفى الإسناد. فالرابع هو التاجر مثلاً وليست التجارة ولكن الله تعالى يقول: ﴿فَمَا رَیْحَتِ فِجْرَتُهُمْ﴾ (البقرة: ١٦) فالعلاقة أن التجارة وسيلة للربح والقرينة أن التجارة صفقات فلا تقوم هى بإجراء الصفقات ومن ثم لا تنسب إلى إنشاء الربح والخسارة. وفى قوله تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ (الحاقة: ٢١) نجد نسبة الرضا إلى العيشة مع أنها تكون مرضية لا راضية. والوعد يأتى ولا يؤتى إليه ومع ذلك نجد قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا﴾ (مريم: ٦١). والنهر مجرى الماء وليس الماء نفسه ومن ثم لا يجرى على الحقيقة ولكن الله تعالى يقول: ﴿وَجَعَلْنَا آلَاءَهُنَّ جُرًى مِنْ تَحْتِهِمْ﴾ (الأنعام: ٦) فكل ذلك تصوير بواسطة المجاز العقلى.

٥ - تصوير الأحداث والمواقف:

القرآن الكريم كتاب دعوة إلى عقيدة وتشريع لمجتمع. أما الدعوة إلى العقيدة فقد كانت الطابع الغالب على العهد المكى من نزول القرآن، وأما فى العهد المدنى فقد كانت العقيدة والتشريع جنباً إلى جنب فى الوحي القرآنى. ولقد اشتملت الدعوة إلى العقيدة على الترغيب والترهيب وكانت اللجنة أوضح ما يدور حوله الترغيب كما كانت النار مناط الترغيب. وكان الأمر فى كلتا الحالتين مجالاً لتصوير الأحداث والمواقف سواء أثناء الحساب أو بعد القضاء بدخول الجنة أو النار. فأما مشهد القيامة فحسبنا أن نقرأ قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرًى وَمَا هُمْ بِسُكَرًى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ (الحج: ٢) فإذا جاء يوم العرض على الله فإن تصوير

الموقف يأتي في سورة الحاقة إذ يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ (٣٧) فَأَمَّا مَنْ أُوْقِيَ كِتَابَهُ بِرِيسْمِهِ فَيَقُولُ هَٰؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابِيَةَ ﴿٣٨﴾ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَةَ ﴿٣٩﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٤٠﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٤١﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٤٢﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٤٣﴾ (الحاقة: ١٨ - ٢٤) ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْقِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَةَ ﴿٤٤﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَةَ ﴿٤٥﴾ يَلَيْتَنِي كَانَتْ الْقَاضِيَةَ ﴿٤٦﴾ مَا أغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَةَ ﴿٤٧﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَةَ ﴿٤٨﴾ خُدُّوهُ فَلُوهُ ﴿٤٩﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٥١﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾ وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٥٣﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَمِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٥٥﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِطُونَ ﴿٥٦﴾ (الحاقة: ٢٥ - ٣٧). أما في صورة الواقعة فقد تجاوز الأمر تصوير الجنة والنار إلى وصف أنواع النعيم والعذاب فيقول الله تعالى: ﴿فَأَصْحَبُ الِّمَمَنَةِ مَا أَصْحَبُ الِّمَمَنَةِ ﴿١﴾ وَأَصْحَبُ الشِّعْمَةِ مَا أَصْحَبُ الشِّعْمَةِ ﴿٢﴾ وَالسَّيْقُوتِ السَّيْقُوتِ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٤﴾ فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ ﴿٥﴾ (الواقعة: ٨ - ١٢) ولما كان السابقون من عباد الله من سائر الأمم التي اتجهت إليها الرسالات ومنهم أتباع محمد كان الجميع ممن استحقوا دخول الجنة فقال تعالى: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١﴾ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿٢﴾ (الواقعة: ١٣ - ١٤) ثم ذكر تفصيل نعيم السابقين فقال: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿٣﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴿٤﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخْلَدُونَ ﴿٥﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَّعِينٍ ﴿٦﴾ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿٧﴾ وَفَنَكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخِمُونَ ﴿٨﴾ وَلَحْمٍ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٩﴾ وَخَوْرٌ عَيْنٍ ﴿١٠﴾ كَأَمْثَلِ اللَّوْلِيِّ الْمَكْنُونِ ﴿١١﴾ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿١٣﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿١٤﴾ (الواقعة: ١٥ - ٢٦) ثم فصل نعيم أصحاب اليمين فقال: ﴿وَأَصْحَبُ الِّمَمَنِ مَا أَصْحَبُ الِّمَمَنِ ﴿١﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢﴾ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ﴿٣﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٤﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٥﴾ وَفَنَكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٦﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٧﴾ وَفُرْشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٨﴾ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً ﴿٩﴾ لِّجَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا ﴿١٠﴾ عُرُبًا

أَتَرَابًا ﴿٣٧﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿ (الواقعة: ٢٧ - ٣٨) هذا هو الترغيب في خيرات الجنة وما في الجنة من حياة النعيم والرفاهية: أما التهيب من عذاب جهنم فهو ما نقرأه في مصير أصحاب الشمال من قوله تعالى: ﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٣٨﴾ فِي سُمُورٍ وَخِمِيرٍ ﴿٣٩﴾ وَظِلٍّ مِّنْ تَحْمُومٍ ﴿٤٠﴾ لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤١﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٣﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَهَذَا مِثْنًا وَكُنَّا تَرَابًا وَعِظْمًا أَهْنَا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٤﴾ أَوْءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٥﴾ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٦﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْمَانُ الْعِصَا لَوْنَ الْمَكْذِبُونَ ﴿٤٨﴾ لَا يَكُونُ مِن شَجَرٍ مِّن رَّقُومٍ ﴿٤٩﴾ فَمَا لَيُونٌ مِّنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٠﴾ فَشَرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥١﴾ فَشَرِبُونَ شُرْبَ أَلْهِيمٍ ﴿٥٢﴾ هَذَا تَرْهٓمُ يَوْمَ الدِّينِ ﴿ (الواقعة: ٤١ - ٥٦) هذا ما نجده في سورة الواقعة، أما في سورة الرحمن فللإنس جنة وللجن أخرى وجنتا السابقين أكثر نعيمًا من جنتي أصحاب اليمين فحين الكلام عن جنتي السابقين من الثقلين يقول تعالى: ﴿ وَلَمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴿١﴾ فَبِأَيِّ ءَالٍ رَّبَّكُمْ تُكَذِّبَانِ ﴿٢﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالٍ رَّبَّكُمْ تُكَذِّبَانِ ﴿٤﴾ فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالٍ رَّبَّكُمْ تُكَذِّبَانِ ﴿٦﴾ فِيهَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ رَّوْجَانِ ﴿٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالٍ رَّبَّكُمْ تُكَذِّبَانِ ﴿٨﴾ مُتَكَبِّرِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَاطِنُهَا مِن إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالٍ رَّبَّكُمْ تُكَذِّبَانِ ﴿١٠﴾ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ ﴿١١﴾ فَبِأَيِّ ءَالٍ رَّبَّكُمْ تُكَذِّبَانِ ﴿١٢﴾ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿١٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالٍ رَّبَّكُمْ تُكَذِّبَانِ ﴿١٤﴾ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالٍ رَّبَّكُمْ تُكَذِّبَانِ ﴿ (الرحمن: ٤٦ - ٦١) أما أصحاب اليمين من الثقلين فلهم جنتان دون ذلك في وسائل التنعيم إذ يقول تعالى: ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّاتٍ ﴿١﴾ فَبِأَيِّ ءَالٍ رَّبَّكُمْ تُكَذِّبَانِ ﴿٢﴾ مُدْهَامَتَانِ ﴿٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالٍ رَّبَّكُمْ تُكَذِّبَانِ ﴿٤﴾ فِيهَا عَيْنَانِ نَضَّاحَتَانِ ﴿٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالٍ رَّبَّكُمْ تُكَذِّبَانِ ﴿٦﴾ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمانٌ ﴿٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالٍ رَّبَّكُمْ تُكَذِّبَانِ ﴿٨﴾ فِيهِنَّ حَمْرٌ حَسَانٌ ﴿٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالٍ رَّبَّكُمْ تُكَذِّبَانِ ﴿١٠﴾ حُورٌ

مَقْصُورَتٌ فِي الْحَيَاتِ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ لَمْ يَطْمِئِنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٧٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٩﴾ مُتَكِبِينَ عَلَى رُفُوفٍ خُضْرٍ وَعَبَقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٨٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٨١﴾ (الرحمن: ٦٢ - ٧٧). أما المذنبون أصحاب الشمال فجزاؤهم جهنم. يقول تعالى: ﴿ فَإِذَا أُنْشِقَتْ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾ ﴿٨٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٨٣﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿٨٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٨٥﴾ يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسَمِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٨٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٨٧﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٨﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانِ ﴿٨٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٩٠﴾ (الرحمن: ٣٧ - ٤٥) وواضح أن العلاقة بين قوله تعالى: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴾ وقوله: ﴿ يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسَمِهِمْ ﴾ علاقة السببية فما داموا يعرفون بسيماهم فلا داعي للسؤال عن ذنوبهم مع تحقيق معرفة القرائن ووضوح الأمارات.

وفي سورة الأعراف مشهد حوار بين أهل الجنة وأهل النار يوضح الفارق العظيم بين هؤلاء وأولئك ويبدى الفارق الكبير بين النعيم والحerman. وتشارك في هذا الحوار طائفة ثلاثة متوسطة بين الجنة والنار تقف على أعلى السور بين الجنة والنار فترى أهل الجنة في أحد الجانبين وأهل النار في الجانب الآخر هذه الطائفة الثالثة تنتظر قضاء الله في شأنها أن يغفر لها فيدخلها الجنة بعد انتظار وترقب نظرًا لتساوى حسناتهم وسيئاتهم. هؤلاء ينادون المجرمين أهل النار الذين يعرفونهم بسيماهم ويتكلمون بهم ويسخرون منهم. يقول الله تعالى: ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَإِذَنْ مَوْذِنٌ بَيْنَهُمْ أَرْسَلَهُ اللَّهُ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴾ ﴿٩٢﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسَمِهِمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ ﴿٩٣﴾

• وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَرُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجُلًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٨﴾ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿١٩﴾ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَلْبِصُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتُهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا فَاَلْهَوْهُمْ تَسْنَهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِبَآئِتِنَا يَمْجُدُونَ ﴿٢١﴾ (الأعراف: ٤٤ - ٥١).

والأعراف الحجاب الذى بين الجنة والنار هى الزوائد الرأسية فوق السور على نحو ما تبدو فى أسوار القلاع والحصون. وقد كان لأصحاب الأعراف النصيب الأكبر فى الحوار كما رأينا. ولعل المؤذن المذكور فى هذا الحوار كان من أصحاب الأعراف. (بديل لفظ "بينهم").

وثمة صورة أخرى لافتضاح أهل النار بشهادة أعضاء أجسادهم عليهم فكانهم يشهدون على أنفسهم بارتكاب ما ارتكبه من الأعمال. وإذا كان للإنسان خمس من الحواس هى السمع والبصر واللمس والذوق والشم فإن الحواس الثلاث الأولى تشهد على أهل جهنم حال دخولهم فيها: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لِمَ جُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقْنَا اللَّهَ الَّذِى أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَأَيْتُمْ فَمَا صَبَّحْتُمُ مِنَ الْخُسُوفِينَ ﴿٢٥﴾ فَإِنْ يَضِيرُوا فَاَلنَّارَ مَتَوًى هُمْ وَإِنْ يُسْتَفْعَىٰ فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَقِينَ ﴿٢٦﴾ (فصلت: ٢٠ - ٢٤) هذه الصورة تكشف عن ورطة لم تكن فى خاطر هؤلاء المذنبين لأنهم لم يكونوا يتوقعون من جلودهم أن تشهد عليهم وهى موضع حاسة اللمس التى هى أخطر الحواس جميعًا. ذلك أن الذى يبطش بغيره يبطش بيده وهى موضع

اللمس والذي يزنى يحس اللذة المحرمة من خلال اللمس ويكون اللمس طريق عدد من المخالفات الموروثة للذنوب، ومن ثم لم يعتب هؤلاء المذنبون على سمعهم ولا على أبصارهم وإنما لاموا جلودهم من أجل الإدلاء بهذه الشهادة فكان جواب الجلود تأنيباً لهم وجعلت الجلود بعد ذلك وسيلة لدوام العذاب "كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب". وهكذا كان الاختيار عند أهل النار بين أمرين إما أن يصبروا على العذاب وإما أن يطلبوا المغفرة. "فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين بشهادة أسماعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون فلا فائدة ترجى من أى من الخيارين". ومن الصور فى الأسلوب القرآنى ما نجده فى الأمثال القرآنية. والمثل القرآنى ضرب من التشبيه البسيط أو المركب ولكن المركب هو الذى يكشف عن موقفين أحدهما يشبه الآخر ومن هنا تبدو الصورة الحادثة من هذا التشبيه أكثر حياة ونبضاً بحكم تناولها للمواقف الحية. وليس معنى هذا أن التشبيه البسيط أقل جمالاً فهو يتسم بقوة وجه الشبه حتى ليبدو أحد الطرفين كأنه من قبيل الآخر. فمن ذلك تشبيه الذين ذرأهم الله لجهنم بأنهم ﴿كَأَلَا تُعْمِرُ بَلَّ هُمْ أَصْلُ﴾ (الأعراف: ١٧٩) وتشبيه من أدبر عن سماع آيات ربه بأنه ﴿كَأَنَّ فِي أذُنِهِ قُورًا﴾ (لقمان: ٧) ويصف الناس يوم البعث بقوله ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَفِرٌ﴾ (القمر: ٧) ويصف السماء بأنها ﴿وَزَدَةٌ كَالَّذِي هَانِ﴾ (الرحمن: ٣٧) أى عمرة كالطلاء الأحمر، ويصف الحور بقوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ (الرحمن: ٥٨) ويقول فى الحور العين: ﴿كَأَمْثَلِ اللَّوْلُوفِ الْمَكْنُونِ﴾ (الواقعة: ٢٣) الذى لم يستخرج بعد من الصدف. ويقول فى يوم العذاب الواقع: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَلْهِ ۖ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ (المعارج: ٨ - ٩) أى تكون السماء كعكارة الزيت وتكون الجبال كالصوف المنفوش كما يأتى وصفها بذلك فى صورة القارعة أيضاً أما جيش أبرهة فقد أهلكه الله تعالى حتى جعله ﴿كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ (الفيل: ٥) لا يبقى على صورته التى كان عليها.

تأتى بعد ذلك صورة الأمثال المركبة وما تتسم به من جمال التصوير وكفاءته الإعلامية. يصور القرآن الكريم الذين كفروا في صورة البهائم التى تسمع نقيق الراعى ولا تفهم دلالة ألفاظه ومن ثم يعبر عنهم بالموصول "ما" دون "من" فيقول: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الذِّى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ١٧١) وفي الذين كفروا حذف مضاف أى مثل داعى الذين كفروا. والله سبحانه يضاعف أجر المنافقين في سبيل نصرة دينه ويضرب المثل لذلك بقوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أُنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (البقرة: ٢٦١) أما من ينفق من الكافرين فإنه يخسر ماله ثم يكون المال عليه حسرة فمثله كمثل قوم كانت لهم مزارع ولكنهم عصوا الله فأرسل على مزارعهم ريحاً باردة ذات صقيع فأهلكت مزارعهم ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ (آل عمران: ١١٧) أما من رزقه الله المعرفة بآياته فتنكر لها واتبع إغواء الشيطان فإنه يظل على تنكره لآيات الله سواء دعى إلى الهدى والعودة إلى الحق أم لم يدع: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الذِّى ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَاتَّبَعِ الشَّيْطَانَ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٦﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِقَايَتِنَا﴾ (الأعراف: ١٧٥ - ١٧٦) وانظر إلى قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ فهو يرفض التسامى عن عمد وإصرار.

حين ندعو الله سبحانه بنسط كفينا بالدعاء، ولأن الله تعالى يجيب الداعى إذا دعاه فإنه حقيق أن يدعى ودعوته دعوة حق أما من يدعو الأصنام باسطة يده إليها فإنه كمن يبسط يده إلى الماء يطلب أن يبلغ الماء فاه ليشرب ولكن الماء لا يبلغ فاه ومن ثم يخيب دعاؤه: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ

بَشَى إِلَّا كَبَسِطَ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِيهِمْ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿الرعد: ١٤﴾ وفي الفعل "يدعون" مفعول به محذوف هو ضمير الأصنام والتقدير "يدعونهم" وفي قوله "كباسط" مضاف محذوف والتقدير "كحرمان باسط كفيه". ويضرب الله مثلاً للحق والباطل بماء السيل وغثائه: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهٗ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ﴾ (الرعد: ١٧) والمقصود بالسيل هنا سيلان الماء في النهر لأن الأودية سالت بقدرها فلم يحدث فيضان غير أن الماء حمل معه الزبد رايباً على السطح ليذهب جفاء ويبقى الماء وما ينفع الناس مما كان في صحبته طافياً معه.

إن الله سبحانه وعد بأن يظهر الإسلام على الدين كله ولو كره المشركون فكلمة الإسلام باقية وكلمة الشرك ذاهبة: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ ثَلَاثُ أَعْطَافٍ كُلِّ حِينٍ يَأْذِنُ رَبُّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ (إبراهيم: ٢٤ - ٢٥) فكلمة التوحيد كشجرة النخل عميق جذرها شامق فرعها تزوي ثمرها كل موسم بإذن ربها. أما كلمة الشرك فإلى زوال كشجيرة الحنظل التي تقتلعها الريح من جذورها وتذروها على سطح الأرض فلا تستقر أبداً، وثمرها شديد المرارة.

من آمن بالله فقد أخلص وجهه لله ومن عبد الأصنام فقد عدّد ولاءه لها. فأما أول الرجلين فإنه يعرف دائماً ما يطلب منه ويألف عبادة الله تعالى ولا تتعارض واجبات هذه العبادة فهو كعبد له سيد واحد فأصبح يعرف ما يطلبه سيده فلا يشق عليه منه شيء. أما الرجل الآخر فهو كعبد تشارك في امتلاكه عدد من الشركاء لكل منهم مطالبه الخاصة التي تتعارض مع مطالب شركائه فإذا قال له أحد سادته اذهب

إلى اليمين وقال الآخر: اذهب إلى الشمال فسوف يحار العبد ويعانى من تعارض رغبات سادته: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَحْمَدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الزمر: ٢٩).

يضرب الله مثلاً لذاته وهو صاحب النعم ورازق العباد وللأصنام وهى عاجزة مفتقرة لا تملك ولا تنعم، فيقول سبحانه: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ (٣) فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿ ٤ ﴾ * ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوِي ۚ أَحْمَدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿ ٥ ﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿ (النحل: ٧٣ - ٧٦) فالله سبحانه فى هذه الصورة القرآنية يرزق عباده سرًا وجهرًا ويأمر بالعدل أما الأصنام فهى العبد المملوك الذى لا يملك شيئًا وهو الأبكم العاجز الذى يمثل عبثًا على صاحبه والمشتوم الذى لا يأتى بخيرًا أبدًا.

وكذلك يضرب الله مثلاً لمن يعاهد ثم ينقض عهده لظروف طارئة يسعى للانتفاع بها فيقول تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (٥) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَضَتْ غَزَاهُمْ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَسَتْ تَتَخَذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أُوْلَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ﴾ (النحل: ٩١ - ٩٢) فإذا عاهد قوم قومًا آخرين ثم تعرض هؤلاء الآخرين لعدوان ممن هم أكثر منهم عددًا وأشد قوة فلا ينبغي للأولين أن يتخلوا عن عهودهم لقوة المعتدين وإلا كانوا كالحمقاء التى تحكم غزلها طول النهار ثم تنقضه آخر اليوم مهددة جهدها.

تقبل الدنيا على الإنسان فيغتر بكثرة خيراتها ويلهيه ذلك عن فعل الخير وتمر به الأيام سراعاً حتى إذا انقضى أجله لم يجد من عمله ما يؤهله للحياة الآخرة. فإقبال الدنيا كغزارة الماء الذي ينزل من السماء وإهمال الإنسان للأعمال الصالحة وانشغاله بالآمال الزائلة كنبات الأرض فإذا صادف إقبال الدنيا انشغالاً بالآمال الزائفة اختلط هذا وذاك فكانت النهاية زوال الحياة والنعمة كليهما يقول الله تعالى: ﴿وَأَصْرَبْ لَهُمْ مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذِيرُهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ أَلْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ (الكهف: ٤٥ - ٤٦).

قد ييذل الكافر ماله في سبيل الخدمة العامة ويظن بهذا أنه سيلقى جزاء حسناً في الحياة الآخرة غير أن فساد الاعتقاد يفسد كل عمل صالح. فمثل اغترار الكافر بما يقدمه من عمل صالح مع الكفر كمثل ظمآن يمشى في الصحراء فيرى سراباً في مسطح بعيد من الأرض فيسرع إليه ينبغي أن يروى منه غلته حتى إذا بلغه اكتشف أنه لم يكن أكثر من خدعة ووجد عنده عذاب الله سبحانه وتعالى. أو أن هذا الاغترار كالظلمات التي بعضها فوق بعض وأن الخدعة هنا لا ترتبط بالسراب وإنما ترتبط بالماء الحقيقي نفسه لأن هذه الظلمات في بحر متلاطم عليه موج فوقه موج وفوق ذلك سحب فلو أخرج المرء في هذه البيئة يده لم يكدرها. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوا كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٧﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرُهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ (النور: ٣٨ - ٤٠).

هل تقوم الشركة بين السيد والعبد الواقع في ملكه أى بين المالك والمملوك وهل

يخشى السيد اعتراض شريكه العبد على بعض تصرفاته كما يخشى اعتراض شريكه الحر؟ "إذا كان الجواب بالنفي فكيف يجعل الكفار خلق الله شركاء الله في الألوهية؟ ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتَكُمْ فَأَنْتُمْ بِهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (الروم: ٢٨).

كان النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين يجاهدون الكفار في سبيل الله فكانوا أشداء في الحق كما كانوا متراحمين فيما بينهم حريصين على شعائر دينهم طلبا لرضوان الله تعالى حتى لقد كنت تعرفهم بسيماهم التي في وجوههم من أثر سجودهم في الصلاة. لقد ورد ذكرهم في التوراة من نسبتهم إلى هذه الصفات المذكورة. أما في الإنجيل فقد جاء تمثيلهم بمثال زرع أخرج ثمرة ثم ما زال هذا الثمر ينمو حتى بلغ مرحلة النضج مستويا على سيقان النبات يعجب من زرعه وقد جعلهم الله سبحانه على هذه الصورة ليغيب بهم الكفار الذين يناصبونهم العداوة. ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ عَلَى الَّذِينَ كَلِمَهُ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهم فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْطَهُ فَفَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (الفتح: ٢٩).

أما أحبار اليهود فقد وضعت أمانة المحافظة على التوراة في أيديهم ولكنهم لم يحسنوا حمل هذه الأمانة فحرفوا فيها وأساءوا فهمها وتفسيرها وإنكار ما فيها من إشارات واضحة إلى ظهور الإسلام وحرفوا نصوصها حتى انتهت في أيديهم إلى نص آخر غير الذي نزل على موسى. وبذلك أصبحوا لا يعلمون حقيقة ما

يحملون فكان مثلهم كمثل حمار يحمل على ظهره أسفارًا ولكنه لا يدري من أمرها شيئًا. ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِقَايِمَةِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (الجمعة: ٥).

وهكذا نرى وضع المشبه في صورة المشبه به في هذه الأمثال يأتي بدرجة من الإحكام تثير في النفس من التأثير ما يجعلها تحس جمال الأسلوب ودقة التصوير وبخاصة إذا أضفنا إلى جمال التصوير جمال التعبير.

العلاقات الملفوظة والعلاقات الملحوظة فى النص القرآنى

الاتصال أهم وظائف اللغة، ونقل المعنى اللغوى من الملقى إلى المتلقى أهم وظائف الاتصال. من هنا كانت فروع علم اللسانيات معنية فى الأساس بالبحث فى أنواع المعانى من طبيعية (أو انطباعية) إلى وظيفية إلى عقلية إلى اجتماعية إلى غير ذلك، وبالببحث فى وسائل الوصول إلى كل نوع من هذه الأنواع يستوى فى ذلك أن تكون وسيلة الوصول إلى المعنى من خلال الصوتيات أو الصرف أو النحو ومن خلال النص بظواهره المختلفة. ولما كانت اللغة كغيرها من موضوعات البحث لا يمكن تناولها إلا بواسطة التحليل الذى يضع عناصرها فى نظام هرمى ذى مستويات متدرجة، لكل منها مفاهيمه التى تختلف عن مفاهيم المستويات الأخرى التى تقع فوقه أو تحته، والتى يمهّد الأسفل منها لفهم الأعلى، وجدنا اللغويين العرب يبنون فكرهم النحوى فى مستويات ثلاثة هى: الأصوات، والصرف، والنحو. وربطوا بين هذه الفروع الثلاثة وبين مبدأين رأوها غاية مطلوبة للاستعمال العربى هما: طلب الخفة، وأمن اللبس. وجعلوا طلب الخفة غاية الصوتيات والصرف، ثم جعلوا أمن اللبس (أو الفائدة أو الإفادة كما يسمونه) غاية علم النحو. وهكذا يمكن تلخيص منهجهم فى أنهم جعلوا الصوتيات والصرف لدراسة المبانى، وجعلوا دراسة النحو للعلاقات السياقية سواء ما كان من هذه العلاقات ملفوظاً أم ملحوظاً.

كان عليهم أول الأمر أن يرصدوا المبانى اللغوية العربية التى تقوم بينها

العلاقات في السياق فقسموا الكلم إلى اسم وفعل وحرف. ورأوا أن الاسم ما دل على مسمى، وأن الفعل ما دل على حدث وزمن، وأن الحرف ما ليس كذلك، ثم غيروا هذا التعريف السلبي للحرف فقالوا: الحرف ما دل على معنى في غيره، ثم أضافوا إلى ذلك أن الحرف ما دل على معنى عام. وقالوا في اللفظ المبنى للشبه المعنوي: إنه دل على معنى عام حقه أن يؤدي بالحرف. هذه العبارة الأخيرة أضافت بعض الوضوح إلى المقصود بمعنى الحرف كما يظهر من النقاط التالية:

أ - الحرف يدل على معنى في غيره (أى علاقة بين عنصرين ليس الحرف واحداً منهما).

ب - هذا المعنى ليس دلالة على مسمى ولا على اقتران حدث وزمن.

ج - معنى الحرف عام يشار إليه بصيغ مصدرية مثل الظرفية والاستعلاء ومطلق الجمع والترتيب والتعقيب والشرط والنفى إلخ. وكلها معان عامة.

د - أما إذا كان الحرف له الصدارة في الجملة كالحال في أدوات الاستفهام والشرط والنفى إلخ، فإن الأداة تحدد معنى الجملة من جهة وترتبط بين عناصرها من جهة أخرى وترهص بالجواب إن كانت الجملة من ذوات الجواب وقد تغنى الأداة عن ذكر الجملة عند وجود القرينة نحو قولك: وإلا فلا.

وتعد العلاقة ملفوظة إذا عبر عنها الحرف ونحوه، فإذا فهمت العلاقة بقرينة عقلية ولم تعتمد على اللفظ سميت في عرف هذا البحث علاقة ملحوظة. ومن شأن العناصر اللفظية سواء ما كان منها اسمًا أو فعلاً أو حرفاً أن تقع من الجملة في مواقع تكشف فيها عن المعانى النحوية التى سمينها العلاقات. ففى قولنا: الشمس طالعة شغل الاسم موقع المبتدأ وشغل الوصف موقع الخبر وعبرت المطابقة فى الأفراد والغيبة والتأنيث عن الربط بينهما ففهمنا أن الوصف مرتبط

بالاسم في هذه الجملة وهذا هو المعنى النحوى. ولكننا لا نستطيع عند هذا الحد أن ننسب هذه الجملة إلى الحقيقة أو إلى المجاز. بل إننا عندما نسمع رجلاً يقول: "زرت صديقى فاختلفت معه في أمر فغادرته غاضباً" لا ندرى من الذى كان غاضباً من الصديقين، ولا نستطيع أن نصل إلى المعنى المقصود من خلال إعراب هذا الكلام. وإذا قرأنا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذْنَهُمْ﴾ (الأحزاب: ٤٨) لم ندر إلا بعد الإطلاع على السيرة النبوية الشريفة من الذى كان يؤذى الآخر. من هنا يلزمنا أن نقول إن من شأن السياق (سواء كان جملة واحدة أم عدة جمل) ألا يدل على معناه التام إلا بالاستعانة بقرائن من داخل النص وخارجه.

سبق منذ قليل أن أشرنا إلى أقسام الكلم في عرف النحاة، وأود أن أشير الآن إلى أن هذا التقسيم كان موضع نقد في كتابى: "اللغة العربية معناها ومبناها" (١٩٧٣)، وأننى قسمت الكلم بناءً على هذا النقد إلى سبعة أقسام يختلف كل منها عن بقيتها معنىً ومبنىً. ولقد وجدت أن الذى دفع النحاة إلى اختيار التقسيم الثلاثى أمورٌ ثلاثة نبهت إليها في كتابى المذكور، وهى:

١ - قد ينقل اللفظ من القسم السباعى الذى هو منه إلى قسم آخر فيؤدى معنى هذا القسم.

٢ - قد يتعدد معنى اللفظ دون نقل أو بعد أن ينقل إلى قسم آخر.

٣ - قد يعاقب اللفظ لفظاً من قسم غير قسمه فينوب عنه أو يسد مسده أو يعوض عنه دون نقل.

وفى ما يلى بيان كل إجراء من هذه الإجراءات:

١- النقل:

أشار النحاة الأقدمون إلى ظاهرة النقل في موضعين: العلم المنقول، والتمييز المحول عن الفاعل أو المفعول. ولم يعيروا انتباهاً لانتشار هذه

الظاهرة بين عناصر اللغة. فالنقل وثيق الصلة بالقواعد وبالمؤشرات الأسلوبية كما سنرى بعد قليل، وهو شائع في حقل المبنيات والظروف المنقولة وفي المجاز اللغوي وأسماء الأعلام إلخ. فأما في مجال أسماء الأعلام فحسبنا أن نقرأ قول ابن مالك:

ومنه منقول كفضل وأسد وذو ارنجـال كـسعاد وأد

وأما المجاز فيكفي أن نقرأ تعريفه الذي ينص على أن المجاز "نقل اللفظ من معناه الأصلي إلى معنى آخر لعلاقة بين المعنيين مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي". وأما بالنسبة إلى المبنيات فدعنا ننظر إلى قسم واحد من تقسيمنا السباعي للكلم وهو قسم الضمير. لقد كان من قبيل المصادفة بعد إجراء التقسيم السباعي أن وجدت لدى ابن مالك أيضًا ما يؤيده من قوله في الألفية:

وما لى غيبة أو حضور كانت وهو سم بالضمير

فلما حاولت تطبيق هذا التعريف على قسم الضمير في كتابي: "اللغة العربية ومعناها ومبناها" (١٩٧٣) وجدته يسمح بالوضع التالي:

كما أن من المبنيات قسمًا آخر من أقسام الكلم هو الظرف ويتمثل هذا القسم في الظروف الأصلية وهى كما يلي:

ظرف زمان ظرف مكان

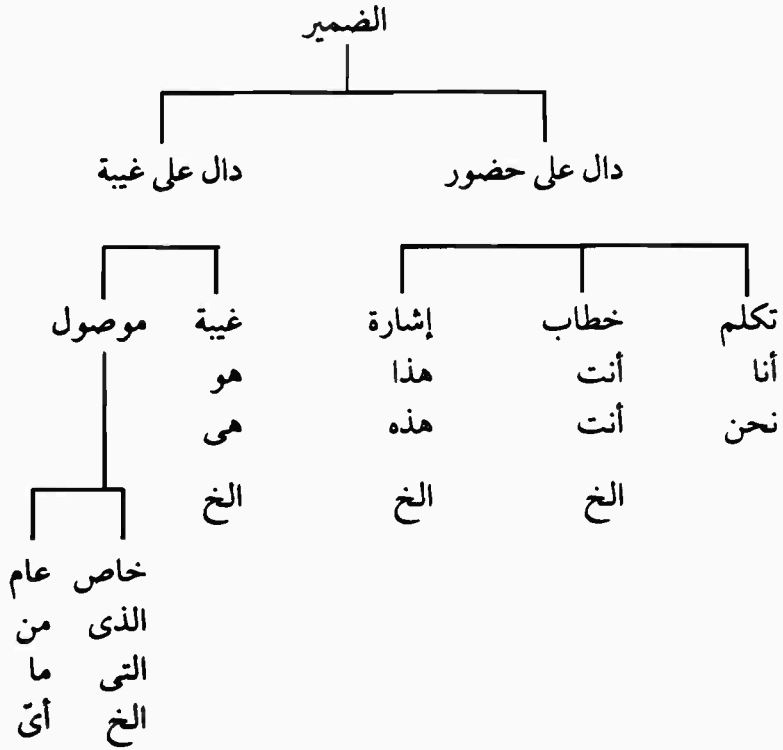
إذ أين

إذا أنى

أيان حيث

متى

لما



فأما الإشارة فقد تنقل من معناها الأصلى إلى كونها رابطة بين أجزاء النص السابقة كما فى:

- * ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَبِيدٍ﴾ (الأنبياء: ١٠٦).
- * ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ (المؤمنون: ٢٤).
- * ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ (لقمان: ١١).
- * ﴿هَذَا وَإِلِىَّ لِلطَّائِفِينَ لَشَرِّ مَقَابِرَ﴾ (ص: ٥٥).
- * ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ﴾ (ق: ٢٢).

وقد تكون الإشارة إلى مضمون لاحق كما فى قوله تعالى:

- * ﴿هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٨) أى فيها

يلي بيان للناس هو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ (آل عمران: ١٣٩ وما بعدها) فالإشارة في الشواهد الأولى تعود إلى متقدم لفظاً وفي الحالة الأخيرة تشبه ضمير الشأن في العود إلى متأخر.

دعنا الآن لنلق نظرة على نقل الضمير الموصول إلى وظائف أخرى ليست له في الأصل، ولنأخذ أولاً "الذى" واستعمالها أداة مصدرية في قوله جل شأنه ﴿وَحُضِّمْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ (التوبة: ٦٩) أى كما خاضوا، أى كخوضهم. وقد تنقل هى وفروعها إلى أن تكون شرطية فيقرن خبرها بالفاء كما لو كان الخبر جواب شرط. وفيما يلي شاهدان دلت في أحدهما على الخبر المحض وفي الآخر على معنى الشرط فاقترن الخبر بالفاء، فمثال الأول الدال على الخبر المحض:

* ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى هُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ (البقرة: ٢٦٢) ومثال الثانى الدال على الشرط.

* ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْئِيلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ (البقرة: ٢٧٤) والأمر كذلك فى ال الموصولة وفى الذين واللاتى إلخ نحو:

* ﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَقَاذُوهُمَا﴾ (النساء: ١٦).

* ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ (المائدة: ٣٨).

* ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ (النور: ٢).

* ﴿وَالَّتِى يَمْسَسَنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِّسَابِكُمْ إِنْ أَرْبَبْتُمْ فَعِدَّتُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ﴾ (الطلاق: ٤) على فهم جملة "إن ارببتم" على معنى الاعتراض.

والموصلات المشتركة (وهى من وما وأى) أوغل فى ظاهرة النقل من أخواتها السابقات، وذلك أصدق بالنسبة لـ "ما وأى" منه بالنسبة لـ "من" لأنها يقبلان من

صور الإلصاق بعناصر أخرى أكثر مما تقبله "من" وبخاصة عندما تستعمل "ما" منقولة إلى معنى الشرط فلقد نجد أداة شرط تضم ما وأى في صورة "أيما" كما في قوله تعالى:

﴿ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتَ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ ﴾ (القصص: ٢٨).

كما نجد "ما" المنقولة إلى الشرط تتصل بالظروف لتضيف إلى معنى الشرط الذى لها ظلا من ظلال الظرفية. وذلك في نحو إنما وحيشا وأيما إلخ كما في قوله تعالى:

﴿ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ (البقرة: ١٤٤).

﴿ فَأَيِّنَّمَا تُولَؤْا فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ ﴾ (البقرة: ١١٥)

فالشرط المعبر عنه بواسطة "ما" في هذين الشاهدين جاء مقيداً بالظرفية المكانية. والظرفية أيضاً تنتقل عن معانيها وينقل غيرها من العناصر إلى معناها. فمن نقل الظرف إلى معنى آخر غير الظرفية ما نراه من نقل "إذ" إلى المصدرية في قوله تعالى:

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ (آل عمران: ٨) أى بعد أن هديتنا. ونقلها إلى إفادة التعليل في قوله جل شأنه:

﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِمْ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَ قَدِيرٌ ﴾ (الأحقاف: ١١) أى ولأنهم لم يهتدوا به، ونقلها إلى إفادة الاستفتاح في قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا ﴾ (البقرة: ٣٤) فالاستفتاح هنا أوجه من تقدير "اذكر" لأن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن حاضراً هذا القول حتى يطالب بتذكره. فالتقدير. ولقد خلقنا. ومن الظروف ما ينقل إلى الشرط والاستفهام مثل متى وأيان وأنى كما في الشواهد التالية:

* ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ (الإسراء: ٥١).

* ﴿قَالَ يَمْرِئُؤُمَّ أَنْتَ لَكَ هَذَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ (آل عمران: ٣٧).

* ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسِنُهَا﴾ (النازعات: ٤٢).

أما ما ينقل إلى الظرفية من أقسام الكلم الأخرى فيشمل ما يلي:

١ - المصادر نحو: آتيك طلوع الشمس.

٢ - أسماء الزمان والمكان نحو: آتيك مطلع الشمس، وأقعد منك مقعد التلميذ.

٣ - بعض حروف الجر نحو: مذ ومنذ.

٤ - بعض ضمائر الإشارة نحو: هنا وثم والآن وأمس.

٥ - بعض الأسماء المبهمة التي لا يتحدد معناها إلا بوصف أو إضافة أو تمييز نحو أسماء المقادير والعدد والجهات والأوقات، ونحو: قبل وبعد ودون ولدن وبين وعند إلخ. وإذا كانت "ما" تدل كما سبق على الشرط عند اتصالها بالظروف الأصلية فإنها إذا اتصلت بالظروف المنقولة فإنها تدل على المصدرية دون الشرط كما في: قبلما وبعدهما ودونما وبينما وعندما إلخ. وهكذا تعد ظاهرة النقل مددًا لتعدد المعنى كما سنرى بعد قليل.

٢ - تعدد المعنى للمبنى الواحد:

العناصر التي تأذن بتعدد المعنى للمبنى الواحد هي: الحروف والأدوات والصيغ الصرفية والمفردات المعجمية وتراكيب الجمل. وقد يتعدد المعنى للمبنى الواحد والمبنى ما يزال في قسمه من أقسام الكلم، أو يتعدد بانتقال المبنى من قسم إلى قسم آخر. مثال الحالة الأولى ما نراه مثلاً من تعدد معاني "من" الجارة دون أن يشاركها في معانيها الأصلية حرف آخر فهي تستقل بإفادة التبعية وابتداء

الغاية دون أن يشاركها في ذلك حرف آخر فهذا المتعدد بحسب الأصل، ولكن لها معانى أخرى بحسب النقل منها البدلية التى تشارك فيها الباء، وتدل اللام بحسب الأصل على الملك وشبه الملك ولكنها تدل بالنقل على انتهاء الغاية والتعدية ومعنى عن والتعليل، وتدل الباء بحسب الأصل على الاستعانة والتعويض والإلصاق ولكنها تدل بالنقل على البديل والتعدية والظرفية والسببية والمعية والمجاورة.

سبق أن ذكرنا أن "ما" بحسب التقسيم السباعى ضمير موصول كما في قوله تعالى:

﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ٣٠). فهذا معناها بحسب الأصل، ولكنها تنقل إلى:

- ١ - النفى، نحو: ﴿ وَمَا تَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَكُمْ ﴾ (البقرة: ٩).
- ٢ - الاستفهام، نحو: ﴿ وَمَا لَنَا لَا نَقْتُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (البقرة: ٢٤٦).
- ٣ - التعجب، نحو: ﴿ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴾ (البقرة: ١٧٥).
- ٤ - التنكير، نحو: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا ﴾ (البقرة: ٢٦).
- ٥ - الزيادة، نحو: ﴿ فَلَمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا ﴾ (مريم: ٢٦).
- ٦ - الشرط، نحو: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ﴾ (البقرة: ١٠٦).

- ﴿ فَأَيُّهَا تَوَلَّوْا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ (البقرة: ١١٥).
- ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ (البقرة: ١٤٤).
- ١ - المصدرية، نحو: ﴿ قَالُوا أَنْتُمْ مِنْ كَمَاءِ أَمْنِ السُّفْهَاءِ ﴾ (البقرة: ١٣).
- ﴿ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا ﴾ (البقرة: ٦١).
- ﴿ ثُمَّ حُجِرُوا مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوا ﴾ (البقرة: ٧٥).

فهذه المعانى فيما عدا المعنى الاصلى المذكور إنما جاءت عن طريق نقل الضمير إلى استعمال الأداة. أما تعدد معنى الصيغة الصرفية فمثاله دلالة صيغة فاعل على مسمى وعلى مصدر وعلى صفة مشبهة بمعنى فاعل أو بمعنى مفعول كما يلى:

* ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ (الحج: ٢٣).

* ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ (الأنبياء: ١٠٢).

* ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (العنكبوت: ٢٦).

* ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ (النساء: ١٦٩).

لا يكاد المرء (عند نظره فى معانى مفردات المعجم) يظفر بكلمة مفردة ذات معنى واحد فقط وإنما يتعدد معنى المفردة فلا يتحدد إلا بمعونة السياق، ومن ثم حَرَصَ واضعو المعاجم على ذكر الشواهد لما ينسبونه إلى الكلمات من معان فإن لم يجدوا الشاهد جاءوا بالمثال لتكون بيئة الكلمة مبرراً لنسبة المعنى إليها. فإذا أخذنا الفعل "ضرب" ومشتقات مادته مثلاً نبين به صدق ما نقول وجدنا ما يلى:

١ - أدب، نحو: ﴿وَأَفْجَرُوهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضْرَبُوهُمْ﴾ (النساء: ٣٤).

٢ - ذكر، نحو: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ (النحل: ١١٢).

٣ - أقام، نحو: ﴿فَضْرَبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ﴾ (الحديد: ١٣).

٤ - فرض، نحو: ﴿ضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الدَّلِيلَ أَتَيْنَ مَا تُخْفُونَ﴾ (آل عمران: ١١٢).

٥ - مهد، نحو: ﴿فَأَضْرَبَ ثُمَّ طَرِيقًا إِلَى الْبَحْرِ يَبَسًا﴾ (طه: ٧٧).

٦ - صفع، نحو: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْنَهُمْ﴾ (محمد: ٢٧).

٧ - ركض، نحو: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ (النور: ٣١).

٨ - أرخى، نحو: ﴿وَلَيَضْرِبَنَّ يَحْمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ (النور: ٣١).

٩ - نقر، نحو: ﴿أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ (البقرة: ٦٠).

١٠ - سعى، نحو: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾ (البقرة: ٢٧٣).

١١ - حجب، نحو: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾ (الزخرف: ٥).

١٢ - عطّل، نحو: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ (الكهف: ١١).

وهناك معان أخرى لمشتقات هذه المادة لم نجد لها شواهد من القرآن الكريم، ومنها:

١ - حسب، نحو: ضرب ٦ × ٥.

٢ - تحير، نحو: ضرب أخماسًا في أسداس.

٣ - استعمل، نحو: ضرب الهاتف.

٤ - خلط، نحو: ضرب البيض في اللبن.

وليست تراكيب الجمل بمنأى عن تعدد المعنى، فإذا سمعت من يقول "بارك الله لمحمد في ماله وولده" فلن تجزم إلا بقرينة خارجية فيها إذا كان هذا التركيب خبرًا أو دعاء. وإذا سمعت من يقول "ما هذا؟" فلن تميز بين الطلب والإنكار إلا بالنغمة في الكلام. وهكذا يتعدد المبنى للمعنى الواحد إما بحسب الأصل وإما بالنقل.

٢ = المعاقبة:

المعاقبة حلول عنصر محل عنصر آخر في موقع معين فالفرق بين المعاقبة والنقل ما يلي:

أ - معنى النقل يتعدد ومعنى المعاقبة واحد.

ب - النقل إجراء أسلوبى والمعاقبة إحراء قاعدى.

ج - النقل لا يرتبط بموقع معين والمعاقبة ترتبط بالموقع.

د - النقل تعدد المعنى للمبنى والمعاقبة تعدد المبنى للموقع.

ويلزمنا الآن أن نبين المقصود بظاهرة المعاقبة.

من القواعد الشهيرة فى عرف النحويين ما يلى:

١ - ينوب المفعول به عن الفاعل.

٢ - كل وبعض ينوبان عن المفعول المطلق.

٣ - حروف الجر ينوب بعضها عن بعض.

٤ - الفاعل يسد مسد الخبر فى باب الابتداء.

٥ - الحال تسد مسد الخبر فى الباب نفسه.

٦ - أن وما بعدها تسد مسد مفعولى ظن أو علم.

٧ - "ترك" أغنى عن "ودع" فلم يرد "ودع" فى معجم اللغة.

٨ - قد يؤول الجامد بالمشتق.

٩ - قد يكون التنوين عوضاً عن محذوف.

١٠ - "يا" حلت فى النداء محل أدعو.

١١ - من الأخبار ما يتقدم على المبتدأ وجوباً أو جوازاً.

١٢ - الأصل فى الربط إعادة اللفظ، ويتم الربط بغير ذلك أيضاً.

١٣ - إذا وقع المقصور أو المنقوص فى موقع الصحيح الآخر قدرت العلامة

الإعرابية عليهما.

١٤ - إذا وقع المبنى أو الجملة الفرعية موقع المفرد تعلق الإعراب بالمحل لا

باللفظ.

وهكذا نجد النحاة يعبرون عن مفهوم المعاقبة بعبارات متعددة مثل:

النيابة - السداد مسد شيء ما - الإغناء عن شيء ما - التأويل - التعويض - الحلول محل عنصر - شغل الموقع المقرر بحسب الرتبة إلخ. ومن شواهد المعاقبة ما يلي:

* ﴿طه﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿١﴾ إِلَّا تَذَكُّرٌ لِّمَن يَخْشَى ﴿طه: ١﴾ - (٣).

لا يصح أن يعد ذلك من تعدد معنى إلا لأن السياق مختلف عما ترد فيه إلا، فهي هنا تأتي في بداية جملة لأن الجملة السابقة انتهت بعبارة "لتشقى" وجاءت "إلا" لتعبر عن الاستدراك أى أنها عاقبت "لكن" ومن ذلك أيضًا:

﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ (الأعراف: ١١). أى لكن إبليس لم يكن من الساجدين.

* ﴿كَفَيْكَ يَكُونُ لِلْمُتَّقِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ (التوبة: ٧) أى لكن الذين عاهدتم....

* ﴿إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (هود: ١٠ - ١١) أى لكن الذين صبروا.

* ﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ (مريم: ٥٩ - ٦٠) أى لكن من تاب...

* ﴿يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الشعراء: ٢٢٦ - ٢٢٧) أى لكن الذين آمنوا لا يتبعهم الغاؤون.

* ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ (الأنشقاق: ٢٤ - ٢٥) أى لكن الذين آمنوا لهم أجر غير ممنون.

* ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ إِلَّا أَتْبَغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴾ (الليل: ١٩ - ٢٠) أى لكن يؤتى ماله ابتغاء وجه ربه الأعلى.

* ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿ (التين: ٥ - ٦).

وإذا كان الأصل فى معنى "إلا" هو الاستثناء وهو يتطلب أن يكون ثمة مستثنى منه مقدم على "إلا" فإن الملاحظ فى هذه الشواهد أن "إلا" جاءت فيها بعد تمام جملة سابقة وفى صدارة جملة لاحقة. وهذا الموضوع الذى حلت فيه يتنافى مع معناها الأصلى ويدعو للتفكير فى أداة أخرى تناسبه وسيجد المتأمل أن هذه الأداة هى "لكن" وأن "إلا" عاقبت "لكن".

وشبيه بذلك ما نلاحظه فى سياق النص القرآنى من معاقبة "بل" للفظ "إن" قبل الاسم والفعل المضارع ولللفظ "قد" قبل الفعل الماضى. وفيما يلى بعض الشواهد على ذلك:

* ﴿ بَلِ اللَّهِ مَوْلَاكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴾ (آل عمران: ١٥٠) أى إن الله مولاكم.

* ﴿ بَلْ بَدَأَهُمْ مَا كَانُوا تُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ ﴾ (الأنعام: ٢٨) أى قد بدا لهم.

* ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ (الشعراء: ١٦٦) أى إنكم قوم عادون.

* ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ (الصافات: ١٢) أى قد عجبت وهم يسخرون.

* ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ (الأعلى: ١٦) أى إنكم تؤثرون الحياة الدنيا.

فإذا كان المعنى الأصلى للفظ "بل" هو الإضراب فإن "بل" فى هذه الشواهد لم يسبقها قول يصلح للإضراب عنه وإنما جاءت لإفادة التأكيد.

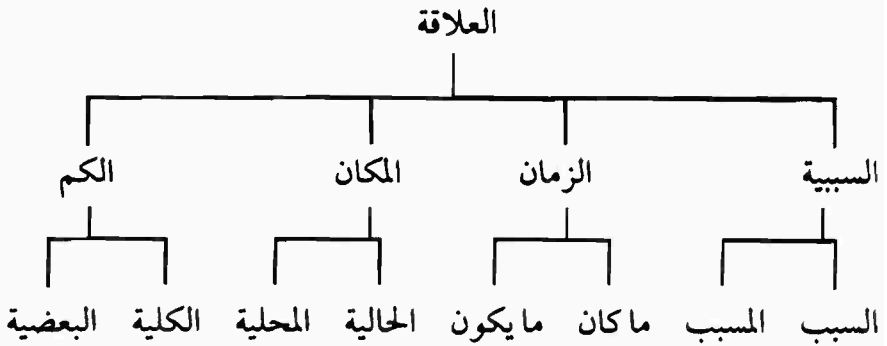
العلاقات الملحوظة:

لم يقصر دارسو التراث اللغوى العربى فى تأمل العلاقات الملحوظة سواء فى تناولهم للنحو أو للبلاغة. فَمِمَّا تداوله النحاة من العلاقات الملحوظة فكرة الأجوبة والمحل الإعرابى والحذف عند أمن اللبس والفروق الدلالية بين معانى الصيغة الواحدة كالتعرف على الصفة المشبهة بدلالاتها على الدوام والثبوت، وعلى اسم الفاعل بدلالته على التجدد والانقطاع فالفرق بين لفظ قائم فى الجملتين الآتيتين يعود إلى ذلك فقط:

فلان قائم يصلى: اسم فاعل لأن الصلاة ستنتهى بعد قليل.

الله قائم على كل نفس بما كسبت: صفة مشبهة لأن قيامه سبحانه على النفوس لا ينقطع.

أما البلاغيون فحسبنا أن نلاحظ تفريقهم بين أسلوبين للتشبيه أحدهما ملفوظ يسمى التشبيه والثانى ملحوظ يسمى المشابهة، واستعمال المشابهة فى فهم الاستعارة من حيث هى علاقة ملحوظة بين المعنى الأصل والمعنى المجازى. كما لاحظوا علاقة اللزوم فى الكناية وفصلوا القول فى علاقات المجاز اللغوى على النحو التالى:



وتناولوا دلالات الفصل فى مقابل دلالات الوصل، واعترفوا بمفهومي الحال

والمقام إلخ. وأما الأصوليون فقد فرقوا بين مفهومي الموافقة والمخالفة وبين الفحوى والإشارة والاقتضاء والمعنى الضمنى وغير ذلك من المفاهيم التى تدل على أن التراث العربى نتاج عقول تستحق الإعجاب.

غير أن النحاة حبسوا جهودهم فى الجملة الواحدة ولم يتجاوزوها إلا إلى علاقتها بجارتها المباشرة سواء كانت هذه العلاقة إضراباً أم استدراكاً أم عطفاً أم غير ذلك من العلاقات الملفوظة، أى ذات الأدوات الدالة على هذه العلاقة. "وعند التأمل فى القرائن الملحوظة (التي لم تعبر عنها أداة ما) نراها تتراوح بين الوضوح ودقة الاستخراج وأن تكون عرضة للاحتمال فى بعض الحالات إذ يتردد المرء فى نسبة موقع ما إلى هذه العلاقة أو تلك لأن كلاً من النسبتين ممكنة حتى تقوم قرينة ما على أن إحدى العلاقتين أولى بالاعتقاد من الأخرى" (البيان فى روائع القرآن (١ - ٤٠٤) انظر مثلاً إلى قوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٢). وسرى أن العلاقات الملفوظة هنا تقول: إن جملة "ولا تموتنَّ إلا وأنتم مسلمون" تدل بحسب تركيبها النحوى على النهى عن الموت إلا فى حال إسلام، ولكن الموت ليس من الأمور التى ينهى عنها. عندئذ نترك للنحاة أمر التحليل اللفظى دون أن نعارضهم فى دلالة "لا" على النهى، ونلجأ إلى فهم الجملة فى ظل دلالة السياق، فإذا تأملنا النص وجدناه يشتمل على جملة: "اتقوا الله" بصيغة الأمر قبل عبارة "ولا تموتن" فساغ لنا فى هذه الحالة أن نصرف معنى "ولا تموتن" إلى معنى الأمر أيضاً ونفهم المعنى بأنه: "وتمسكوا بالإسلام حتى الموت". أى أن المعنى العام هو: "اتقوا وتمسكوا". هذا هو المقصود باحتتمالات فهم العلاقة.

وسنحاول فيما يلى أن نعرض طائفة من هذه العلاقات الملحوظة بين عناصر النص القرآنى:

تعلمنا تجارب الحياة أن السبب يسبق المسبب دائماً. أما الاستعمال اللغوى فيفرق بين السببية الملفوظة والسببية الملحوظة. فأما الملفوظة فقد يتقدم فيها السبب على المسبب فتكون الأداة هى فاء السببية نحو: ﴿وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ (هود: ١١٣) وقد يتقدم المسبب على السبب فتكون الأداة هى لام التعليل نحو: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ (البقرة: ١٤٣) فالشهادة على الناس سبب لجعل الأمة وسطاً وقد يتم ذلك بعبارات أخرى تذكر فيها حروف أخرى كالباء فى ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَهْدِيَكُمْ﴾ (آل عمران: ١٨٢). أما العلاقة الملحوظة فتقوم بين مسبب سابق وسبب لاحق دائماً كما سنرى فى الشواهد الآتية التى تعبر عنها فيها لام التعليل وتتضح علاقة السببية فى نص الآيات القرآنية التالية:

* ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ (البقرة: ٥٧).

قد يوجه النحاة هذا النص إحدى وجهتين:

أ- أن قوله تعالى: ﴿كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ جملة مستأنفة.

ب- أن هذا القول فى تقدير: "وقلنا كلوا..." وهذا التقدير أكثر شيوعاً لدى المفسرين. غير أن الأقرب إلى الفهم هنا هو علاقة السببية مع تقديم المسبب وتأخير السبب وهى رتبة تناسب لام التعليل "أى أنزلنا لتأكلوا من طيبات ما رزقناكم".

* ﴿قَالُوا آدَعُ لَنَا رَيْكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا﴾ (البقرة: ٧٠).

أى لأن البقر تشابه علينا.

* ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا وَانْجَدُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾

(البقرة: ١٢٥) أى لتتخذوا من مقام إبراهيم مصلى، ومن لم يقتنع بقيام هذه العلاقة بين طرفيها فليعد بذاكرته إلى تأويل النهى بالأمر فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ وقد سبق ذلك منذ قليل. فليست العلاقة هنا وهناك مبنية على حذف الرابطة.

٢- علاقة التفسير:

إذا كان التمييز النحوى كما يقول ابن مالك: "اسم بمعنى مِنْ مبين نكرة" فإن علاقة التفسير المقصودة هنا تشير إلى جملة فى النص تكشف عن المقصود بجملة سابقة أو عنصر سابق لا يشترط له أن يكون نكرة. وفيما يلى عدد من الشواهد على هذه العلاقة.

* ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (البقرة: ٦).

لقد تساوى فى نص الآية الإنذار وعدمه فاحتاج المتلقى إلى فهم كنه هذا التساوى ومرجه:

أ- أهو عدم المبالاة؟

ب- أم هو الإصرار على موقف ما على رغم النتائج المحتملة؟

ج- أم عناد لا ينفع معه الإنذار؟

فلما جاءت جملة "لا يؤمنون" فسرت التسوية التى فى الجملة السابقة بأنها مجرد عناد.

* ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ (البقرة: ٣٧-٣٨).

* فقوله تعالى: ﴿أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ هو الكلمات التى تلقاها آدم من ربه.

* ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (البقرة: ٩٦).

* فتفسير حرصهم على الحياة أن أحدهم يود لو يعمر ألف سنة فهم أكثر حرصاً من الذين أشركوا.

* ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (البقرة: ١٨٦). ففسر سبحانه مدى القرب بإمكان إجابة الدعوى (أى: قريب بحيث أجيب دعوة الداع إذا دعان).

* ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ (الإخلاص: ١ - ٤). فالذى بعد لفظ "الصمد" من هذه السورة تفسير له.

٣ - علاقة التفصيل:

إنما يأتى التفصيل مقترنا بإجمال فيكون بمنزلة التعريف من التذكير إذ يجد المرء فى كل منهما دلالة، ولكن دلالة التفصيل كدلالة التعريف أكثر تحديداً من قرينتها. وفيما يلى بعض الشواهد:

* ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ۖ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ (البقرة: ٢٨٥) فالإجمال فى هذه الآية جاء فى موضعين: الأول: المؤمنون.

والثانى ما أنزل إلى الرسول، فكان تفصيل الأول بقوله جل شأنه "كل آمن" وكان تفصيل الموضع الثانى بقوله تعالى: ﴿بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ فكان التفصيل أوغل فى الفهم من الإجمال فى الموضعين.

* ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ۖ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْعَةُ الْأَتَعِمِ إِلَّا مَا بُتِلَى

عَلَيْكُمْ غَيْرُ مُحْلَى الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعِيرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَئِدَ وَلَا ءَامِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَنْتَفِعُونَ فَضْلًا مِنْ رِبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقَ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ﴿٣﴾ (المائدة: ١ - ٣) فجاء الإجمال أولاً بقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ وهذا القول يساوى فى أساليبنا الحاضرة عبارة: (إلا ما يلى) فكانت المحرمات هى:

الصيد مع الإحرام - الشعائر - انتهاك الشهر الحرام - التعرض للهدى والقلائد وحجّاج البيت الحرام - والعدوان بسبب البغض والشنآن - وأكل الميتة - والدم - ولحم الخنزير - والقربان المقدم للأصنام - والمنخقة والموقوذة والمتردية من أعلى والتى ماتت نطيحة وما افترسه السبع إلا عند تذكية هذه الخمس الأخيرة قبل الموت - ومباشرة الميسر.

وهكذا كان تفصيل عبارة: "ما يتلى عليكم" شاملاً ثمانية عشر أمراً محرماً، فلما كان هذا العدد كثيراً جاءت الآية التالية إرهاساً بما سيخطر بأذهان المخاطبين بهذا التحريم فكان التعبير عن هذا الإرهاس بقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾ أى سيقول لك المخاطبون ماذا تركت لنا بعد هذا التحريم؟

* ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٦﴾ إِنَّا مَكَنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٧﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٨﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴿٨٩﴾ (الكهف: ٨٤ - ٨٦) فكان الإجمال أولاً بقوله: ﴿سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ ثم فصل تلك التلاوة وذلك بقصة استغرقت خمس عشرة آية من سورة الكهف.

* ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْهَبُوا بِقَرَّةٍ قَالُوا أَنْتَ تُخَدِّدُنَا هَرُؤًا قَالِ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا آدَعُ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فافعلوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ (البقرة: ٦٧ - ٦٨).

* ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ (البقرة: ١٨٩).

* ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ﴾ (البقرة: ٢١٩).

* ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى﴾ (البقرة: ٢٢٢).

الإضراب إبطال كلام سابق يغلب أن يكون بالجمال الخبرية. ولكنه قد يكون بغيرها كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل عمران: ١٦٩).

ومن شواهد علاقة الإضراب ما يلي:

* ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (البقرة: ١١ - ١٢) أى بل هم مفسدون.

* ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنْتُمْ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٣) أى بل هم السفهاء، وقد جاء الإضراب هنا عن مضمون جملة إنشائية هي: "أنؤمن كما آمن السفهاء"؟

* ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتُخَذُتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ تُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة: ٨٠ - ٨١) أى بل من كسب..... إلخ.

* ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ﴿١١٠﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿ (البقرة: ١١١ - ١١٢) أى بل من أسلم فله أجره عند ربه.

٦ - علاقة الإلزام:

يجرى التعبير عن هذه العلاقة في الأغلب الأعم بعبارة: "تلك حدود الله" كما في الشواهد التالية:

* ﴿ أَلَطَّقْتُم مَّرَتَانِ ﴾ ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾ (البقرة: ٢٢٩).
 * ﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ﴾ ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ (البقرة: ٢٣٠).

* ﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ ﴾ ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ (النساء: ١٢ - ١٣).
 * ﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ ﴾ ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ (المجادلة: ٤).
 * ﴿ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ ﴾ ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ (الطلاق: ١).
 ولكن الإلزام قد يأتى بواسطة عبارات أخرى كما في قوله تعالى:

* ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّائِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضْعَةِ وَأُمَّهُنَّ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّائِي فِي حُجُورِكُمْ مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّائِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ ﴾ ﴿ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ (النساء: ٢٣ - ٢٤) فقد جاء التعبير عن علاقة الإلزام بعبارة: "كتاب الله عليكم".

يأتى تعبير النص القرآنى عن الالتزام باستعمال لفظين هما "بلاغ" و"وعد" وقد اجتماعا فى قوله تعالى:

* ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُحْجِافًا وَعْدِهِ ۖ رُسُلُهُۥٓ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ۝٧ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَمَرًا وَالسَّمَوَاتُ وَرَزَوُا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ۝٨ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ۝٩ سَرَابِلُهُمْ مِّنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهُهُمُ النَّارُ ۝١٠ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝١١ هَذَا بَلَغَ لِلنَّاسِ لَيْذُنْهُمْ بِهِمْ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (إبراهيم: ٤٧ - ٥٢) وجاء اللفظان معًا فى قوله تعالى:

* ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ۚ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ۝١٢ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنۢ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ۝١٣ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَبِيدٍ ﴾ (الأنبياء: ١٠٤ - ١٠٦).

* وانفرد لفظ البلاغ بالذكر فى قوله تعالى:

* ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ۝١٤ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَتُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلْغَ فُهْلِكُوا إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ ﴾ (الأحقاف: ٣٤ - ٣٥).

وانفرد لفظ الوعد بالذكر فى معظم الأحوال مع اختلاف ما ينسب إلى الوعد من صفات وذلك على النحو التالى:

أ - الوعد حق:

* ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا

الْأَنْهَرُ خَلِيدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿ (النساء: ١٢٢).

* ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ﴾ (التوبة: ١١١).

* ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا ﴾ (يونس: ٤).

* ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعُثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا ﴾ (النحل: ٣٨).

* ﴿ وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ (الكهف: ٢١).

* ﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ (الكهف: ٩٨).

* ﴿ فَرَدَّدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَى تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ (القصص: ١٣).

* ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ (الروم: ٦٠).

* ﴿ يَتَأَيَّمُ النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ (لقمان: ٣٣).

* ﴿ يَتَأَيَّمُ النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ (فاطر: ٥).

* ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ (غافر: ٥٥).

* ﴿ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَمَّا نُرِيَكَ بِغَضِ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ تَتَوَلَّيَكَ فَاإِلْمَنَا يُرْجِعُونَ ﴾ (غافر: ٧٧).

* ﴿ وَالَّذِي قَالَ لِيَوْلَدَيْهِ أُفٍّ لَكُمْ أَتَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَفِihanِ اللَّهِ وَبَلَكَ ءَامِينَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (الأحقاف: ١٧).

ب - الوعد وعد الصديق:

* ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدِّيقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ (الأحقاف: ١٦).

ج - الوعد مسنول:

* ﴿ هُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ؕ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا ﴾ (الفرقان: ١٦).

د - الوعد مأتى:

* ﴿ جَنَّتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَمِيمِ ؕ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا ﴾ (مريم: ٦١).

هـ - الوعد وعد الله:

* ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَويِ السِّجْلِ لِلْكَافِرِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ؕ وَعَدًا عَلِيمًا ؕ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ (الأنبياء: ١٠٤).

و - الوعد لا يخلف:

* ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ؕ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾ (إبراهيم: ٤٧).

* ﴿ وَتَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ تُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ (الحج: ٤٧).

* ﴿ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(الروم: ٦).

﴿ لَيْكِنَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ هُمْ غُرَفٌ مِّنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّيِّمَةٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَ اللَّهُ لَا تُخْلَفُ ۚ وَلَئِن لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ فِى السَّمَاءِ رَبًّا كَانَتْ السَّمَاوَاتُ وَالتَّرَابُ هَالِكًا ۖ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ (الزمر: ٢٠).

ز - الوعد غير مكذوب:

﴿ فَعَقِّرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ (هود: ٦٥).

وهكذا نرى أن الله سبحانه وتعالى إذا ألزم عباده بما يفرضه عليهم من تكاليف التزم لهم بعقاب المذنب ومكافأة المحسنين.

٨ - علاقة الملابس:

الملابس اتفاق أمرين أو شركتهما في المكان أو الزمان أو كليهما وهى العلاقة النحوية التى تقوم بين الفعل والحال فى نحو: "جاء زيد راكباً" إذ يتفق المجئ والركوب فى المكان والزمان وإذا كان النحو بما يرصده للحال من الاشتقاق والإعراب والرتبة يجعل للحال علاقة ملحوظة فإن النص قد يجعل الملابس بين عناصر السياق ملفوظة غير ملحوظة كما سنرى فيما يلى:

﴿ وَإِذْ أَسْتَشَقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ نَضِيبًا ۚ قَالَ عَلِيمٌ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبُهُمْ ۚ ﴾ (البقرة: ٦٠) فهناك علاقة ملابس بين انفجار العيون والعلم بالمشارب ولو دخلت الواو قبل قد لكان لدينا جملة حالية بعلاقة ملفوظة.

﴿ يَأْتَاهِلَ الْكِتَابُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ۚ ﴾ (المائدة: ١٥) جئى الكتاب ملابس لمجئ الرسول.

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۚ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ ۚ ﴾ (يوسف: ٦٩) فالقول ملابس للإيواء وربما صلح تفسيراً له فتكون العلاقة مع هذا الفهم علاقة تفسيرية.

هذه العلاقة حين تقوم بين عنصرين في السياق النصي تجعل العنصر الثاني بمنزلة جواب الشرط للعنصر الأول وإن خلا العنصر الثاني من العلامات اللفظية الدالة على هذه العلاقة كما في قوله تعالى:

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (البقرة: ١١٤).

أى: من منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه لم يدخل هذه المساجد من بعد إلا خائفًا..... إلخ.

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ بِآتِيكُمْ بِهِ ﴾ (الأنعام: ٤٦). أى إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم فلن يعيده إليكم، غيره وهكذا وقع الاستفهام موقع الجواب.

﴿ قُلْ هَلْ تَرْتَبُصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْأَحْسَنِينَ ۚ وَخَلُّوا تَرْتَبُصُونَ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا ﴾ (التوبة: ٥٢) أى إن كنتم لا ترتبصون بنا إلا خيرًا فنحن نرتبص بكم العذاب.

﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۖ ﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَىٰ ﴾ (طه: ١٢٥ - ١٢٦) أى إن كان ذلك كذلك فقد استحققت به فعلت.

﴿ قَالُوا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا هَٰذَا عِبْدِينَ ۖ ﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (الأنبياء: ٥٣ - ٥٤) أى إن كانوا عبدوها فقد ضلوا كما ضللتهم.

إذا كان الإضراب رفضاً لقول سابق فإن الإنكار قد يكون رفضاً لقول أو لعمل أو حدث. فمن إنكار القول ما نراه في قوله تعالى:

* ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ۚ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ۚ ﴾ (البقرة: ٢٧٥) أى كيف يصح أن يقولوا: إنما البيع مثل الربا ويخالفوا حدود الله؟

* ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ۚ ﴾ (المائدة: ٦٤) فقله تعالى: ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ۚ ﴾ جملتان دعائيتان لفظاً إنكاريتان معنى. أى كيف جاز لهم أن يقولوا هذا القول؟

* ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَسْهَوْنَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ ﴾ (البقرة: ٨٤ - ٨٥). فقله ثم أنتم هؤلاء إلخ إنكار لإخلافهم وعدم التزامهم بما واثقوا الله عليه بدليل قوله: ثم أقررتهم. ثم جاء تأكيد هذا المعنى بعد ذلك بقوله: "أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض".

* ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَّتْكُمْ ريحٌ طَبِيقٌ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا ريحٌ عاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَاهُمْ مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَجَبْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَنْفُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَتَأَيَّبُوا النَّاسُ إِنَّمَا بَغَيْكُم عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْخَمُولَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (يونس: ٢٢ - ٢٣) فقله تعالى: ﴿ إِنَّمَا بَغَيْكُم عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ ﴾ يحمل معنى الإنكار والتهديد في وقت معاً لما في موقفهم من التراجع عن العهد الذي قطعوه أمام الله سبحانه.

الموقف قالب النصوص، ولا تتم دلالة النص إلا برعاية الموقف. والمواقف أنواع لا يمكن إحصاؤها وإن أمكن وصف كل منها على حدة. ولقد تكلم النقاد العرب عن أنواع من المواقف سموها أغراض الشعر فخرجوا بمواقف الشعراء من طابع الوقائع إلى طابع الأفكار المجردة. أى أنهم وضعوا كل وقائع المدح ضمن فكرة مجردة واحدة هى غرض المدح وكذلك فعلوا بالهجاء والرياء والغزل إلخ. هذا هو تنظير النقد. أما عند تناول النص من أى نوع فقد كانوا فى الغالب يذكرّون الملابس التى أحاطت بإنتاج النص، وهذه الملابس هى عناصر الموقف. والذى يتأمل بعض المواقف التى يوردها النص القرآنى سوف يلمح لها سمات خاصة يكشف عنها سياق النص. من هذه السمات ما نلاحظه من أن النص إذا كان له طابع الانفعال كانت الجملة قصيرة منفصلة بعضها عن بعض فليس بين الجملة وأختها رابطة لفظية من أى نوع. وهكذا تصبح العلاقة بين جمل النص ملحوظة لا ملفوظة. من ذلك قوله تعالى:

* ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِّنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فِيمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة: ١٠٥). فالفصل بين الجمل هنا جاء نتيجة لغضب الله على الذين دعوا إلى الإسلام فأعرضوا وأصروا على التمسك بدين آبائهم وذلك ما ترويه الآية التى تسبق الشاهد المذكور، وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا ءأُولَٰئِكَ هُمُ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ (المائدة: ١٠٤).

* ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَآئِمِّي إِلَٰهَتَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَن أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ

تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ ﴿ (المائدة: ١١٦ - ١١٧). فالفصل هنا أوضح دليل على خوف عيسى من غضب الله.

* ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿ (القصص: ٦٢ - ٦٣). وفي الفصل دليل على فرع الذين حق عليهم القول. وفي غضب الله على المشركين ساق إليهم عددًا من الأسئلة الإنكارية التي تندد بدعواهم وكل سؤال من هذه الأسئلة يأتي في جملة قصيرة يليها أحيانًا جواب أقصر كما يلي:

* ﴿ فَذَكَرْ فَمَا أَنْتَ بِبِعَمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٦٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ ﴿٦٥﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَلِي مَعَكُمْ مِثْلُ الْمَتَرَبِّصِينَ ﴿٦٦﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَمُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٦٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقُولُهُمْ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦٨﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٦٩﴾ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٧٠﴾ أَمْ خُلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُضْطَرُونَ ﴿٧٢﴾ أَمْ هُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٧٣﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ ﴿٧٤﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٧٥﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٧٦﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٧٧﴾ أَمْ هُمْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿ (الطور: ٢٩ - ٤٣).

ثم تأمل فرع الملائكة عند سماع سؤال وجهه سبحانه إليهم:

* ﴿ وَيَوْمَ تَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْتُولَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ يَوْمَ مُؤْمِنُونَ ﴿ (سبا: ٤٠ - ٤١).

من العبارات المشهورة لدى مفسرى النص القرآنى الكريم قولهم: "القرآن يفسر بعضه بعضاً" وقد رأينا صدق هذه العبارة حين عرضنا منذ قليل ما سميناه العلاقة التفسيرية بين جملة وأخرى فى سياق النص القرآنى. غير أن الدرس الحديث للجانب الاستعمالى للغة، لم يقنع بالنظر فى علاقة الجملة بالجملة، وإنما تجاوزها إلى علاقة النص بالنص، فرأينا المفسرين يضعون العبارة السابقة موضع التنفيذ مع ظهور كتب تفسر القرآن بالقرآن، ومنها كتاب "أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن" لمحمد الأمين الشنقيطى وهو يقع فى تسعة أجزاء. غير أننى لم أجد فى أى من تفاسير القرآن ما أطمئن إليه فى فهم آيات من سورة يس (١٣ - ٢٧) نصها كما يلي:

* ﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَهُكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَتَيْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا تَكْذِيبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَهُكُمْ لَمُُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا نَطَّعُكُمْ بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَمَنَّمْكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَئِرُكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَتَيْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَنْفَوِّمُ أَتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ أَتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْتَلْكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنَّى إِذَا لِفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنَّى ءَامَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَلَيْتُ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَر لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ (يس: ١٣ - ٢٧).

فهناك: مرسل ورسل ثلاثة وقرية أرسل إليها الرسل الثلاثة ثم هناك إيلاخ

للمرسالة وتكذيب وتطير بالرسول وتهديد بالرجم والعذاب وأخيرًا يأتي الدور الخاص الذي قام بأدائه الرسول الثالث الذي عزز الله به جهد الرسولين الأولين:

فإذا قال المفسرون وكادوا يجمعون على ما قالوا؟! الإجابة على ذلك ما يلي:

أ - القرطبي ٤/١٥: هذه القرية هي أنطاكية في قول جميع المفسرين ما عدا الماوردي والمرسلون أرسلهم عيسى بأمر الرب وهم صادق وصدوق وشلوم وهذا الأخير هو الثالث.

ب - البحر المحيط لأبي حيان ٣٢٦/٧: القرية أنطاكية فلا خلاف حول القصة وهم ثلاثة جمعهم في المجيء وإن اختلفوا في زمن المجيء وأسماؤهم صادق وصدوق وشمعون.

ج - النسفي ٤/٤: القرية أنطاكية والرسول أرسلهم عيسى إلى أهلها والاثنتان الأولان هما صادق وصدوق والثالث شمعون.

د - الشنقيطي: لم يتعرض للقصة بتاتًا مع أن نصوصًا أخرى في القرآن تعين على تفسيرها وهو يقول إن كتابه يوضح القرآن بالقرآن.

نحن نؤكد ثقتنا في أن القرآن يفسر بعضه بعضًا وأن ما كشف عنه البحث اللغوي الحديث من مفهوم التناص يؤيد صدق تفسير القرآن بالقرآن وأن من حقنا بل من واجبنا أن نطيل التأمل في النص القرآني للعثور على ما يعزز هذه الثقة في أن تفسير القرآن بالقرآن يعين على الكشف عن نصوص قرآنية يمكن أن تلقى ضوءًا كاشفًا على المقصود بالآيات المذكورة من سورة يس.

دعنا أولاً ننظر إلى موقف المفسرين في تناولهم للمفاهيم التي أشار إليها النص وليكن المرسل أول هذه المفاهيم. يقول الله تعالى: "إذ أرسلنا إليهم

اثنين" فيسند الإرسال إلى ذاته سبحانه ولكن المفسرين يسندون الإرسال إلى عيسى عليه السلام وإن لم يرد له ذكر في سياق هذا النص. وكان بعضهم كالقرطبي مثلاً أحس بهذه المفارقة فأضاف إلى إسناد الإرسال إلى عيسى أنه كان بأمر الرب. أما المرسلون فأسماؤهم عربية بالنسبة لاثنين منهم وعبرانية بالنسبة للثالث. ولا أدري ما إذا كان الاثنان عربيين في رأى المفسرين أو أن اليهود كانوا يطلقون على أبنائهم أسماء عربية. فإذا نظرنا إلى القرية التي كانت غاية الإرسال وجدناها "أنطاكية" ولم يذكر المفسرون سنداً تاريخياً يؤيد اختيارهم لهذه القرية. وكان من المهم أن يقوم شاهد تاريخي على إبلاغ الرسالة إلى أهل هذه القرية وإلى تكذيبهم للرسول وتطيرهم بهم وتهديدهم بالرجم تارة والعذاب تارة أخرى وكان على المفسرين أخيراً أن يوضحوا لنا كيف كان جهد الرسول الثالث مؤيداً للرسولين الأول والثاني. ذلك هو موقف الضعف فيما يقول به المفسرون.

ترد قصة موسى عليه السلام في عدد من سور القرآن الكريم ومن هذه السور: الأعراف - طه - المؤمنون - الشعراء - القصص - غافر - الدخان وسور أخرى. وليس القرآن كتاب قصص فإذا ورد شيء من القصص فيه فإنما يأتي للعبارة أو للدلالة على صدق الرسول الأُمى الذى لم يقرأ ذلك في كتاب ولم يتلقه عن معلم. حتى قصة يوسف التى جاءت مكتملة العناصر القصصية إنما جاءت لتكون دليلاً على صدق الرسول. يقول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ (يوسف: ١٠٢). أى أنك يا محمد تخبر بصدق ودقة عن أمر من المكر والمكيدة لم تره بنفسك وإنما جاءك عن طريق الوحي فينبغى لقومك أن يفهموا ذلك ويصدقوا رسالتك. يقول تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ أَنْزِلَ الْفُرْقَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ٨٢) ولكن القرآن يؤيد بعضه بعضاً فلا اختلاف فيه. والدليل على ذلك أن مبدأ التناص بين آياته يشهد على التأيد لا على التفنيد. والدليل على ذلك ما بين آيات سورة (يس):

١٣ - ٢٧) وبين ما ورد عن قصة موسى في السور الأخرى التى ذكرناها منذ قليل. وفيما يلى تفسير لهذه الآيات فى ضوء ما بينها وبين السور الأخرى من علاقة التناسل:

* "واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية".

هى مصر بدليل ما يأتى بعد ذلك.

* "إذ جاءها المرسلون".

هم ثلاثة: موسى وهارون والرجل المؤمن من آل فرعون.

* "إذ أرسلنا إليهم اثنين".

قال تعالى: ﴿ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِمَا يَنْتَهِي عَنْكُمَا رَبُّكَ أَنْ تَبْغُوا الْبِرَّ ﴾ (طه: ٤٢).

* "فعرزنا بثالث".

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ (غافر: ٢٨).

* ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَنْقُومِ رَبِّيُ الْفَرِيسَ ﴾ (يس: ٢٠).

﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَمُوسَى إِنَّ أَلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرِجْ إِلَى لَكَ مِنَ النَّصِيحِينَ ﴾ (القصص: ٢٠).

﴿ وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَنْقُومِ إِلَى أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴾ (غافر: ٣٠).

﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ (غافر: ٣٤).

* "إننا إليكم مرسلون".

قال تعالى: ﴿ إِنَّا رُسُلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الشعراء: ١٦).

* "ما أنتم إلا بشر مثلنا".

قال تعالى: ﴿فَقَالُوا أَنْتُمْ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ (المؤمنون: ٤٧).

* "إن أنتم إلا تكذبون".

قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ (المؤمنون: ٤٨).

* "قالوا إنا تطيرنا بكم".

قال تعالى: ﴿وَأِنْ تُصِيبْهُمْ سَيْفَةٌ يَظُنُّوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ﴾ (الأعراف: ١٣١).

* "لئن لم تنتهوا لنرجنكم".

قال تعالى: ﴿وَلَيْفَ عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ﴾ (الدخان: ٢٠).

* "وليمسكنكم منا عذاب أليم".

قال تعالى: ﴿لَئِنْ أَخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ (الشعراء:

٢٩).

تلك هي علاقة التناص بين قصة "أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون" وبين الإشارات القرآنية الدالة على أن المقصود بآيات (يس: ١٣ - ٢٧) هو موسى وهارون والرجل المؤمن من آل فرعون.

أدلة من القرآن الكريم

١ - صوت الطاء العربية.

إذا اطلعت على ما يكتبه المحدثون في وصف صوت الطاء وجدتهم يرونه مهموساً، ومن ثم يربطونه بصوت التاء إذ يرون كليهما مهموساً ولا يفرق بين هذين الصوتين إلا تفخيم الطاء وترقيق التاء (اللغة العربية - معناها ومبناها ٥٦). أما إذا قرأت آراء الأقدمين من علماء التراث فسوف ترى الطاء في إطار نظري آخر. يقول ابن جنى شارحاً رأى الأقدمين وأولهم سيبويه: "أعلم أن الطاء حرف مجهور مستعمل يكون أصلاً وبدلاً ولا يكون زائداً. فإذا كان أصلاً وقع فاء وعينا ولاماً، فالفاء نحو طبل وطحن، والعين نحو فطر وخطب، واللام نحو قرط وفرط" (سر صناعة الإعراب ١ - ٢٢٣).

وكل من المحدثين والقدماء معنى بما سمع، ويشهد الكثير من كتب التراث باقتناع الأقدمين بما لاحظوا إذ يقرر هؤلاء أنك لو رقت الطاء لصارت الطاء دالاً (أى مرفقة مجهورة) ولو فحمت الدال لتحولت إلى طاء. وفي القرآن الكريم ما يشهد بصدق هذه الدعوى، وذلك هو الفرق بين تفخيم الطاء وترقيقها بحسب المعنى المراد في قوله تعالى: "والأرض بعد ذلك دحاها" على معنى الإخبار وترقيق الدال في "دحاها" وقوله سبحانه: "والأرض وما طحاها" على معنى التأكيد بالقسم بتفخيم "الطاء" في كلمة "طحاها". فهنا تبين من المقارنة أن الطاء والدال يأتیان خُلُفَهُ (أى بالتناوب) حسب المعنى المراد، وأن الفرق بينهما يتضح من ناحية الترقيق والتفخيم.

إذا تأملنا دلالة هذه المقابلة بين ترقيق الدال وتفخيم الطاء فهمنا منها أن الطاء العربية من حيث الأداء النطقى تشبه الضاد المستعملة في اللهجة المصرية في الوقت الحاضر، وكان علينا في تلك الحالة أن نبحث عن تفسير آخر لما نعرفه الآن من صوت لآخر غيره نعرفه الآن في لهجتنا الحديثة باسم الطاء وهو أشبه ما يكون بالتاء المفخمة لا بالضاد المذكورة منذ قليل. هذا الصوت الذى يشبه التاء المفخمة يشبه ما أشار إليه ابن مالك يدل به على صورة تاء الافتعال ترد بعد أحد الأصوات المطبقة وذلك في قوله:

ط ا ت ا افتعال رد إثر مطبق فى أذان وازدد واذكر دالا بقى

وسوف تجد فيه ما يلى:

- ١ - يشير بقوله "دالا بقى" إلى التفسير السابق للعلاقة بين الطاء والدال.
- ٢ - ويشير بقوله: "ط ا ت ا افتعال رد إثر مطبق"، إلى أن صوت التاء فى صيغة الافتعال يتحول من الترقيق إلى التفخيم ليصير طاء مطبقة.
- ٣ - نصل من كل ما سبق إلى أن الطاء فى النطق العربى القديم كانت تنطق دالا مفخمة، إلا أن يسبقها حرف إطباق (وهو الصاد أو الضاد أو الطاء؛ وأما مع سبق الطاء فقد يتحقق لها ذلك نحو "اظطم" وقد تقلب الطاء إلى الصوت من جنس ما قبلها وتدغم فى الطاء التى سبقتها، فيقال "اظلم" بتشديد الإدغام.
- ٤ - أما فى النطق الحديث (فى اللهجات العامية) فالطاء تأتى على صورة تاء مفخمة دائماً، ولا سيما عند تعريب الألفاظ الأجنبية نحو إيطاليا وطوبوغرافيا واسطرلاب الخ.

ويشبه ذلك ما نقرؤه فى سورة البقرة من اختلاف الترقيق والتفخيم بين السين والصاد فى موقع عين الكلمة من مادة (ب س ط) بسبب كون السين مفردة ساكنة وكون الكلمة مصدراً لا يتسم ببذل الجهد فى ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً﴾ (٢٤٧) وكونها فعلاً علاجياً فى ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ﴾ (٢٤٥) بضم الصاد.

وانظر كذلك إلى حذف التاء في قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ وذكرها في قوله جل شأنه: ﴿وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ تَقْبًا﴾ (الكهف ٩٧). وذلك للإشارة لفرق الجهد بين مجرد الصعود على السد وبين خرقه.

وقد تحسن الإشارة في هذا المقام إلى أخت الطاء وهى الظاء حين تجاور التاء إذ ترد التاء مكررة كما في الحديث القدسي الذي رواه أبو ذر عن النبي فيما يرويه صلى الله عليه وسلم عن ربه إذ يقول: يا عبادى إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا..."

(صحيح مسلم ج ١٠ ص ٨) فيمكن بمعايير اللغة العربية أن ينطق على النحو التالي:

- بحذف إحدى التائين كما في الرواية،
- بإدغام التاء الثانية في الطاء طلباً للتخفيف،

أما عن استصحاب التائين قبل الطاء فتحول دونه قاعدة كراهية التوالى لأن مخرج الطاء يكاد يتفق مع مخرج التاء، وفي ذلك ثقل في النطق.

٢ - قبلة (اسم هيئة) - متقابلة (وجهها لوجه).

يقول الله سبحانه وتعالى (في سورة يونس ٨٣): ﴿فَمَاءَ آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةً مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ معنى هذا أن عبارة "قوم موسى" لا تنطبق على جميع من كان بمصر من بنى إسرائيل، وإن كان موسى قد جاء لإخراجهم جميعاً. فالعدد المقصود منهم كان محدوداً ومتفرقاً من حيث المسكن. فلما أراد الله سبحانه لموسى أن يخرج المؤمنين من بنى إسرائيل من مصر قضت حكمته تعالى أن يأمر موسى بجمعهم في موقع واحد يبدو أنه كان على الشاطئ الشرقي للنيل، فلا يحول حائل كماء النيل مثلاً بينهم وبين الأرض الموعودة. وفي ذلك يقول سبحانه (يونس ٨٧): ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بَيْوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أى اجعلوا

بيوتكم متقابلة بحيث يسهل جمعكم عند إرادة الحرب. ولعل ذلك كان أول صورة من صور (حارة اليهود). وقد ارشد سبحانه موسى بقوله "وأقيموا الصلاة" إلى مباشرة الدعاء أن يحميهم جل شأنه من بأس فرعون، لأن نزول الشريعة اليهودية وما اشتمل عليه من نزول الألواح لم يكن واقعاً عندئذ.

٢- الانتساب في عرف اليهود.

يحدث أحياناً أن يأتي رجل مهاجر إلى إسرائيل على أمل أن يصبح مواطناً من أهلها، فإذا سئل من أبوه ومن أمه. فإذا قال إن أباه كان يهودياً ولم تكن أمه يهودية، وإنما كانت تنتمي إلى قوم آخرين من غير اليهود رفض طلبه الانتماء إلى المجتمع اليهودي ولم يقبل أن يسجل بوصفه من بنى إسرائيل. أما إذا كان العكس فانتسب إلى أم يهودية جاءت به من أب غير يهودي فسوف يستقبل على الرحب والسعة. ولقد يبدو ذلك غريباً على الفهم الإسلامي الذي يعتد بما قاله القرآن الكريم في شأن الانتساب إلى الأبوين من قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ (الأنعام ٩٨). ولقد ذهب المفسرون مذاهب شتى في فهم المستقر والمستودع، ولكني أرى الاستقرار في اللغة يشير إلى أجل أطول من أجل الإيداع. وأن الله سبحانه بدأ الخلق من نفس واحدة هي نفس آدم عليه السلام ثم جعله في عقبه، ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ (الأعراف ١٧٢). فانتقل أمر الذرية من ظهر آدم إلى ظهور ذريته واستقر الأمر على التوارث إلى يوم الدين. أما بالنسبة للمستودع فهو رحم الأم الذي لا يبقى الحمل فيه أكثر من تسعة أشهر، ثم يولد الجنين. فالمستقر ظهر الأب بالإرث من آدم إلى ما شاء الله والمستودع رحم الأم. ولقد درجت الثقافات جميعاً على نسبة الابن إلى أبيه ولم تشذ عن ذلك إلا قلة نادرة تنسبه إلى أمه كما ذكرنا منذ قليل بالنسبة لليهود.

من هنا نجد هارون يقول لموسى حين شد عليه في غضبه: ﴿يَبْتَئِمُ لَا تَأْخُذْ بِلِحَيَّتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ (طه ٩٤). فلو أن هارون كان ينتمي إلى ثقافة أخرى فلربما قال لموسى: يا أخى أو يا بن

أبى أو يا شقيقى.. الخ ولكن هارون نسب موسى إلى أمه التى تجمع بينهما بحسب الثقافة اليهودية.

٤ - من مدين إلى الطور فى الشتاء.

من الأمور المألوفة أن يطلب الناس الهواء الرطب فى الصيف وأن يطلبوا الدفء فى الشتاء. وفى قصة موسى والشيخ الكبير رضى موسى أن يكون أجيراً فى خدمة هذا الشيخ وأن يظل فى موقع الأجير ثمانى سنوات أو عشرة ثم يكون حراً بعد ذلك. وقد انقضى هذا الأجل فقرر موسى أن يتحرر فسار بأهله متجهاً إلى الطور. ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لَأَهْلِيهِ إِنِّي أَنَسْتُ نَارًا سَآتِيَكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ بَشِيرٍ قَبْسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ (النمل ٧). والمعروف أن الاصطلاء معناه طلب الدفء فى الشتاء. فالمعنى الذى يفهم بكلمة "تصطلون" أن رحلة موسى من مدين إلى الطور كانت فى فصل الشتاء.

٥ - العزيز رب يوسف.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ يَمُوءُ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَىٰ بُرْهَنَ رَبِّهِمْ ﴾ (يوسف ٢٤)، وقال جل شأنه: ﴿ وَأَسْتَبَقَا الْآبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْآبَابِ ﴾ (يوسف ٢٥). والمقصود بسيدها هو زوجها (العزيز). دخل العزيز إلى بيته فصادف موقفاً يستعصى على الفهم، فبدأ بممارسة السبر والتقسيم كما يلي:

"إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم". ثم رأى الملك رؤياه ذات البقرات السبع، وفسرها يوسف لزميله فى السجن قبل الإفراج عنه فأخبر هذا الساقى سيده الملك عن هذا التفسير وعمن فسرهُ. "وقال الملك اثنوني به فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك (أى الملك) فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهم إن ربى بكيدهن عظيم". مشيراً بذلك إلى قول العزيز لامرأته: "إن كيدكن عظيم". فالعزيز هو المقصود بلفظ الرب فى هذه الآية. وكذلك سُمى الملك رباً.

من أشهر ما في بنية النظام اللغوى ما يعرف باسم "أقسام الكلم". واللغة العربية لغة متصرفة، تجعل لكل قسم من أقسام الكلم تقلباته الصرفية الخاصة. وهذه الخاصة تحول بين الاسم وبين الدخول في جدول تصريف الفعل إلا في ظروف أسلوبية خاصة. والمعروف أن كلمة "السبت" تدل على أحد أيام الأسبوع. وليس من شأنه أن يصاغ منه فعل. ولكن الأسلوب القرآنى صاغ منه فعلاً مضارعاً في قوله تعالى: ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ (الأعراف ١٦٣). والذى أعان على ذلك أن صيغة (فعل) بفتح فسكون مما تشترك فيه المصادر والأسماء الصريحة، فيقال مثلاً: ضرب كما يقال ذقن (كلاهما بفتح فسكون) ومن ثم جاء صوغ الفعل على مثال "يضربون". وليس في أسماء باقى الأيام ما يسمح بذلك.

استعمال "هؤلاء" لإرادة الانتقاص

يدل لفظ هؤلاء في القرآن الكريم على العزوف عن ذكر المشار إليهم لعدم الرضا عنهم.

وذلك كما يلي:

١ - ﴿ فَقَالَ أُنِيعُوا بِأَسْمَاءَ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (البقرة ٣١).

٢ - ﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقُولُونَ أَنْفُسُكُمْ ﴾ (البقرة ٨٥)

٣ - ﴿ هَتَانِمْ هَؤُلَاءِ وَهَنَاجَتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ﴾ (آل عمران ٦٦).

٤ - ﴿ هَتَانِمْ أَوْلَاءَ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا تُحِبُّونَهُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ ﴾ (آل عمران ١١٩).

٥ - ﴿ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴾ (النساء ٥١).

٦ - ﴿ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ (النساء ٧٨).

٧ - ﴿ هَتَانِمْ هَؤُلَاءِ وَهَنَاجَتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ (النساء ١٠٩).

٨ - ﴿ مُذَبَذَبَيْنَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ ﴾ (النساء ١٤٣).

٩ - ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا هَتُولَآءِ الَّذِينَ اَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ اَيْمَانِهِمْ اِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ﴾
(المائدة ٥٣).

١٠ - ﴿ وَكَذٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوْا هَتُوْلَآءِ مِنْ اللّٰهِ عَلَيْهِمْ مِّنْ بَيِّنٰتٍ ﴾ (الأنعام ٥٣).

١١ - ﴿ فَاِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَتُوْلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِيْنَ ﴾ (الأنعام ٨٩).

١٢ - ﴿ وَيَعْبُدُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُوْنَ هَتُوْلَآءِ شَفَعْتُوْنَا عِنْدَ اللّٰهِ ﴾ (يونس ١٨).

١٣ - ﴿ وَيَقُولُ الْاَشْهَدُ هَتُوْلَآءِ الَّذِينَ كَذَّبُوْا عَلٰى رَبِّهِمْ ﴾ (هود ١٨).

١٤ - ﴿ قَالَ يَنْفَوْرِمِ هَتُوْلَآءِ بَنَاتِيْ هُنَّ اَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ (هود ٧٨).

١٥ - ﴿ فَلَا تَكُ فِيْ مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْْبُدُ هَتُوْلَآءِ مَا يَعْْبُدُوْنَ اِلَّا كَمَا يَعْْبُدُ اٰبَاؤُهُمْ مِّنْ قَبْلُ ﴾ (هود ١٠٩).

١٦ - ﴿ وَقَضَيْنَا اِلَيْهِ ذٰلِكَ الْاَمْرَ اَنْ دَاوِرَ هَتُوْلَآءِ مَقْطُوْعٌ مُّضْبِحِيْنَ ﴾ (الحجر ٦٦).

١٧ - ﴿ قَالَ اِنْ هَتُوْلَآءِ صَبِيْهِ فَلَا تَفْضَحُوْنَ ﴾ (الحجر ٦٨).

١٨ - ﴿ قَالَ هَتُوْلَآءِ بَنَاتِيْ اِنْ كُنْتُمْ فٰعِلِيْنَ ﴾ (الحجر ٧١).

١٩ - ﴿ وَجَعَلْنَا بَلَكَ شَهِيدًا عَلٰى هَتُوْلَآءِ ﴾ (النحل ٨٩).

٢٠ - ﴿ هَتُوْلَآءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوْا مِنْ دُوْنِهِ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُوْنَ عَلَيْهِمُ الْمَلٰٓئِكُ مِّنْ رَبِّكَ بَيِّنٰتٍ ﴾ (الكهف ١٥).

٢١ - ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَتُوْلَآءِ وَاٰبَآءَهُمْ حَتّٰى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ﴾ (الانبيا ٤٤).

٢٢ - ﴿ ثُمَّ يُكْسُوْا عَلٰى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَتُوْلَآءِ يَنْطِقُوْنَ ﴾ (الانبيا ٦٥).

- ٢٣- ﴿لَوْ كُنْتَ هَتُولَاءِ ۚ إِلَٰهَةً مَّا وَرَدُّوهُمَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (الأنبياء ٩٩).
- ٢٤- ﴿وَيَوْمَ يَخْشَرُهُمْ ۖ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ۖ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَتُولَاءِ ۚ﴾ (الفرقان ١٧).
- ٢٥- ﴿إِنَّ هَتُولَاءِ لَشِرْذِمَةً قَلِيلُونَ ﴿٢٥﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ﴾ (الشعراء ٥٤ - ٥٥).
- ٢٦- ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَتُولَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ (ص ١٥).
- ٢٧- ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِن هَتُولَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (الزمر ٥١).
- ٢٨- ﴿وَقِيلِهِ يَرْبُ إِنَّ هَتُولَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الزخرف ٨٨).
- ٢٩- ﴿إِنَّ هَتُولَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٢٩﴾ إِن هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾ (الدخان ٣٤ - ٣٥).
- ٣٠- ﴿هَتَأْتُمْ هَتُولَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُشْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِمَّ لَكُمْ مَن يَتَّخِلُ ﴿٣٠﴾﴾ (محمد ٣٨).
- ٣١- ﴿إِنَّ هَتُولَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ (الإنسان ٢٧).
- ٣٢- ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَتُولَاءِ لَضَالُونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾ (المطففين ٣٢ - ٣٣).

الإشارة في القرآن الكريم إلى ما سبق وما يلي من الكلام

لأسلوب القرآن الكريم طرق متعددة عند الإشارة إلى ما سيأتى من الكلام وما مضى من ألفاظ يسهل تأويلها بعبارتى ما يلى وما سبق. وسنسوق بعض الشواهد على هذه الظاهرة بقوله تعالى:

١ - ﴿ فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ۚ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (البقرة ٣٧ - ٣٨) فالكلمات هى قلنا اهبطوا... الخ.

٢ - ﴿ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ (البقرة ١٢٤) أى ابتلاه بما يلى كان من مشيئة. فإضافة اسم الفاعل تجعله يدل على ما مضى. (أى سأجعلك)

٣ - ﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (آل عمران ٥٨ - ٥٩).
أى نتلو عليك ما يلى من آيات الذكر الحكيم.

٤ - ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ۖ أُحْضَتْ لَكُمْ بِهِمَةُ الْآتَعِيمِ ۖ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحْلِي الصِّيدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿٣﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْلُوا شَعِيرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ ۚ .. الخ ﴾ (المائدة ١ - ٣). وقد بلغ عدد ما حرمه الله فى هذا النص ثمانية عشر محرماً حتى بدا أنهم استكثروا ذلك فسألوا ماذا

بقى لهم بعد كل هذا التحريم؟! فجاءهم الجواب: ﴿قُلْ أَحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾ (المائدة ٤).

٥ - ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْآثَنَمُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ ۖ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ۚ﴾ .. الخ (الحج ٣٠).
أى إلا ما يلى من عبادة الأوثان وقول الزور.

٦ - ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۖ﴾ ثم كلى من كل الثمرات فأسلِكى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا... الخ (النحل ٦٨).
هنا يلزم تقدير عبارة (ما يلى) لأنها تفهم من السياق، و (أن) التى فى "أن اتخذى" تؤول مع ما بعدها بمصدر مفسر للقول الذى يطلبه الفعل (أوحى).
ومثلها الشاهد التالى:

٧ - ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا...﴾ الخ (النحل ١٢٣). أى أوحينا إليك ما يلى.

والفعل (أوحى) هنا أيضا يتضمن معنى القول دون حروفه فيتطلب مقولا للقول على غرار ما سبق. وسيكون هذا الفعل طالبا لمقول القول فى كل مرة يجرى استعماله على هذا النحو.

٨ - ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ...﴾ الخ.

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۖ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّاتِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۖ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۖ﴾ (الأحزاب ٢). أى اتبع ما يلى.

٩ - ﴿وَأَنَا اخْزَنْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ۖ﴾ (إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي) (طه ١٣ - ١٤).

أى فاستمع لما يلى:

١٠ - ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي الْكَلْبِ فَإَقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ﴾
(طه ٣٨ - ٣٩). أن وما بعدها في تأويل مقول القول بعد (أوحينا). أى أوحينا ما يلى.

١١ - ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعَبَادِي فَأَضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾﴾ (طه ٧٧). أن وما بعدها في تأويل مقول القول.
أى أوحينا ما يلى.

١٣ - ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ .. النخ﴾.

﴿أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ (الأعراف ١٦٠) كسابقه.

١٤ - ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَإِلَيْهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِ وَلَا تَحْزَنِ﴾ (القصص ٧). كسابقه.

١٥ - ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَخْبَطُنَّ عَنْكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الزمر ٦٥).
أى أوحينا ما يلى.

هذا شأن الإشارة إلى ما يلى من الكلام. أما الإشارة إلى ما سبق القول في شأنه فللقرآن فيه طريقة أخرى تقوم على توظيف أسماء الإشارة، إما مع ذكر المشار إليه أو بدونه، ويغلب في هذا النوع من الأسلوب أن يكون لسوق الدلالة على صدق رسالة النبي صلى الله عليه وسلم. ومن ذلك قوله تعالى:

١ - ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۖ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (البقرة ٢٥٢). وقد جاءت هذه الآية بعد إيراد قصة طالوت وجالوت وما فعله داود عليه السلام.

٢ - ﴿ذَلِكَ مِن أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ (يوسف ١٠٢).

٣ - ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفَرَى نَقْصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَابَهُ وَحَصِيدٌ﴾ (هود ١٠٠).

٤ - ﴿كَذَلِكَ نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ (طه ٩٩).

٥ - ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَا نَتَصَّرَ مِنْهُمْ﴾ (محمد ٤).

ومن غير الغالب أن يأتي التذكير بما مضى دون استعمال الإشارة، وذلك كما يلي:

١ - ﴿وَكُلًّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنْثِثُ بِهِمْ فُؤَادَكَ﴾ (هود ١٢٠).

٢ - ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (القصص ٤٤).

٣ - ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ (القصص ٤٦).

وهكذا يشهد القرآن الكريم بأن عدم مشاهدة النبي صلى الله عليه وسلم فيما وقع من هذه الأحداث المشار إليها ثم يكتف بنفى المشاهدة المباشرة وإنما ينفي عنه إمكان مباشرة القراءة بقوله تعالى:

٤ - ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُهُ بِحَبِيبِكَ إِذَا لَا رَتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (العنكبوت ٤٨).

تعرفهم بسيماهم

يمكن الوصول إلى المعنى بواسطة إحدى جارحتين: السمع أو البصر، وقد تجتمعان فيوصل إلى المعنى بهما معاً. فأما السمع فهو وسيلة استقبال اللغة المنطوقة، وأما البصر فوسيلة إدراك اللغة المرئية، وأما معاً فوسيلة الاستعمال اللغوي المعتاد. ولقد حظيت اللغة المنطوقة على مر العصور بعناية الدرس والتعليم والتعلم، وبدءاً بالأصوات المفردة إلى الصيغ المفردة إلى الألفاظ المفردة إلى التراكيب اللفظية ثم إلى النصوص التامة، مع العناية في كل خطوة بالنظر في المعنى وظيفياً كان أم معجمياً أم دلالياً. ولم يشغل الدارسون أنفسهم باللغة المرئية إلا عند اشتغالهم بدراسة النصوص وما يتطلبه الوصول إلى فهم معانيها من النظر في القرائن التداولية التي تخضع للإدراك البصرى. ومن هذه القرائن التداولية ما جاء في القرآن الكريم من ذكر "السيما" (أى العلامة) في عدة مواضع على النحو التالى:

١ - ﴿ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ (٣) لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ (البقرة ٢٧٣).

٢ - ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَابِ رِجَالٌ يَرْعُفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ ﴾ (الأعراف

(٤٦).

٣- ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجُلًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ﴾ (الأعراف ٤٨).

٤- ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَنبَتَنَّهُمْ فَلَاعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ﴾ (محمد ٣٠).

٥- ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ (الفتح ٢٩).

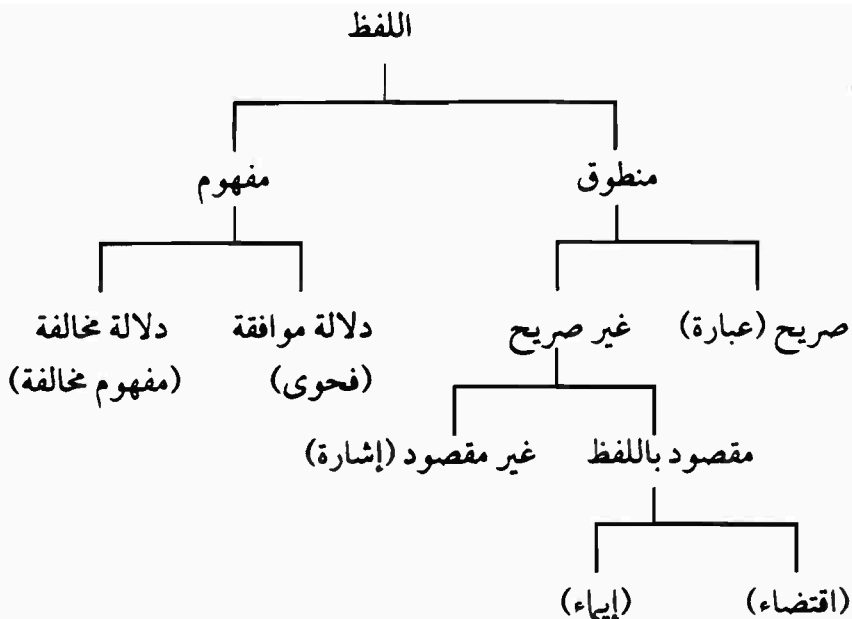
٦- يقول الله تعالى عن يوم الحساب: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ فيميل القارئ إلى معرفة السبب في الامتناع عن سؤال المذنبين في يوم الحساب عن ذنوبهم فتأتى الإجابة صريحة ومباشرة بقوله تعالى: ﴿يُعَرَّفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَتِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ (الرحمن ٣٩-٤١).

أى أن "السيما" (وهى العلامة) وما تفيده من دلالة تترك فرصة للأسئلة فأغنت لغة البصر عن لغة السمع.

وللبلاغيين وعلماء أصول الفقه في تراثنا العربى وقفات قريبة الشبه بما تقدم من الشواهد القرآنية. ذلك بأن مفهوم اللفظ على إطلاقه يختلف عن مدلول اللفظ المنطوق بذاته لأن اللفظ على إطلاقه يصلح للدلالة على واحد من عدد من المعانى كما يظهر في العرض المعجمى. أما اللفظ الذى يرد في بيئة السياق فإن من شأنه أن يدل على معنى بعينه اتضح من خلال القرائن. ومن القرائن التى تعد من قبيل "السيما" في عرف البلاغيين قرينة المقام بدلالاتها التداولية التى تصير القرينة بها علامة على شئ معين. ولكن البلاغيين لم يقفوا عند دلالة المقام وإنما جاوزوها إلى دلالة اللفظ المراد فخرجوا بالفكرة عن مفهوم السيماء إلى مفاهيم أخرى كالمجاز ولازم المعنى وغير ذلك.

وكذلك كان علماء أصول الفقه فقد نظروا إلى هذا الأمر من خلال ما يقصد باللفظ لا من خلال المقام، أى أنهم عاجلوا القضية علاجاً ذاتياً لا موضوعياً.

وفيما يلى عرض تخطيطى لرأيهم في هذه القضية:



لقد رأينا فيما تقدم من الشواهد القرآنية أن السيمياء في كل الحالات علامة مرئية يدركها البصر. فهي في الشاهد الأول أنهم لا يسألون الناس إلخاف وفي الثاني أن أصحاب الأعراف "يعرفون كلا بسيماهم" "لا بها يقولون، والأمر كذلك بالنسبة للشاهد الثالث والرابع، وأما في الشاهد الخامس فالعلامات ترى على الوجوه، وفي السادس نفى صريح لسؤال المجرمين وإثبات لكون المجرمين يعرفون بسيماهم. بذلك يمكن أن نقول إن السيمياء (كما يعرضها القرآن الكريم) هي علامة مرئية.

* * *

تنبهت الدراسات اللغوية الحديثة لموضوع السيمياء في القرن التاسع عشر في معرض جهود البنيويين لدراسة النظم اللغوية. ومن الغريب أن نجد شيها بين أصول الاشتقاق في اللفظ القرآني (أي السيمياء) وبين الاسم الذي أطلقه الغربيون على هذا العلم semiotics أو semeology. وفي عرفهم أن السيميولوجيا علم العلامات بصفة عامة، ولهذا يمكن أن ننظر إلى اللغة في عمومها بوصفها نظاماً فرعياً من أنظمة السيميولوجيا يتعلق بصفة خاصة بطبيعة العلامات اللغوية.

نشأ مصطلح السيميوتيكس على يدى الفيلسوف الأمريكى الذرائعى تشارلز ساندروز بيرس (١٨٣٩ - ١٩١٤)، ويعود معظم ذلك إليه، ثم جاءت إضافات إلى ذلك على يدى فرديناند دى سوسير الذى أطلق على هذا العلم مصطلح السيميولوجيا.

والعلاقة بين العلامة والمدلول فى رأى سوسير علاقة ثنائية بين دال ومدلول، أما عند غيره من المحدثين فالعلاقة ثلاثية لأن العلامة قد تدل على شئ ما بالنسبة إلى شخص ما فيكون الشخص المذكور طرفاً ثالثاً فى العلاقة لأنه هو المفسر interpreter (بكسر السين) لدلالة العلامة، والعلامة هى التى تعين المفسر على أداء هذا الدور إذ يمكنه بواسطتها أن يدرك ارتباطاً أو معرفة إضافية تسمى interpretant بين العلامة (أى السيمياء) ودلالاتها. وإليك المثال التالى:

عبد الله رجل وحيد يسكن بيتاً لا شريك له فيه. خرج من بيته فى الصباح ليباشر عمله الذى يشغله إلى الساعة الخامسة مساءً، وفى طريقه إلى الخارج لم ينس أن يقفل الباب الخارجى كما يفعل دائماً. ثم وضع المفتاح فى جيبه ومضى فى حال سبيله. ثم عاد عند انتهاء عمله إلى بيته فوجد الباب مفتوحاً، فرأى أن حالة الباب علامة تدل على أن شخصاً لا يعرف من هو قام بفتح الباب لغرض عنده غير مشروع، ويظهر أن هذا الشخص لص. وتفسير ذلك كما يلى:

* العلامة الباب الذى انفتح بعد إغلاقه

* التفسير شخص غير معروف فتح الباب

* التأويل يبدو أن هذا الشخص لص

فالباب المفتوح هو العلامة، وقد فهم عبد الله من منظر الباب المفتوح أن شخصاً غيره قام بفتح الباب. ثم إن هذا الباب المفتوح أوحى إلى عبد الله بفكرة إضافية هى أن هذا الشخص لص.

* * *

والباحثون فى السيميولوجيا يرون أن العلامة ثلاثة أنواع:

١ - الأول الأيقونة icon وهى تشير إلى المقصود على نحو ما تقضى به صفاتها الذاتية

التي يبدو منها التشابه بين العلامة والمقصود بها. مثال ذلك ما يلاحظه المرء من تشابه بين صورة الكاريكاتير وما يراد بها عند عدم التعليق عليها. ويلاحظ هنا الفارق الملحوظ بين العلامة ومدلولها من حيث دقة التفاصيل والأبعاد. ويختلف الأمر بالنسبة للصورة الفرتوغرافية التامة الشبه بموضوعها.

٢ - المؤشر index تشير العلامة هنا إلى موضوعها بواسطة خضوعها لتأثير هذا الموضوع. فهناك علاقة تبادل الاعتماد بين العلامة والموضوع على نحو ما سبق ذكره من أن (صاحب البيت) أدرك أن شخصا فتح الباب، (فالبا ب لا يفتح بذاته بعد الإقفال). ومثل ذلك أيضا دلالة الرسم الهندسى ذى الأبعاد المعينة على المبنى الذى يخضع لهذه الأبعاد، الخ.

٣ - الرمز symbol علامة تدل على ما تشير إليه بواسطة العرف العام وليس من الضرورى أن تحمل شبيها بالمقصود، ومن هنا يكتسب الرمز طابع العموم بحكم العرف والاتفاق على هذه الدلالة. فإذا كنا نقود سيارة فى طريق لم نسلكه من قبل ثم رأينا ضوءا أحمر عن بعد فى نهاية الطريق عرفنا أن الوقوف عند هذا الضوء ضرورى حتى يتغير هذا الضوء دون تفكير فى سبب عملى (أو وجه شبه) لهذا الوقوف كوجود سيارات أخرى لها الحق فى عبور الطريق فى أثناء مرورنا بالإشارة. فالحكم فى هذه الحالة للعرف دون غيره.

فإذا كانت الرموز علامات على الأنواع المجردة فليس للأنواع وجود خارجى أو واقعى وإنما تدل العلامة على النوع الذى لا يرى إلا من خلالها.

ومن هنا يفهم المرء أن النوع المقصود يشتمل على الصفات التى سبقت من أجلها العلامة، وإن صح أن يكون للنوع صفات عارضة له من حيث هو نوع. فنحن نعلم مثلا أن ما يكون مسجلا على الأعلام من خطوط أو نجوم أو نحو ذلك لا يعد من قبيل الأنواع وإنما هو علامات على النوع. ويمكن لهذه الصفات أن تكون موجودة بالمصادفة لا بحكم الضرورة ليمكن المرء بها من نسبة العلم المذكور إلى نوع الأعلام ذات النجوم. ونحوها.

المعجم أهو نظام أم رصيد من المفردات

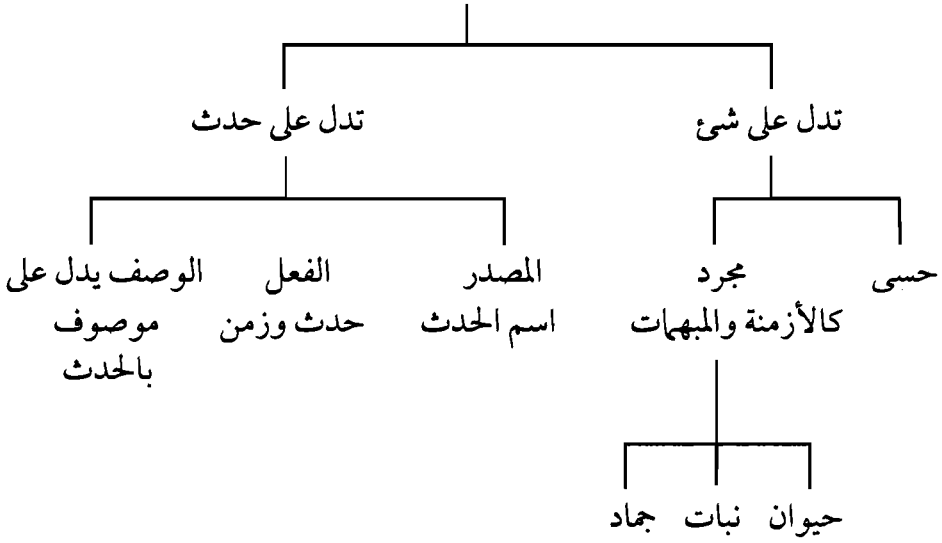
يوصف مفهوم ما بأنه نظام إذا قامت علاقة تكافل بين مكوناته بحيث يتوقف أداء كل منها لوظيفته على طبيعة وظيفة الآخر. في هذه الحالة ينسب للبنية العامة للمفهوم الخاضع للدراسة بأنها نظام أكبر، وأن لهذه البنية العامة أقساماً فرعية يعد كل منها نظاماً فرعياً. ومن الممكن أن نضرب لذلك مثلاً أنظمة الحكم في الدول المختلفة؛ إذ تتألف الدولة من مجلس للوزراء يمثل النظام الأكبر للدولة، ثم ينقسم هذا النظام إلى نظم فرعية هي الوزارات المختلفة الوظائف، ثم تنقسم كل وزارة إلى عدد من الإدارات ذات الوظائف المختلفة أيضاً، وهلم جرا. وتعتمد كل وحدة من وحدات هذه الأنظمة في أدائها لوظيفتها على تخصص غيرها من الوحدات. من ذلك مثلاً أن تنفيذ الأحكام القضائية الصادرة عن المحاكم التابعة لوزارة العدل يقع في اختصاص وزارة الداخلية، وأن وزارة الزراعة تعتمد في أداء مهمتها على وزارات أخرى منها وزارة الري. وهكذا يبدو الأمر في شأن اللغة؛ إذ كشف اللغويون فيها عن هيئة النظام، وجعلوا لها نظاماً فرعياً كنظام الأصوات ونظام الصرف ونظام النحو، وكشفوا تحت كل واحد من هذه الأنظمة الفرعية عن نظم تتفرع منها. ولكنهم عندما تأملوا طبيعة المعجم لم يلاحظوا فيه ما يدعو إلى وصفه بأنه "نظام"، وإنما عدوه حشداً من الكلمات المفردة التي تبدو في صورة رصيد يجري الانتفاع به في الاتصال بمعونة النظم الثلاثة المذكورة: الأصوات والصرف والنحو.

وربما كان هذا الرأى الذى رآه اللغويون فى شأن المعجم مبنيا على نظرتهم إلى طبيعة العناصر التى يتكون منها المعجم، وهى الكلمات المفردة ذات المعانى المفردة أيضا وهى تتغير بحسب المطالب الأسلوبية الفردية. واللغويون يعلمون أن المعنى الدلالى الذى يسعى إليه الاتصال معنى سياقى غير إفرادى. أضف إلى ذلك أن المعانى المفردة يصيبها الخلط أحيانا عن طريق الترادف أو الاشتراك اللفظى أو التضاد أو بعض الظواهر التى تحول دون الثبات الذى هو جزء من طبيعة النظام. ورأوا كذلك أن محتويات المعجم قد ترفض التصنيف المحكم الذى يبنى عليه النظام. وكانت وجهة نظرهم هذه سببا فى حكمهم أن المعجم لا يصلح أن يكون نظاما على نحو ما صلحت النظم اللغوية الثلاثة: الأصوات والصرف والنحو.

هناك نوعان من المعانى المفردة: أحدهما وظيفى والآخر معجمى. فأما المعنى الوظيفى فإنه دلالة العنصر اللغوى على معنى عام مثل معانى الضمائر والإشارات والموصولات، أو على وظيفة سياقية كعلاقة الربط بين عناصر السياق، وهذه هى وظيفة الأدوات وحروف المعانى. فوظيفة حرف العطف هى ربط المعطوف بالمعطوف عليه، ووظيفة حرف الجر تتمثل فى ربط المجرور بالمتعلق. ووظيفة أداة الشرط هى ربط الشرط بالجزاء، ووظيفة أداة القسم ربط الجواب بجملته القسم، وهلم جرا. ومظنة مكان دراسة المعنى الوظيفى هى كتب النحو ويندر أن ينص عليها المعجم. وقد عمل بعض النحاة على التأليف فى حقل المعانى الوظيفية كما نرى فى كتب مغنى اللبيب لابن هشام، والجنى الدانى للمرادى، ورفض المبانى للمالقي.

أما النوع الثانى من المعانى المفردة فهو المعنى المعجمى الذى تدل عليه الكلمات المفردة ذات الأصول الاشتقاقية والصيغ الصرفية فى الغالب، ومن شأن هذه الكلمات المفردة المذكورة أن تدل على الأشياء والأحداث كما يبدو من التخطيط التالى:

الكلمة المفردة



هذان النوعان (الوظيفي والمفرد) يتضافران للكشف عن المعنى الذى تدل عليه الكلمة المفردة من جهة، وتقوم عليهما وظيفة المعجم من جهة أخرى، على الرغم مما سبق من قولنا إن مظنة الكلام عن المعنى الوظيفي هي كتب النحو. فإذا كان الأمر كذلك فبنا أن نعود إلى ما اشتمل عليه عنوان هذا البحث من أن المعجم (الذى رآه اللغويون رصيذا من المفردات) هو في الحقيقة نظام ذو شبكات وعلاقات وثيقة يقوم المعنى على أساس الاعتراف بها.

وفيما يلي بيان للعلاقات التي تترابط بها محتويات المعجم وهي المبرر لتغيير النظرة إلى طبيعة المعجم والمساعدة على تحويل الكيان المعجمي في افهامنا من كونه رصيذا من المفردات إلى كونه نظاما من أنظمة اللغة:

- ١ - الترابط بواسطة أصول الاشتقاق.
- ٢ - التمايز بواسطة الصيغة الصرفية للكلمات.
- ٣ - بيان معنى الكلمة بواسطة هذين المحورين.
- ٤ - النظر إلى أصل وضع الكلمة لبيان الأصل وغير الأصل من المعانى.

٥ - أثر المسموع في بيان الأصل من غيره.

٦ - الحقول المعجمية وأثرها في تكوين السياق.

٧ - المناسبة المعجمية بين ألفاظ من حقل وألفاظ من حقل آخر.

٨ - فكرة النقل وأثرها في مرونة النظام المعجمي.

وسنحاول فيما يلي أن نشرح المقصود بكل من هذه المحاور، وعلاقة ذلك بالاعتراف بأن المعجم نظام:

١ - إذا أردنا أن نبحث عن معنى كلمة في المعجم فأول ما نصادفه هو رسم الكلمة، ثم يأتي بعدها أصل اشتقاقها في صورة حروف ثلاثة متقطعة. فإذا كانت الكلمة المطلوبة هي "جاء" مثلاً وجدنا بعد رسمها حروفاً ثلاثة هي (و ج هـ)، وعرفنا من ذلك أن هذه الحروف تلخص علاقة بين طائفة من المفردات مما يتصل بمعنى "الوجهة"، وأن قوله تعالى: "وكان عند الله وجيهاً" معناه أنه كان عند الله ذا جاه. وسنعرف أيضاً من هذه الأصول أن هناك كلمات أخرى تشارك لفظ "جاء" في أصل اشتقاقها ولكنها تختلف عنها في المعنى أحياناً، مثل الوجه والجهة والوجهة والتوجيه الخ. وعرفنا أن أصل الاشتقاق ينبئ عن علاقة بين عدد من الألفاظ، وهذه العلاقات تسود في نظام المعجم لتصبح واحداً من مكونات هذا النظام.

٢ - فإذا عرفنا هذا النوع من العلاقات الرابطة بين مكونات النظام فإن من المفيد أن ننظر في علاقات التمايز والفروق وهي علاقات ضرورية لتكوين النظام أيضاً. ومن الواضح أن التعبير عن هذا التمايز بين المفردات يكشف عن اختلاف الصيغ الصرفية التي تقع كل منها في نطاق معنى وظيفي بعينه. فإذا رأينا الفرق بين "قاتل" و "قتال" و "قتيل" الخ (وهي من أصل اشتقاق واحد) عرفنا أن الفرق يكمن في اختلاف الصيغ. فإحدى الصيغ تدل على محدث للقتل لم يتكرر منه القتل، أو دون اهتمام بعدد مرات القتل؛ وأن الصيغة الثانية تدل على تكرار القتل من هذا الموصوف بالصيغة، وأما الصيغة الثالثة فتصف شخصاً

وقع عليه القتل. تلك هى الفروق التى تتحقق من خلال اختلاف صيغ المفردات.

٣ - والفرق المذكور بين المعنيين يعد وظيفة للصيغة، ولهذا سُمى: "معنى وظيفياً"؛ لأنه لا يشير إلى تباين فى مفاهيم خارجية من قبيل الأشياء والأحداث. وإنما يشير إلى وصف بإجراء الحدث الذى جاء مرة فى صورة اسم الفاعل، ومرة فى صورة المبالغة، وثالثة فى صورة اسم المفعول وهنا تتحقق اختلاف المعنى الوظيفى بحسب اختلاف الصيغة. وقد درج النحاة على أن يصفوا المعنى الوظيفى بأنه "معنى عام حقه أن يؤدى بالحرف". ونسبوا إلى هذا المعنى أنه سبب من أسباب البناء (المضاد للإعراب) فى حالة الأدوات وحروف المعاني والضمائر والموصولات والظروف الأصلية (غير المنقولة). أما فى شأن المعجم فإن الصيغة ليس لها وجود مستقل يستدعى البناء فى مثل الصيغ الثلاث المذكورة منذ قليل، ومن هنا لم يكن معناها العام من أسباب البناء فتبنى المفردات الواردة على مثال هذه الصيغ. وأما أهمية الصيغة فى إطار النظام المعجمى فلكونها تعين (بها) لها من نواحى الاتفاق والاختلاف على رؤية علاقات وتصنيفات فى إطار النظام المعجمى).

٤ - كانت المادة الأصلية للدراسة اللغوية العربية هى النصوص المروية عن فصحاء العرب (ويسمونها: المسموع عن كلام العرب) وحين تأمل اللغويون هذه المادة المسموعة وجدوا ظاهرتين: إحداهما تعدد اللفظ للمعنى الواحد كما فى أسماء الأسد والسيف الخ (وسموها الترادف)، والأخرى تعدد المعنى للفظ الواحد كالذى نجده من تعدد معانى "ضرب" على النحو التالى: ضرب زيد عمرا (= صفعه) - ضرب الله مثلاً (= أورده) - ضرب فى الأرض (= سعى) ضرب له موعداً (= حددته) - ضرب عليه ضريبة (= فرضها) - ضرب ٥ فى ٦ (= حسبها) - ضرب العملة (= صاغها) الخ. فكان عليهم أن يوازنوا بين هذه الاستعمالات، وأن يعينوا الأصل منها والأقل أصالة. فاتجهوا إلى تجريد الأصل، ونسبوا هذا الأصل إلى الوضع، أو نسبوا المعنى إلى الوضع، وجعلوا ما عدا المعنى الأصلى أحد معنيين:

أ - معنى تنقصه الشهرة والشيوع في الاستعمال، ولكنه مما ينسب إلى اللفظ كما رأينا في بعض معانى الفعل "ضرب" منذ قليل.

ب - ومعنى آخر جاء عن طريق النقل من المعنى الأصلي إلى دلالة أخرى لا يبررها العرف العام، ولكن تقوم قرينة معينة على إرادتها هي دون المعنى الأصلي. والمقصود بالنقل أن يتحول اللفظ في الاستعمال من القسم الذى ينتمى إليه من أقسام الكلم (بحسب نظام اللغة) إلى قسم آخر فيعامل معاملة هذا القسم الآخر فيما يلي:

* - "إذ" ظرف لما مضى من الزمان بحسب الأصل، ولكنها قد تنقل إلى أحد المعانى التالية:

المصدرية، نحو "ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا".
التعليل، نحو "وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم" أى لأنهم.
الاستفتاح، نحو "وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين"
أى لقد قال.

• - "إلا" من حروف الاستثناء ولكنها قد تنقل إلى ما يلي:
الاستدراك، نحو "ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى"
أى لكن تذكرة.

وكذلك "وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى" أى لكن.
* "المصدر" وهو اسم الحدث قد ينقل إلى استعمال الفعل.

* - "ما" موصولة ولكنها تنقل إلى النفى والشرط والاستفهام والتعجب، وهلم جرا. ولكن أوفر صور النقل حظا من الشهرة هي صورة المجاز الذى يعرف بأنه:
"نقل اللفظ من معناه الأصلي إلى معنى آخر لعلاقة بين المعنيين مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي".

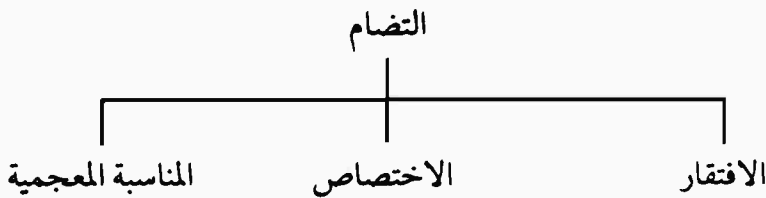
يتضح من ذلك أن ظاهرة النقل لم تلفت نظر النحاة بقدر ما لفت نظر البلاغيين؛ إذ إن النحاة لم يلحظوها إلا في بابين من أبواب النحو هما باب اسم العلم (ومنه منقول كفضل وأسد) وباب التمييز المنقول عن الفاعل أو عن المفعول (والفاعل المعنى انصبين بأفعلا).

٥ - ولعل أوضح ما يرر دعوى كون المعجم نظاما فكرة الحقول المعجمية. كلنا يعلم أن الجملة العربية تتكون من مسند إليه ومسند، وقد تضاف إليهما مكملات ذات شروط صياغية معينة. فقد تكون الجملة من فعل وفاعل، وقد تكون من مبتدأ وخبر. ثم إن الفعل قد يكون متعديا وقد يكون لازما، فيصل إلى المفعول بحرف جر يخضع للاستبدال بحسب العلاقة بين الحدث الذى فى الفعل وبين مدخول هذا الحرف. وهذه الطبيعة فى تكوين الجملة العربية اقتضت أن يكون فعل ما صالحا أن يسند إلى فاعل ذى شروط خاصة، وأن خبرا فى الجملة الاسمية لا يسند إلا إلى مبتدأ ذى شروط معجمية معينة. وإن الحال تتطلب صاحبها لها يمكن وصفه بها (لأن الحال وصف لصاحبها فى المعنى). وهكذا تقوم بين المعانى النحوية علاقة المناسبة المعجمية التى تجعلها صالحة للمصاحبة فى السياق، أو علاقة مفارقة معجمية تنفى أن يكون أحد اللفظين مصاحبا للآخر. فيمكن أن يقال مثلا: "أحس فلان بالخرج أن يرفع صوته بالغناء"، ولا يقبل أن يقال: أحس البساط بالفرحة تطير فى نسيجه. ذلك أن الفعل "أحس" يتطلب فاعلا ذا قدرة على الإحساس والبساط لا حس له وهو غريب عن فكرة الخرج والفرح. ومن هنا توصف الجملة التى قيلت عنه بالفساد، لأن المفارقة المعجمية حكمت بفسادها.

وللمناسبة المعجمية درجات أرفعها منزلة أن يصاحبها مشاركة فى الأصل الاشتقاقى بين طرفيها فيتحقق بذلك عدد من الأواصر بين طرفى المناسبة (الاشتقاق والمشاركة فى المصدر والمشاركة فى أصل المعنى). انظر مثلا إلى قوله تعالى: "سأل سائل بعذاب واقع للكافرين". أو إلى قوله جل شأنه: "قال قائل منهم

لا تقتلوا يوسف" وستجد المناسبة واضحة في المحاور الثلاثة التى ذكرناها منذ قليل. فهذه أعلى درجات المناسبة بين عناصر الجملة العربية؛ لأن السؤال لا يكون إلا من سائل والقول لا يكون إلا من قائل. وهكذا تقترب المناسبة من الحتمية.

والمناسبة بدرجاتها المختلفة شرط من شروط التضام النحوى؛ فالتضام يتكون من الأمور التالية:



ومعنى الافتقار أن بعض كلمات اللغة لا تفيد إلا إذا ضمت إليها كلمات أخرى بعينها، أو عناصر لغوية أكبر من الكلمة المفردة. فحرف الجر مفتقر إلى مجرور، والموصول مفتقر إلى جملة الصلة، و "يا" النداء مفتقرة إلى منادى، وأداة الشرط مفتقرة إلى شرط وجواب، الخ. الاختصاص عنصر آخر من عناصر التضام يتعين بحسبه أن يقع العنصر اللغوى فى موقع بعينه بحيث لا يرد بعده إلا عنصر معين كاختصاص "لم" بالدخول على المضارع، أو قسم من أقسام الكلم كاختصاص حروف الجر بالأسماء وحروف الجزم بالأفعال، وهلم جرا. ومن الواضح أن بين الاختصاص والمناسبة المعجمية وجه من الشبه؛ لأن كلا منهما مشروط بأن يصحب ما يتفق معه فى سمات المعنى.

هكذا نكون قد عرفنا عناصر التضام الثلاثة، وعرفنا أن النظام المعجمى مسئول عن بعض مظاهر التضام النحوى؛ فمثله فى خدمة النحو كمثل نظام الأصوات ونظام الصرف. انظر مثلاً إلى البيت التالى الذى نام المتنبى عن شوارده وسهر له الخلق واختصموا حول سبكه:

فأصبحت بعد خط بهجتها كأن قفر رسومها قلما

أى فأصبحت بعد بهجتها فقرا كأن قلما خط رسومها (تأمل فساد التضام). ولعل كل ما سبق من كلام عن الحقول المعجمية وصلتها بالمناسبة المعجمية ينصب على المعنى الأصلي الذى ينسبه النحويون إلى أصل الوضع، وبذلك يكون هذا المعنى من تجريدات المفاهيم النحوية. أما المعنى المعتمد على النقل فهو إجراء اسلوبى فردى يقوم به المتكلم.

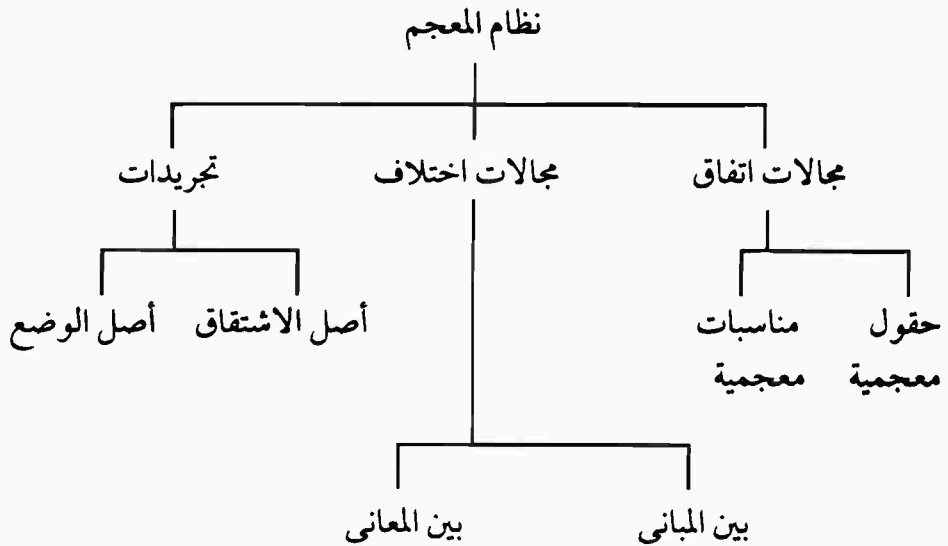
كان من المنطقي مع القول بتجريد المعنى الأصلي أن لا يتعدد هذا المعنى (لأنه جاء بأصل الوضع)، ولكن رواية اللغة لم يكن مصدرها كلام قبيلة واحدة، بل تعددت قبائل الفصاحة في عرف النحاة حتى بلغت ست قبائل أو نحوها. فآية كلمة مفردة اختلف معناها من قبيلة لأخرى رأى اللغويون أن هذا العدد من المعانى ينسب (على رغم تعدده) إلى أصل الوضع؛ ومن حقه أن يراعى جميعه في توزيع الحقول المعجمية وفي مبدأ المناسبة المفرد ثم في ترتيب شرح مواد المعجم أيضا. فالمعنى المفرد معجميا كان أم وظيفيا من شأنه أن يقبل التعدد والاحتمال، ثم لا يذهب بهذا الاحتمال إلا وضع الكلمة المفردة في سياق ذى قرينة تدل على خصوص المعنى.

من المعروف أن افتقاد المناسبة المعجمية يفسد المعنى كما مر. ولكن هناك ظاهرة أسلوبية تحول (مع عدم المناسبة) دون فساد المعنى، وتلك هى ظاهرة "النقل" التى سبقت الإشارة إليها، والتنبيه إلى أن البلاغيين كانوا أكثر احتفاء بها من النحاة. لقد وضع البلاغيون للنقل قاعدة مطردة يتحول الكلام بحسبها من الحقيقة إلى المجاز. ولقد عرف البلاغيون المجاز كما مر، وسموا النقل مجازا أى جوازا من نقطة إلى أخرى (وهذا هو المقصود بالنقل أيضاً).

نقف عند هذا الحد وقفة تأمل في طبيعة النظام في عمومه، ثم نحاول بعد ذلك أن نستخرج من هذا التأمل صدق الدعوى التى ادعيناها أن المعجم نظام، وليس مجرد رصيد من الألفاظ المفردة. فمن شأن كل نظام أن يقوم على أساس نوعين من أنواع العلاقات الكبرى هما: علاقات اتفاق (بين عناصر النظام) وعلاقات

اختلاف (أى فروق) بين هذه العناصر. فأما علاقات الاتفاق فإنها تعين على التبويب (أى وضع العناصر المتشابهة فى مجموعات)، وأما العلاقات الفارقة فإنها تعين على تمايز هذه المجموعات كل منها عن الأخرى. وباستعمال الاتفاقات والفروق يمكن أن يتحقق النظام، ويمكن عندئذ تجريد الأقسام والاصطلاح لها. وهكذا يمكن تلخيص فكرة النظام بأنه بناء من العلاقات والتجريدات المعبرة عن هذه العلاقات.

فإذا نظرنا إلى المعجم فى ضوء هذه الحقائق ادركنا ما له من طابع النظام وأن هذا النظام يبدو على النحو التالى:



هذه العناصر التى يتكون منها نظام المعجم يتفاعل بعضها مع بعض، كما أن نظام المعجم ذاته يتكافل مع النظم اللغوية الأخرى (الأصوات والصرف والنحو) فى سبيل إنتاج النص اللغوى. والمعروف أن الوصول إلى المناسبة المعجمية فى الاستعمال يتطلب وجود الحقول المعجمية، وهذه الحقول تقوم على العلاقات بنوعيتها بين المفردات. وبهذا يتضح أن المعجم نظام وليس رصيذا من المفردات.

الرجال قوامون على النساء.

يتفاوت الفهم لدى الرجال والنساء عند سماع قوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ (النساء ٣٤). ويقع اختلاف الفهم بالنسبة لأمر ثلاثة:

- ١ - بالنسبة لمفهوم الأفضلية التي هي سبب القوامة،
 - ٢ - وبالنسبة للبعضية المتمثلة في عبارة: "بعضهم على بعض"،
 - ٣ - ولمفهوم الإنفاق من لدن الرجال.
- وفيما يلي بيان لوجه الصواب في فهم هذه الأمور:

• يخطئ بعض الرجال إذ يفهم أن المقصود بالأفضلية حكم قيمى مجرد لا يرتبط بأسس اجتماعية أو تكوينية تتصل بالقدرات الطبيعية لكل من الجنسين، أو دينية تتصل بالتكاليف الشرعية. فأما الرجل فيتمثل سوء فهمه في كونه يطلق لنفسه العنان في التسلط على امراته ويرى في ذلك رخصة من عند الله منحه إياها لمجرد كونه رجلاً، ويبالغ في ذلك على طريقة (سى السيد). وأما المرأة التي لا يرونها ذلك فإنها عندما تضيق بهذا التسلط من لدن الرجل تلتمس لنفسها مخرجاً بتأويل الآية الكريمة على غير وجهها الصحيح، فتحطئ كما أخطأ الرجل من قبلها وذلك بتأويل النص بحيث تسخره لصالحها. فالفرقان فيما نرى بحاجة إلى معرفة الأسس التي بنى عليها تفضيل الرجال بجعلهم قوامين على النساء، وهى أسس لا ينبغي لها أن تكون مدعاة لفخر الرجل ولا لسخط المرأة وفي ذلك بيان لهذه الأسس:

• خلق الله الرجل وأمده بقوة عضلية ليس للمرأة مثلها، وذلك ليكون قادرا على السعى في طلب الرزق وعلى أن يعول أسرة متعددة الأفراد وعلى حماية من يعول إذا تعرض عياله لظروف غير مواتية. أما المرأة فإن وظائفها تختلف عن وظائف الرجل ولكنها لا تقل أهمية عنها وإن لم تكن صالحة لجعل المرأة قوامه على الأسرة.

• لما كان من وظيفة الرجل أن يكون عائلاً لأسرته ولم تكن المرأة كذلك اعطى الله تعالى للرجل من الميراث مثل حظ الأنثيين فكان ذلك مصداقاً لقوله تعالى: "بما فضل الله بعضهم على بعض".

• ومن صور التفضيل أيضاً أن ينسب المولود إلى الأب دون الأم محافظة على الأنساب، وفي ذلك يقول الله سبحانه: ﴿أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ (الأحزاب ٥).

• ومما خص الله به الرجل دون المرأة أن يكون الرجل صالحاً للإنجاب طول عمره بخلاف المرأة التي تتوقف عن أداء هذه الوظيفة عند سن اليأس.

• مما لا يتعارض مع حفظ الأنساب أن يأذن الشارع بزواج الرجل من امرأة واحدة أو أن يتجاوز ذلك إلى أربع نساء، أما المرأة فإذا عدت الأزواج فرت الأنساب ووقع النظام الاجتماعي في فوضى، ولذلك حرم الشارع تعدد الأزواج للمرأة الواحدة.

• يوجد العنصر الحيوي (الحيوان المنوي) في ماء الرجل وتبقى المرأة مجرد مستقر للجنين حتى يأذن الله تعالى بإخراجه طفلاً.

• من طبيعة الحياة العامة أن يكون ثمة مجتمع للرجال وآخر للنساء، وإن تختلف معايير السلوك في أحد المجتمعين عنها في الآخر. والمجتمع الرجالي منفتح والمجتمع النسائي مغلق. ومن هنا يصبح للكلمة وزن لدى الرجال أكثر مما لها عند النساء. ولذا أصبح الرجل: أكثر حرصاً على انتقاء كلمته من المرأة. ولهذا السبب جاء قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا

رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَأَمْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ
إِحْدَاهُمَا الْآخَرَىٰ ﴿البقرة (٢٨٢)﴾. وللضلال صور لا تحصى!

ثانيا: مفهوم البعضية:

لخص الله سبحانه وتعالى الأسباب السابقة لإسناد القوامة إلى الرجل بقوله جل شأنه: "بما فضل الله بعضهم على بعض". والمعنى (والله أعلم): بسبب الأمور التي سبق ذكرها. ولكن من النساء من تخطئ في فهم هذه العبارة تحت دافع الاستنكار لتسلط الرجل. وقد سمعت سيدة فاضلة في برنامج تلفزيوني تقول إن المقصود بالبعضية أن الله فضل بعض الرجال على بعض النساء. ولو أخذنا بهذا الفهم لاحتمل المعنى أن يكون المقصود من الآية هو كون بعض النساء أفضل من بعض الرجال. وهذا ليس من مقاصد الآية الكريمة بالطبع.

ثالثا: مفهوم الإنفاق:

قال تعالى في بيان سبب الأفضلية: "وبما أنفقوا من أموالهم". وإذا أردنا أن نبين الأحوال التي يتم فيها الإنفاق المناسب للرجل دون المرأة وجدنا يدور في صورتين: الأولى هي المهر الذي يدفعه الرجل عند الزواج، والثانية هي النفقة التي تجب عليه بعد الدخول. وليست المرأة مسئولة عن شيء من هذا القبيل.

بهذا نجد أن الأفضلية ليست بسبب الذكورة ولكنها بسبب وظائف للرجال يختصون بها دون النساء، ولهذا جاء قوله تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَىٰ نِسَائِهِمْ دَرَجَةٌ﴾. ولا داعي عندما تضيق المرأة بأخطاء الرجل أن يدفعها ضيقها إلى التهجم على مدلول الآية الكريمة. وقد يكون لنا أن نذكر في هذا المقام بالحديث الشريف الذي يجعل الرجل راعيا في أهله ومسئولا عن رعيته، ويجعل المرأة راعية في بيتها ومسئولة عن رعيته. وواضح أن رعاية الأهل أثقل حملا من رعاية البيت وهذا وجه آخر للأفضلية.

أيام الله في القرآن الكريم

ورد في تعقيبي على ما قاله بابا الفاتيكان في تهجمه على الإسلام شاهد قرآني على الأمر بالتسامح في التعامل مع غير المسلمين إذا بدت منهم إساءة للإسلام أو للنبي الكريم (عليه الصلاة والسلام) أو لأحد المسلمين، وذلك قوله تعالى في سورة الجاثية: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٤). وقد حرصت قبل أن أضع هذا بين شواهد التعقيب أن أَتَبَّتَ من المعنى المقصود بلفظي "يرجون" و "أيام الله". وكان في متناول يدي عندئذ من التفاسير المشهورة خمسة تدعو للاطمئنان هي: البحر المحيط لأبي حيان وتفسير القرآن العظيم لابن كثير وتفسير النسفي وتفسير القرطبي ثم الكشف للزمخشري. بدا لي أن أفضل الطرق أن ألتمس سبب النزول للكشف عن سياق الموقف للوصول إلى معنى سياق اللفظ فوجدت سبب النزول بصورة عامة يرتبط بعمر بن الخطاب وما كان من غضبه إما على عبد الله بن أبي إذ نطق بعبارات مهينة للمهاجرين أو على يهودى سمع قوله تعالى: ﴿لَا يَخَافُونَ الْعَذَابَ أَلَّا يَرْجُوا أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٤). وقال: احتاج رب محمد. وفي كلتا الحالتين امتشق عمر سيفه وحاول إيقاع العقاب باليهودى.

قال المفسرون المذكورون إن معنى "لا يرجون أيام الله" لا يرجون ثوابه، أو لا يخافون بأس الله ونقمته، وقال بعضهم: "لا يخافون البعث". فإذا تأملنا هذه الأقوال وجدنا حاجة إلى فهم عبارتين: "لا يرجون" و "أيام الله". فأما الرجاء

فأشهر معانيه توقع حدوث الشيء فإذا انصرف ذلك إلى "أيام الله" (وسوف نبين المقصود بها بعد قليل) تبادر إلى الفهم أنهم لا يؤمنون بها ولا بما ورد في القرآن الكريم من الإشارة إليها. وهذا شأن الذين لا يؤمنون بالغيب ولا بتعاليم الإسلام. ويقال إن المقصود بهذا (كما سبق القول) أن يقول الرسول ذلك لعمر بن الخطاب فيما يتصل بما قاله عبد الله بن أبي من إهانة للمهاجرين، أو ما قاله اليهودي عند سماعه قول الله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ (البقرة ٢٤٥): إذ قال "احتاج رب محمد". فالقائل على الروایتين غير مؤمن بالله ولا باليوم الآخر. أى أنه لا يتوقع مجئ هذا اليوم ولا يؤمن به.

أما "أيام الله" فسوف نفصل القول فيها كما يلي: ينسب القرآن اليوم إلى الله إذ تعلق هذا اليوم بمشيئة الله وقضائه سواء تعلق هذا القضاء بأمور الدنيا أو بأمور الآخرة. وفيما يلي نورد مختارات من آيات القرآن الكريم يشتمل كل منها على ذكر يوم من أيام الله:

- ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ (فاتحة الكتاب ٤).
- ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة ٨).
- ﴿وَيَوْمَ الْقَيْمَةِ يُرْذَلُونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (البقرة ٨٥).
- ﴿مَنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفِيعَةٌ﴾ (البقرة ٢٥٤).
- ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ (آل عمران ٩).
- ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ (آل عمران ٣٠).
- ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ (آل عمران ١٠٦).
- ﴿يَوْمَ تَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ﴾ (المائدة ١٠٩).
- ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ (المائدة ١١٩).

- ﴿ وَيَوْمَ نَخْشِرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاءُكُمْ ﴾ (الأنعام ٢٢).
- ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ﴾ (الأنعام ٧٣).
- ﴿ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ (الأعراف ١٤).
- ﴿ إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ﴾ (الأنفال ٤١).
- ﴿ وَأَذِّنْ مِنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ ﴾ (التوبة ٣).
- ﴿ يَوْمَ نَحْمِي عَلَىهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فِتْكُورًا يَهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ﴾ (التوبة ٣٥).
- ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ (التوبة ٣٦).
- ﴿ ذَلِكَ يَوْمَ تَجْمُوعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمَ مَشْهُودٍ ﴾ (هود ١٠٣).
- ﴿ وَذَكَرَهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ (إبراهيم ٥).
- ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ (إبراهيم ٤١).
- ﴿ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ ﴾ (إبراهيم ٤٤).
- ﴿ يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ﴾ (إبراهيم ٤٨).
- ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾ (٣٧) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿ (الحجر ٣٧ - ٣٨).
- ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ (النحل ٨٤).
- ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ ﴾ (النحل ١١١).

• ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾
(الاسراء ٥٢).

• ﴿وَيَوْمَ نُسِرُّ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾
(الكهف ٤٧).

• ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾
(الكهف ٥٢).

• ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ (مريم ٣٨).

• ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْخَسِرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ (مريم ٣٩).

• ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ (طه ١٠٢).

• ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِ لِلْكِتَابِ ۚ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ
نُعِيدُهُ﴾ (الأنبياء ١٠٤).

• ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ (الحج ٤٧).

• ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النور ٢٤).

• ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُزْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنْتَبِهُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ (النور ٦٤).

• ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ (الفرقان ٢٢).

• ﴿وَيَوْمَ تَشْقُقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا ۖ الْمَلَكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ
لِلرَّحْمَنِ﴾ (الفرقان ٢٥ - ٢٦).

• ﴿وَلَا تَحْزَنْ يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۖ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۖ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ
بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (الشعراء ٨٧ - ٨٩).

• ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ (القصص ٦٢ و ٧٤).

• ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (القصص ٦٥).

• ﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ (العنكبوت ٥٥).

• ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ (الروم ١٢).

• ﴿ فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ (الروم ٤٣).

• ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ ﴾ (الروم ٥٦).

• ﴿ نَحْيَتُهُمْ يَوْمَ يَقُومُهُمْ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ (الأحزاب ٤٤).

• ﴿ رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴾ (غافر ١٥).

• ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمِينَ ﴾ (غافر ١٨).

• ﴿ وَيَسْقُومُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴾ (غافر ٣٢).

• ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ (غافر ٥١).

• ﴿ لِيُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ (الشورى ٧).

• ﴿ فَأَرْزَقَتْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُبِينٍ ﴾ (الدخان ١٠).

• ﴿ يَوْمَ تَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ ﴾ (الدخان ١٦).

• ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْءًا ﴾ (الدخان ٤٠ - ٤١).

- ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِخُونَ نُفُوسًا مِّن مَّوَدِّعٍ ﴾ (الجنات ٢٧).
- ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلِهَتُكُمْ طُبَيِّعَتْكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا ﴾ (الأحقاف ٢٠).
- ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴾ (ق ٢٠).
- ﴿ أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴾ (ق ٣٤).
- ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ (ق ٣٠).
- ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴾ (ق ٤٢).
- ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ (ق ٤٤).
- ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ۖ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ۖ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ (الطور ٩ - ١١).
- ﴿ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا ۖ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ (الطور ١٣ - ١٤).
- ﴿ يَوْمَ لَا يَغْنَىٰ عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ (الطور ٤٦).
- ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكْرٍ ﴾ (القمر ٦).
- ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَلِيلِ ﴾ (المعارج ٨).
- ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴾ (المزمل ١٤).
- ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا ۖ لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ (النبا ٣٨).
- ﴿ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَقَابًا ﴾ (النبا ٣٩).
- ﴿ يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ (النبا ٤٠).
- ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۖ تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ ﴾ (النازعات ٦ - ٧).

• ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ (عبس ٣٤).

هذه نماذج من أيام الله اختير معظمها من عدد من مرات ذكره في نص القرآن الكريم اختصاراً للموضوع المعروض. وقد كان اختيار العنوان في ضوء ما ورد في الآية الخامسة من سورة إبراهيم.